صادر الكتب

جريمة الطبيب

رواية بوليسية

Den fall

Denuga

لغز قضية ديروجا

ريكارتا هوخ
Ricarda Huch

ترجمتها عن الألمانية : دعاء شحاته

مَسَار للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
1447هـ - 2026م

اسم العمل: جريمة الطبيب
اسم المؤلف: ريكارتا هوخ
ترجمة: دعاء شحاته
تدقيق لغوي: ملك محمد جلال
تصميم الغلاف: محمد علي
الإخراج الداخلي: خالد محمود
رقم الإيداع: 2025 / 34163
الترقيم الدولي: 978-633-8363-69-7

شارع ونس- قسم يوسف بيك- الزقازيق- الشرقية- مصر

01020439639

massar.pub1@gmail.com

جميع الحقوق الخاصة بالتنسيق الداخلي، وتصميم غلاف هذا الكتاب، والترجمة الخاصة بدار مسار محفوظة، ولا يسمح بإعادة استخدامها دون الحصول على تصريح خطي من الناشر.
ملكية حقوق الطبع والنشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

الفصل الأول

- "من هذا المحامي، الذي دخل برفقة المستشار القضائي (المحامي) فاين؟".

طرحت سيدة على زوجها سؤالًا في مقاعد الحاضرين.

- "ولماذا للمتهم محاميان اثنان؟ أما فاين ليس أكثر من زينة للعرض".

رد الزوج بنبرة تحمل اللوم، قائلًا: "لو كان هذا الشخص حقًا محاميًا يا عزيزتي لارتدى الزي الرسمي للمحامين، لكن لا أستطيع أن أعطيك جوابًا محددًا عمن يكون هذا الشخص".

استدار رجلًا كان جالسًا أمام الزوجين، وأوضح أن الشخص المعني هو المتهم الدكتور ديروجا.

صاحت باندفاع: "هل هذا ممكن؟ هل أنت متأكد من هذا الأمر؟".

ضحك العجوز مبتهجًا، قائلًا: "أعلم علمًا يقينيًا، إنني صانع الآلات الموسيقية رايشارت من كاتسنتريت؛ فالدكتور يسكن عندي بالفعل".

اتسعت عيناها من الدهشة، قائلةً: "هل حقًا يُسمح لقاتل أن يتجول بحرية؟ ظننت أنه داخل السجن، ألا يثير فيكم الشعور بالخوف أن يكون مثل هذا الرجل في منزلكم؟".

رد العجوز قائلًا: "نعم، كما ترين سيدتي الكريمة، لقد قدّمه

لي المستشارالقضائي (المحامي) فاين؛ لأنه يعرفني منذ زمن طويل وأراد أن يطمئن على راحة موكّله، وإذا كان المستشار يضع كل هذا الثقة فيّ إلى درجة أنه يسمح لي بإصلاح كماناته وفلوتاته، ويجعل ابنته تتلقى عندي دروس العزف على الزيثر، فلا بد لي أن أبادله الثقة. وقد أوصاني بحرارة على موكّله، والذي ظهر لي حتى الآن شخصًا لطيفًا وودودًا، لكنه أيضًا غريبًا بعض الشيء".

قال الزوج: "عليكِ ألا تنسي عزيزتي أن المتهم لم يصدر حكمًا عليه بعد".

واصل صانع الآلات الحديث، قائلًا: "حقًا صحيح، حقًا صحيح".

وكان على وشك أن يسرد العديد من الحالات الغريبة لأخطاء القضاء، حينما جذب انتباهه ظهورهيئة المحلفين.

همست السيدة إلى زوجها أنها تجد أنه من غير اللائق أن يتحرك مشتبه فيه بالقتل بحرية، وبالأخص شخص يبدو وكأنه قادرعلى ارتكاب أي جريمة.

رد الزوج قائلًا: "عليكِ توخي الحذر من الحكم على الناس من المظهر، عزيزتي الصغيرة. لكن بعيدًا عن هذا الأمر، فأنا أيضًا أثق بهذا الرجل.

إنه لأمرغريب كيف للمرء أن يكون ساذجًا، وغير بارع في قراءة ملامح الوجه".

وكذلك أيضًا تشكل لدى معظم الحضور انطباع سلبي عن الدكتور ديروجا، من خلال إهماله في ملبسه، وقفته، نظراته الفضولية الساخرة التي طافت في أنحاء القاعة، بدا وكأنه يستهزئ بجلال المكان ورهبته.

لاحظت السيدة الشابة، موجهةً نقدًا لزوجها: "كنت أظن أنه ذو شعرأسود مجعد وعينين لامعتين كالنار".

فـ رد الزوج: "لكن، عزيزتي الصغيرة نحن أيضًا لسنا جميعًا ذوي عيون زرقاء وشعر أشقر".

تدخل رجلًا قائلًا: "إنه من أصول إيطالية، فهو يأتي من شمال إيطاليا؛ حيث يبرز الطابع الجرماني بوضوح".

وأضاف آخر قائلًا: "إنه يمثل في الواقع النوع الإيطالي الخالص، وهو نوع الغادرين والمخادعين والمنتقين، كما كان يتصورهم الألمان منذ العصور الوسطى". في اللحظة نفسها، اقترب موظف المحكمة من المتهم وطلب منه الجلوس على مقعد الاتهام، فجلس مطيعًا مواصلًا من هناك حواره مع المستشار فاين.

في الحال دخل محامٍ شاب إلى قاعة الحضور، فقال المستشار مشيرًا إليه: "انظر، ها قد وصل الصياد الأمهر الدكتور بيرنبورجر، لقد وكلته البارونة تراوشكويتز بتتبع خطواتك وهو كما ترى ذو أنف صائد وبارع. إنه أخطر أعدائك، أما المدعي العام ليس سوى بعبع فارغ".

نظر ديروجا إلى الدكتور بيرنبورجر، الذي بدا غارقًا بكامل انتباهه في أوراقه، ثم تحدث مازحًا بلطف، وهو يتأمل هيئة المستشار الكبيرة والمريحة: "أظن أنه يمثل لك خطرًا كما يمثل لي". وأضاف: "حقيقةً، كنت سأصبح من أشد المعجبين ببيورنبورج، لو لم يكن ذا شخصية وضيعة إلى هذا الحد".

استدار المستشار، مستندًا بذراعه على الحاجز الفاصل، الذي يغلق مقعد الاتهام، قائلًا: "لا تجعلني أضحك الآن، أيها الإيطالي اليائس! لدينا جميعًا سبب وجيه لنتخذ من سلوكه المتربص بالفرص مثالًا لنا".

قال ديروجا: "إنه يشبه طائرًا جارحًا، رأسه رفيع، وأود لو كان لي مظهره. ألا أشبهه بعض الشيء؟".

أجابه المستشار: "تصرف كما يتصرف، واجمع أفكارك! يا رجل، قضيتك ليست آمنة كما تعتقد. بيرنبرجر بلا شك يخبئ في جعبته ما سيفاجئنا به، فاحذر!".

قال ديروجا متوترًا بعض الشيء: "حسنًا، في كل الأحوال، عليك أن تحافظ على هدوئك، ولا ينبغي أن يهمك أمري أكثر مما يهمني أنا".

في تلك اللحظة، انفتحت أبواب القاعة من الخلف، ودخل رئيس المحكمة، المستشار الأول د. زوينمان، يليه العضوان الآخران والمدّعي العام.

حرك الهواء عباءة المستشار وهو يتقدم بسرعة، فبانت

قامته المشدودة والوقورة.

حيّا بإيماءة لم تكن متعالية ولا ودية بطابع شخصي، بل جمعت بين الاحترام والثقة. بحضوره عمّ المكان نوع من الطمأنينة والبهجة، وكأن كل شيء يسير هنا وفق النظام.

بعد جلوسه، فرك برفق يديه الجميلتين العريضتين ذات اللون الأبيض، ثم شرع في عمله باختيار هيئة المحلفين. سار كل شيء بسلاسة، وشعر الجميع وكأن قوة خفية وضعت كل منهم في مكانه الصحيح.

بدأ حديثه قائلًا:

"سيداتي وسادتي المحلفين، اليوم نتناول قضية معقدة قليلًا، وسأحاول أن أقدم لكم خلفيتها ...".

في الثاني من أكتوبر توفيّت هنا في ميونيخ، على ما يُعتقد نتيجة مرض السرطان، السيدة مينجو سويتر، طليقة السيد ديروجا. كانت قد استعادت اسمها قبل الزواج بعد طلاقها منذ سبعة عشرعامًا. وفي وصيتها، التي فُتحت في أوائل نوفمبر، نصّت على جعل زوجها السابق، الدكتور ديروجا، الوريث الوحيد لممتلكاتها التي تُقدّر بحوالي أربعمائة ألف مارك، مستثنية بذلك أقاربها، ومن بينهم زوجة صاحب الأراضي، البارونة تروشكوفيتس، ابنة عمها الأقرب.

بتحريك من البارونة تروشكوفيتس وبناءً على بعض الشبهات الكافية التي تعرفونها، أصدرت المحكمة قرارًا

بإخراج الجثة من قبرها لإجراء التحقيق، وتبيّن أنّ السيدة سويتر لم تمت نتيجة مرضها، بل بسبب سم فتاك، وهو الكوراري.

عندما وصل إلى ديروجا، المقيم في براغ منذ سبعة عشر عامًا، خبر انتشار شائعات عن شكوك موجهة ضده، توجه إلى هنا ليعرف من هم المفترون عليه كما وصفهم، ولرفع دعوى قضائية ضدهم. وأبلغ بأن المحكمة قد قررت بالفعل توجيه تهمة القتل ضده، وأن عليه تأجيل الدفاع عن نفسه حتى انتهاء المحاكمة.

نظرًا لهذه الظروف الخاصة، وبما أنّ المتهم قد سلّم نفسه بنفسه، فقد اعتُبر أنه لا يُشتبه في نيّته الهروب، ولذلك تم الامتناع مؤقتًا عن اعتقاله.

غير أن ما أثار الشبهات حول المتهم منذ البداية هو أنه كان يمرّ بضائقة مالية كبيرة.

كما زاد من الشكوك ضده أنه في مساء الأول من أكتوبر من العام الماضي اشترى تذكرة سفر إلى ميونخ، ولم يعد إلى شقته في براغ إلا بعد ظهر الثالث من أكتوبر، ولم يتمكّن المتهم من تقديم دليل يثبت أنه كان في مكان آخر وقت وقوع الجريمة.

هذه هي الأسباب الرئيسة التي دفعت المحكمة لتوجيه تهمة القتل العمد ضده. ويُعتقد أن ديروجا زار زوجته السابقة

لطلب المال منها أو لابتزازها، وأنه أثناء هذه الزيارة، وفي لحظة غضب أو بسبب رفضها، قام بقتلها. ومع ذلك، يبدو أن حيازة ديروجا للسم تُشير إلى احتمال وجود خطة مدروسة.

غير أن المحكمة أبقت احتمالًا قائمًا على أن المقامر كان يائسًا، ولديه الرغبة في التخلص من حياته، ولم تنجح آخر محاولته، فلم يلجأ إلى تلك الوسيلة إلا في لحظة انفعال غير متوقعة.

خلال الجملة الأخيرة حاول المدّعي العام عبثًا، من خلال إلتواءات جسده النحيل وإشارات إصبعه العقدي، أن يلفت انتباه رئيس المحكمة إليه.

قال معتذرًا وهو يحاول أن يضفي على وجهه الطويل الشاحب مسحة من اللطف: "أود في هذه النقطة أن أؤكد أنني شخصيًا لا أرى لهذه الإمكانية مجالًا. لماذا كان على الرجل أن يعجل بالانتحار من الأساس؟ لقد كان يستمتع بالحياة أكثر من أن يطرحها جانبًا على هذا النحو المتسرّع. أود أن أشير أيضًا أنه عندما خضع المتهم للاستجواب من قبل قاضي التحقيق في المرة الأولى، اعترف بالجريمة الشنيعة، أو بالأحرى تباهى بها، ثم أنكرها بنفس الجراءة".

قال رئيس الجلسة مع حركة يد تجاه المدعي العام، كما لو كان قائد فرقة موسيقية يحاول تهدئة عازف متعجرف. "نعم، نعم، سنعود إلى ذلك لاحقًا، أريد أولًا استجواب المتهم".

"عليك أن تنهض". همس المستشار القانوني لموكله، الذي كان يراقب القاعة والحاضرين بملامح شاردة غير مبالية.

رد متعجبًا وكاد يغضب من المفاجأة: "أنا أقف؟ إذن فلنفعل!". نهض ببطء وألقى نظرة حادقة نافذة على الرئيس، وكأن الرجل الذي يقف هو الممتحن والدكتور زيونمان هو الطالب الذي يخضع للاختبار.

اسمك (سيجيسموندو إينيا ديروجا)، بدأ الرئيس التحقيق، مبرزًا الاسمين الأولين بطريقة فيها قليل من الدراما، أضحكت الحاضرين.

ألقى ديروجا نظرة حادة حول الغرفة، وقال: "هل يُعد هنا جريمة ألا يُسمى الشخص يوهان شولتزه أو كارل مولر؟".

قال الدكتور زوينيمان بنبرة صارمة وهادئة: "أرجو منك الإجابة على أسئلتي بشكل مباشر، اسمك سيجيسموندو، وُلدت في بولونيا، وعمرك ستٌ وأربعون سنة".

- "أهذا صحيح؟".

- "نعم".

- "لقد درست الطب في بولونيا وبادوفا وفيينا، وأقمت أولًا في لينز، ثم في فيينا، بعد حصولك على حق الإقامة المدني هناك".

- "أهذا صحيح؟".

قال ديروجا: "سيكون عارًا حقًا لو لم تتمكنوا بعد أربعة أشهر من التحقق من الأمر بشكل صحيح".

قال رئيس الجلسة وقد أزعجه ضحك الحاضرين: "أذكرك مرة أخرى، أيها المتهم، بأن عليك أن تجيب عن الأسئلة الموجّهة إليك بإيجاز ووضوح. إنّ إطالة التحقيق حتى الآن يعود إلى سلوكك أنت. وأغتنم هذه اللحظة لأوجّه إليك عتابًا جادًا: يبدو أنّك تتبع مبدأ إضاعة وقت المحكمة بتصرفات غريبة وغير لائقة، محاولًا إرباكها وتضليلها. لكنك بذلك لا تفعل سوى زيادة سوء موقفك دون أن تبلغ غايتك. فالمحاكمة ماضية في طريقها بثبات، مهما حاولت أن تضع في دربها من عراقيل. أنت تواجه اتهامًا خطيرًا وكان الأجدر بك بدلًا من تقوية الشبهات ضدك بسلوك متفلّت وغير منضبط أن تدعم المحكمة وهيئة المحلفين بصدقك، وأن تكسب ثقتهم لصالحك. أنت في بلد تُمارَس فيه العدالة بأقصى درجات النزاهة والحياد. لا يلقى الكبير ولا الصغير عندنا سوى العدالة نفسها لا أكثر ولا أقل. وفي المقابل نتوقع من الكبير كما نتوقع من الصغير الاحترام الواجب لمثل هذه المؤسسة المقدّسة. المتعلّم يمنحنا هذا الاحترام طوعًا، وإن لم يفعل، فنحن نعرف كيف نفرضه عند الحاجة".

قال الدكتور زيونمان محذرًا: "أود أن تضع في اعتبارك، سيد ديروجا، أن شهامتك تقف على أقدامٍ هشة جدًا. هل يمكن لامرأة أن تسمح لصديقٍ أن يعرّض نفسه لمثل هذا

الخطر من أجلها؟ عندئذ يفترض المرء أن هذه السيدة ربما لا وجود لها من الأساس. القصة التي ترويها بأكملها لا يمكن للعقل أن يقبلها. أنّك زرت امرأة وقضيت عندها أيامًا وليالي، هذا وحده لا يبدو مستبعدًا بالنظر إلى أسلوب حياتك. وربما كان صحيحًا أيضًا أنّك رغبت في عدم المساس بسمعتها، لكن الوسيلة التي اخترتها لتحقيق ذلك لا يمكن وصفها إلا بأنها غير مناسبة ومضحكة. شخص في ظروف مالية صعبة مثل ظروفك لا ينفق اثنين وثلاثين ماركًا على تذكرة ليس بحاجةٍ إليها".

صحّح ديروجا: "واحد وثلاثون مارك وخمسة وسبعون بفنِج".

قال الدكتور زيونمان بحدة: "تذكرة من براغ إلى ميونيخ تكلف اثنين وثلاثين مارك".

أصرّ ديروجا: "أما الرحلة في الاتجاه المعاكس فهي أرخص بخمسة وعشرين بفنِج".

قال الدكتور زيونمان: "دعنا عن المجادلة، حتى واحد وثلاثون مارك وخمسة وسبعون بفنِج لا يُلقى هباءً حين تكون في ضائقة مالية".

ردّ ديروجا مبتسمًا: "ربما ليس ألمانيًا عاقلًا، لكنني ارتكبت في حياتي حماقات أكبر من هذه. على أي حال، لم أكن في ضائقة مالية، بل كان عليّ فقط ديون".

ضمّ النائب العام يديه، ورفع عينيه إلى السماء كما لو أراد أن يجعلها شاهدة على مثل هذا الاندفاع بلا ضوابط. ثم طلب الكلام، وسأل عن كيفية امتلاك المتهم مالًا كافيًا لمثل هذه الرحلة غير المتوقعة.

بدلًا من الإجابة، مدّ ديروجا يده إلى جيب سترته، أخرج حفنة من النقود وبدأ يعدّها: "ستون، ثلاثة وستون، سبعون، أربع وسبعون مارك.

انظروا، بإمكاني أن أسافر إلى براغ متى شئت، لو لم أفضل البقاء في مدينتكم الجميلة".

"لماذا لم تسدّد ديونك إذا كان لديك مال؟" صاح النائب العام، الذي كان صوته، عند استثارته، يرتفع إلى نبرة صاخبة.

ضحك ديروجا: "أوه، لم يكن لدي ما يكفي لذلك على الإطلاق، لم يكن لدي سوى ما يكفيني لتلبية احتياجاتي اليومية".

أعلن رئيس الجلسة بلفتة من يده انتهاء هذه الأسئلة الجانبية.

ثم سأل: "إذن أنت مُصّر، أيها المتهم، على أنّك اشتريت تذكرة إلى ميونيخ على سبيل المظاهر؟ وما الذي دفعك إلى اختيار ميونيخ تحديدًا؟".

قال ديروجا: "سؤال صعب، لو اشتريت تذكرة إلى فرانكفورت أو فيينا، أكان بإمكانك توجيه نفس السؤال؟ ربما

يوجد هنا محلل نفسي يمكنه أن يقدم لنا استنتاجات مثيرة للاهتمام حول سير أفكاري وارتباطاتها وما إذا كانت عاطفية أم لا. تخصصي هو أمراض الأنف والحنجرة والفم".

تابع رئيس الجلسة تحقيقاته، قائلًا: "ماذا فعلت بعد أن اشتريت التذكرة؟".

روى ديروجا: "وقفت عند البوابة، وعندما فُتحت، توجهت نحو القطار، لكنني لم أصعد إليه، بل عدت باستخدام تذكرة رصيف اشتريتها مسبقًا. ثم التقيت بالسيدة التي ذكرتها أكثر من مرة، وبقيت عندها حتى ظهر الثالث من أكتوبر".

قال الدكتور زيونمان: "الاحتمالات الغيرمعقولة تتزايد، أي طبيب يغيب عن عيادته ليوم ونصف بدون سبب قهري؟".

قال ديروجا: "أنا أرى، أنني لست موجودًا من أجل العيادة، بل العيادة موجودة من أجلي".

قال الدكتور زوينمان: "مبدأ مثير للقلق بالنسبة لطبيب".

أجاب ديروجا بلا مبالاة: "ولماذا؟ معظم المرضى يستطيعون الانتظار بضعة أيام، أما البقية فلا يحتاجون إلى المجيء على الإطلاق. لم يكن لدي أي حالات مهمة آنذاك".

قال الدكتور زيونمان: "بلا شك لم يكن مَرضَاك مدللين، في السنوات الاخيرة قفدت عدد كبيرة منهم بسبب الإهمال وعدم الانتباه لإدارة عيادتك.

مع ذلك كان من اللافت للنظر حتى لك أنك تغيب عن موعد

عملك لمدة يومين دون إشعار مسبق. وبحسب تصريحاتك، وما أكدت عليه مدبرة منزلك أنّك في الثالث من أكتوبر قد عدت إلى مسكنك قبل قليل من الساعة الرابعة. ومن الجدير بالذكر أن القطارالسريع القادم من هنا يصل إلى براغ في الثالثة وعشرين دقيقة. كانت مواعيد الاستشارة لم تنته بعد، وكان ينتظر اثنان من المرضى الصبورين الذين طمأنتهم مشرفة المنزل أنك على وشك المجيء. لكن رفضت استقبال هؤلاء السادة الطيبين، الذين كان عليك وضعهم في الاعتبار؛ لأنك كما أخبرت مدبرة منزلك أنك متعبٌ وتود التوجه إلى الفراش. إذن، كانت إقامتك عند السيدة المتحفظة في أخلاقها، من المفترض أنها شديدة الإرهاق".

قال ديروجا: "أجد دومًا أن السيدات مصدر عناء، وسيما حين يكنّ حمقاوات".

بينما كان المدعي العام يعقد يديه ويرفع عينيه نحو السماء، وكادت أن تختفي تقريبًا تحت حواجبه المقوسة بحدة مريبة.

قال رئيس المحكمة: "لنفترض إذن، أن السيدة التي تجمعك بها علاقة صداقة حمقاء بقدر ما هي فاضلة! ننتقل الآن إلى مسالة أخرى هامة!

هل ترغب أن تروي لنا متى وكيف تم إعلامك بمحتوى الوصية، التي بموجبها جعلتك السيدة الراحلة سويتر وارثًا لممتلكاتها بعد وفاتها؟".

قال ديروجا: "في الأول من شهر نوفمبر، لا أتذكر التاريخ بالظبط، وقد تم إبلاغي عبر الجهة المختصة".

قال الدكتور زيونمان: "يُقال إنك عبرت عن دهشتك وفرحك بوضوح شديد"، لقد كرر ذلك مؤكدًا أمام هيئة المحلفين قائلًا: "أود أن أشير أن أشخاصًا آخرين يشهدون بذلك: الدهشة والسرور".

قال ديروجا مبتسمًا: "أيها القاضي النبيل، أيها الرجل الجليل".

قال رئيس المحاكمة: "أرجو الامتناع عن التعليقات الجانبية، لقد أوشكت الساعة على الحادية عشرة والنصف ونود أن نستكمل التحقيق حتى استراحة الغداء؛ لنصل إلى نهاية مؤقتة. رجاءً أخبرنا، متى وكيف علمت لأول مرة بالاتهام الموجه إليك؟".

بدأ ديروجا قائلًا: "عن طريق رجل شديد الاحترام، محترم وموقر جدًا، رغم أنه مجرد تاجر نبيذ إيطالي فظ. اسمه توماسو فيرزيلي، وقد أتى إليّ قبل خمسة عشر عامًا، بائسًا، بعد أن قضى عقوبة السجن لمدة خمسة أعوام. لقد طعن شرطيًا أراد اعتقال امرأة عجوز فقيرة لأنها أخذت رغيفًا من مخبز. كان فيرزيلي منهارًا نفسيًا ويريد العودة إلى إيطاليا، لأنه، كما قال، مع وجود الألمان لن يخرج من السجن، إذ كان عليه باستمرار مشاهدة أشياء تجعل الدم يغلي في عروقه. قلت له إن الوضع في إيطاليا لن يكون مختلفًا، ونصحته أن

يترك الناس يتصارعون فيما بينهم، فهم يستحقون بعضهم بعضًا، ولن يضار أحد بذلك. وعليه بالزواج والعمل والتفاني لعائلته فقط، كما نصحته بالبدء في تجارة النبيذ الإيطالي وبعض المواد الغذائية، وقدمت له رأس مال صغير لبدء المشروع. وقد أعاد لي هذا المال منذ فترة بعيدة، فبفضل اجتهاده وذكائه ارتقى سريعًا، لكنه ما زال يكن لي امتنانًا كأنني أهديته الحياة يوميًا. وفي منتصف نوفمبر، جاء هذا الرجل في ساعة متأخرة من الليل إليّ في حالة من القلق الشديد، وأخبرني أن القنصل الإيطالي، كافاليير فارامنجو، رجل طيب مسن لكن بسيط الفكر، زار فيرزيلي الذي أصبح الآن يمتلك مطعمًا راقيًا، واستفسر عني سرًا، وكشف سرًا خطيرًا أنني سأُعتقل بتهمة قتل زوجتي السابقة. كان الرجل الطيب في حالة من الذهول، وعرض عليّ كل ثروته إذا أردت الهرب إلى أمريكا. قلت له: "ديروجا والهروب؟ أنت لا تعرف ديروجا جيدًا، يا صديقي العزيز"، وركضت على الفور، رغم توسلات فيرزيلي إلى القنصل الإيطالي. لقد كاد الرجل المسن المسكين على وشك أن يصاب بسكتة دماغية من شدة مواجهتي له، ولأنني لم أحصل منه على معلومات كافية، سافرت إلى هنا لأعرف مصدر هذه الشائعة الحقيرة".

تذّكر د. زيونمان، قائلًا: "لقد تم إبلاغك أن المحكمة قد قررت بالفعل أن توجه إليك تهمة القتل، وأن أي قضية سبٌ قد تفكر في رفعها، عليك تأجيلها إلى بعد انتهاء المحاكمة. وإني يمكن أن أشير أن ظهورك الأول يوحي بمظهر البراءة،

إلا أن سلوكك تجاه قاضي التحقيق قد حمّلك شبهات خطيرة. فأنت في بداية الأمر رفضت أن تجيب على سؤال أين كنت من الأول حتى الثالث من أكتوبر. ثم قلت إنك غادرت بنيّة التخلص من حياتك، ونزلت في إحدى المحطات على غير هدى، وسرت عبر الحقول بلا وجهة محددة حتى وصلت إلى مكان موحش تمامًا. عند نهر ما جلست طويلًا تصارع ما بداخلك حتى غلبك النوم. وبعد ساعات طويلة من نوم عميق استيقظت وقد سكن قلبك، فتجولت قليلًا بلا هدف ثم عدت إلى البيت. وأخيرًا، ظهرت قصة تلك السيدة الغامضة. إن نبع الخيال لديك فيّاض".

رد ديروجا: "ليس كما تعتقد، لقد أردت فقط أن أثير غضب قاضي التحقيق، وأستطيع أن أقول بأني تمكنت من ذلك. لقد كان الرجل على وشك أن يصاب بانهيار عصبي".

صمت د. زيونمان قليلًا حتى هدأ الجمهور، ثم قال: "إني لأعجب أن يتصرف رجل في منصبك، وفي سنك، وبذكائك، بمثل هذا التصرف الطفولي أو الأحمق، فلعلّ أقوالك المختلفة لم تكن سوى مناورة لإرباكنا وتضليلنا".

سأل ديروجا: "هل سبق أن استجوبك قاضي تحقيق أخرق؟ لا، على الأرجح لا. لذا لا يمكنك أن تعرف كيف ستتصرف في مثل هذا الموقف. مع ذلك، لنفترض أنك أكثر مني وعي وحكمة. لديك بنية جسدية تُحسد عليها. أنت حقًا مثلٌ أعلى لما ينبغي أن يكون عليه الشخص السليم. جميع الاضطربات

النفسية التي تسبب من خلال الانطباعات غير السارة، والأسئلة، والشكوك، والأهواء، تتعامل معها بهدوء وقدرة هائلة على الصبر، بحيث تبقى في توازن نفسي لا يشوبه خلل؛ أما أنا فشديد التأثر وسريع الانفعال بلا حدود".

حاول د. زيونمان أن يقطع حديث المتهم، لكنه لم يفعل ذلك بحزمٍ كافٍ. فقال بنبرة ساخرة حينها: "يبدو أن لديك ما يدعو للاضطراب أكثر مني، ربما تشعر براحة أكبر لو جرّبت ذات مرة الصراحة التامة، بدل من أن تستفز نفسك وتستفزنا بمكائرك ومناوراتك".

قال ديروجا بنبرة لطيفة لتهدئة الطرف الآخر، كما يخاطب المرء طفلًا: "سيدي الرئيس، لا أريد أن أثير غضبكم".

همس المستشار القضائي فاين لموكله: "انتظرني في صالة الانتظار في الطابق الأول"، وفورًا بعد ذلك رُفعت الجلسة. سار الاثنان معًا عبر ممر خلفي إلى الحدائق الخلفية التي تفضي إلى شارع هادئ خالٍ من الحركة التجارية. توقف المستشار أمام منحدر مزروع بالأدغال الكثيفة، وغرز طرف مظلته في طبقة الأوراق القديمة اللاصقة الرطبة وقال: "لا بد أن تخرج هنا قريبًا سنبلة من زهور الثلج وزعفران الربيع؛ سأمهد لهما الطريق قليلًا".

قال ديروجا وهو يشد ذراع المستشار: "هلمّ، هلمّ، هما سيجدان طريقهما من دونك. قل لي: "هل لي بعد ظهر اليوم أثناء الجلسة ألا أقرأ أم أفضل أن أنام؟ هذا الكلام يشعرني

بالملل لأقصى حد ممكن يمكنك أن تعطيني دفعة إن شئت إن اضطررت لأن أقف نشاطًا".

قال المستشار: "لا ترتكب حماقات، ربما هذا المساء سيُجرى التحقيق مع المستشار فون مويلشن، والذي لن يشهد لصالحك. فعليك أن تنتبه لعلّك تقدر أن تؤثر على الشاهد بطريقة ما".

صاح ديروجا: "أؤثّر على الشاهد! أنا أود أن أقتله. أكره هذا الرجل، بل أكره هذه القشرة الورديّة الشمعية التي تغطي مستنقعًا كريه".

قال المستشار: "اسمعني يا ديروجا، أحيانًا لا أفهمك، لكن على الأقل كيف لك أن تبقى مديونًا بالمال لشخصٍ تكرهه؟ لقد كان بإمكانك الحصول

على المال من جهه أخرى، مثل السيد الطبيب فيرزيلي، ألم يمس كرامتك أن تكون مدينًا لشخصٍ تكرهه".

أجاب ديروجا: "انظر، لديّ وجهة نظر أخرى. كنت أستمتع برؤية مدى خوفه على عملاته، وكيف كان يتألّم في محاولاته لإخفاء ذلك الخوف، محافظًا على مظهر اللامبالاة. فهو يريد أولًا أن يُصبح ثريًا إلى أقصى حد، وثانيًا كريمًا في المال. لو كان لدي فائض من المال، ربما لم أكن لأدفعه له على أي حال، فقط لأراه يعاني".

قال المستشار القضائي متأملًا، وهو يراقب الدكتور من

جانبٍ بعينين تختلط فيهما الدهشة بالإعجاب: "أظن أنّك قادر على الكراهية بشدة".

ضحك ديروجا من قلبه، ضحكًا هستيريًا يكاد يشبه ضحك الأطفال، قائلًا: "نعم، أستطيع، أحيانًا أرغب في أن أغرز سكينًا في قلب شخص لمجرد أن زوايا فمه لا تعجبني. لكن بعد ظهر اليوم، سأتمالك نفسي من أجلك، قدر استطاعتي".

قال المستشار القضائي: "نعم، هذا ما أطلبه منك، أشعر ببعض المسؤولية تجاهك".

ظهر المستشار مويلشن في ملبس أنيق، تنبعث منه أطيب الريح، يمشي بخفة وثقة، كما يفعل من يحظى بشعبية كبرى، داخل قاعة المحكمة. كرر بلطف صيغة القسم التي قرأها له الرئيس، مع ختام طفيف يوحي بأنه يتحقق من رضا الرئيس والله الشاهد على كل كلمة.

بدأ الدكتور زيونمان التحقيق، بعد الانتهاء من كل الرسميات قائلًا: "المتهم، مدين لكم منذ مايو 19.. أي منذ خمس سنوات، بمبلغ ستة آلاف مارك. هل تود، رجاءً، أن تروي كيف تعرفت على المتهم وما هى تفاصيل استدانته للمال منك؟".

قال المستشار: "الأمران يسيران على نحو سريع، تعرفت على ديروجا في الجمعية الطبية، وقد عالجني أحيانًا من نتوء صغير في أنفي. أوصى به زملائي، لما لديه من مهارة دقيقة، وهو ما تأكدت منه بنفسي. كان حالتي بسيطة جدًا،

ومع ذلك يمكن للمرء أن يثبت قدراته حتى في أبسط الأمور. كان يتميز ببعض الصفات الفريدة والغريبة، على سبيل المثال كنت دائمًا في توقع أنّ شيء مؤلم للغاية سيحدث، وهو ما لم يكن يحدث أبدًا. سمعت أنه أحيانًا يعالج المرضى برفق تام، وأحيانًا بحدة بالغة، حسب مزاجه. لكن لا علاقة لذلك بموضوعنا الحالي، وحسب خبرتي، أستطيع أن أثني عليه كطبيب".

قال المستشار مويلشن مبتسمًا: "عندما أشرت ذات مرة لتجهيزات غرفة انتظاره المتواضعة، أخبرني أنه لا يملك المال ليجعلها كما يشاء، فعرضت عليه، بدافع شعور لحظي، ما يحتاجه بالضبط.. قد لا أكون متأنٍ في تقديري للأمور، ولكن في هذه الحالة، تجاه زميل وطبيب كفء، شعرت أني لا أخاطر بأي شيء".

سأل رئيس المحكمة: "هل أنفق المتهم المال على تجديد عيادته؟".

فأجاب المستشار مويلشن، قائلًا: "ليس لدي علمٌ مباشر بهذا الأمر، لكني سمعت فيما بعد – كما يقال الكثير من الأحاديث – أن مقاعد غرفة الانتظار كانت تزداد تهالكًا مع مرور الوقت. ومن الطبيعي أنني تجنبت زيارته، لذا لم أتحقق بنفسي من الأمر".

أخذ رئيس الجلسة يتمشى أمام ديروجا، قائلًا: "هل تريد أن تصرّح عن هذا؟ هل جددت غرفة الانتظار باستخدام المال

المقترض؟".

رد ديروجا: "هل هذا الأمر موضع نقاشنا الآن؟ كنت أعتقد دائمًا أن الإنسان حر في التصرف بأمواله سواء كانت مقترضة أو مسروقة".

- "إذن، تمتنع عن الإجابة؟".

قال ديروجا بنبرة فيها قليل من الغضب: "على حد ما أتذكر، لقد اشتريت أدوات، أجهزة حديثة، كرسي عمليات وأشياء من هذا القبيل".

تابع الرئيس استجواب الشاهد: "ألم توجه أي إنذار للمتهم خلال السنوات التالية؟".

أجاب المستشار مويلشن: "يا للهول! إنه زميل! لم أكن لأفعل ذلك بأي حال من الأحوال بدون أسباب كافية. في الواقع، كنت قد فقدت الأمل في استعادة المال؛ لأن الحديث كان يدور وكأن ديروجا يدير عيادته بإهمال ويعيش حياة غير منظمة للغاية. وأود أن أستبق القول بأنني لم أتحقق من صدق تلك الأحاديث، وأرجو ألا يُستنبط منها حكم أو رأي".

قال الدكتور زيونمان: "فلننتقل إذن مباشرة إلى السبب الذي دفعكم للمطالبة بالمال، هل ترغب أن تروي لنا الحادث كما حدث؟".

- "في سبتمبر من العام الماضي، التقيت بديروجا في الجمعية الطبية التي سبق أن ذكرتها، بعد أن مضى قرابة

عامٍ لم أره فيه، حتى كدت أنسى أمر المال تقريبًا. وبينما كنا جالسين على مائدة الاجتماع، ناداني من الطرف الآخرللطاولة بطريقة غير رسمية إلى حد ما، قائلًا إنه يودّ أن يُرسل إليّ مريضة يعتقد أنها تُعاني من ألم أسفل البطن، طالبًا أن أفحصها وأعالجها إن اقتضى الأمر، تطوّعيًا، إذ إنها لا تملك ما تدفعه. ولعل أسلوبه هو ما أزعجني أكثر مما قاله، فرددت عليه، وكما أود أن أؤكد، بنبرة هادئة قليلًا، بأنني غارق في أعمال كثيرة تشغلني، ويمكن للمريضة أن تذهب إلى الطبيب المتعاقد مع صندوق التأمين الصحي المختص بمثل حالتها. عندها شحب وجه ديروجا حتى صار كطباشير، وانطلق ينهال عليّ بوابل من الإهانات؛ فقال إنني لا أبتغي سوى الكسب المادي، وإنني طبيب السيدات الثريات وعشيقات الأمراء، وما إلى ذلك مما لا أود أن أكرره. وأود أن أشير إلى أنني أعتقد، رغم ما في اتهاماته من ظلم وكيف أن أسلوبه في توجيهها كان غير لائق، أنه كان يتحدث بحسن نية. لقد كان يظن أنني رجل بلا مشاعر، لا أسعى إلا وراء النجاح اللامع والمظاهر البراقة؛ وربما لأن طبيعته، ذات النزعة الشعبية أو الغجرية بعض الشيء، تجعله غير قادر على فهم معنى الحياة البورجوازية المنتظمة وما تنطوي عليه من مفاهيم العرف والكرامة. في تلك اللحظة لم أتمكن من النظر إلى الأمور بعين موضوعية، بل أعترف أنني شعرت بالحرج واشتعل الغضب في داخلي".

همس ديروجا للمستشار القضائي قائلًا: "لقد كان يكاد هذا

الغلاف الوردي أن يذوب".

وتابع الشاهد: دون أن أتمكن من التحكم في انفعالاتي، أو حتى أرغب في ذلك، أجبت بغضب، قائلًا: "ليس لديك سبب واحد على الأقل لتوجيه مثل هذه الاتهامات إليّ، فقد ساعدته بقلب صادق ولم أحمل له ضغينة جراء خسارته".

قال بخبث: "لقد ظننت أنه قادر على السداد حينها، وإلا لما أقرضته شيئًا". قلت له: "لكنني كنت أعتبر زميلي شريفًا إلى درجة أنه سيسدد ديونه، والآن بما أنك تتحداني، فعليك أن تفعل ذلك". ثم تدخل عدد من الزملاء لحل النزاع، وقاموا بتسويته. وقبل أن نفترق، قلت لديروجا ألا يفهم ما قلته قبل قليل في لحظة انفعالٍ شديد على أنه محاولةٌ منّي للضغط عليه. اسمحوا لي أن أوضح أنني ما كنت لأذكر الأمر علنًا أبدًا لو لم أُضطر إلى ذلك!

قال المستشار القضائي فاين موجهًا إلى الشاهد: "يمكنني أن أسأل، ألم تتطرق مرة أخرى لموضوع المال بأي كلمة أو تلميح؟".

أجاب المستشار: "لا، إطلاقًا، على العكس، شعرت بالأسف لأن التذكير بالدين قد فلت مني دون قصد في لحظة انفعال".

قال المستشار: "إذن لم تتغير حالة الدكتور ديروجا على الإطلاق، ولا يوجد أي دليل على أنه اضطر لاستلاف مال جديد لسداد الدين المستحق".

صاح المدعي العام قائلًا: "من فضلكم! بعد الحادثة في الجمعية الطبية أصبح الدين معروفًا؛ وهذه بالفعل يُعد تغييرًا كبيرًا في الوضع. يمكننا أن نفترض أن أي رجل متعلم لديه شعور بالكرامة، لم يكن ليبقى غير مبالٍ بذلك".

- فلنأخذ الدكتور ديروجا كما هو، لا كما يفترض أن يكون في عيون الآخرين. بما أنه لم يكن يمانع أن يظل مديونًا للسيد المستشار مويلشن، الذي على ما يبدو لم يَكُن يُكنُ له أي ميل أو تعاطف خاص، فمن المرجح أنه لم يكن ليهتم كثيرًا بمعرفة بعض الزملاء الآخرين بذلك، الذين كان على علاقة جيدة معهم، على أي حال، إذا كان في السابق متحملًا جدًا للأمر، فلن يصبح فجأة حساسًا لدرجة ارتكابه جريمة ليخرج نفسه من المأزق.

الوقار البطيء المهيب الذي وقف به المستشار القضائي، وضخامة قامته، ووجهه الهادئ ذو الملامح الكبيرة والمتناسقة، كانت أكثر إقناعًا من كلماته نفسها، وجعلت خصمه المضطرب يفقد توازنه.

قال بغضب: "آه، لو كان الإنسان دائمًا منطقيًا هكذا! فكم من الأمثلة نجدها على أن الرجال يفضلون ارتكاب الجرائم على أن يتحملوا وصمة على ما يسمونه شرفهم المدني!".

رد الدكتور زيونمان يده آمرًا بالهدوء، قائلًا: "في البداية، لم يكن يُتوقع من المتهم أن يرتكب عملًا إجراميًا على الإطلاق، إذا كان قد طلب المال من زوجته السابقة، فذلك لا يعد أكثر

من تصرف فيه قليل من الحماقة، ولا يُعد هذا التصرف غريبًا إلى حدٍ ما، فكما أننا نعلم من شواهد عديدة أنه في بعض الأحيان يلجأ إلى هذا المصدرطلبًا للمساعدة". ثم التفت إلى المستشار قائلًا: "هل تعتقدون أن الدين دافعًا قويًا بما يكفي؛ ليدفع المتهم إلى أن يسعى، بطريقة مريبة، بل وربما إجرامية، للحصول على المال؟".

اعترض هوفرات، قائلًا: "أرجو السماح لي أن تعفوني من الإجابة على هذا السؤال. أنا أمتنع عن إصدار حكم بشأن ذلك لأنني لم أتمكن من تكوين رأي واضح. فأنا لست على دراية بما يجول في نفس ديروجا، ولا يسعني إلا أن أفسح المجال لخيالاتي لكن بطبيعة الحال أن أميل أكثر إلى التفكير بالخير أكثر من الشر تجاه زميل".

تابع رئيس المحكمة حديثه، قائلًا: "في الأول من أكتوبر لقد التقى المتهم وذالك الزميل الذي كان بالقرب من محطة القطار بين الساعة السادسة والسابعة وسأله إذا كان يرغب في الانضمام إلى الجمعية الطبية؟".

قال هوفرات: "نعم، لقد طرحت السؤال لأنني رغبت في التعامل معه كزميل بعد ما حدث مؤخرًا. وجوابه، بأنه يرغب في السفر، لم يترك في نفسي أي شك، إذ كنا بالقرب من محطة القطار وكان ديروجا يحمل طردًا. وقد كان هذا الطرد لافتًا للنظر أيضًا لأنه كان أكبر مما اعتاد عليه الرجال من دوائر مجتمعنا أن يحملوه".

التفت الرئيس إلى ديروجا متوجهًا إليه بسؤال عما إذا كان يعترف بأنه حمل طردًا، وما كان يحتويه ذلك الطرد.

قال ديروجا: "لقد سمحت لنفسي، بصفتي شخصًا فقيرًا لا يجرؤ على الانتماء إلى دوائر مجتمع السيد فون مويلشن، بأن أحمل طردًا. وكان فيه بعض الملابس وما شابه ذلك من الأشياء الأساسية التي يحتاجها المرء لقضاء ليلة".

اندفع المدعي العام من مقعده وطلب أن يتم التأكد مما إذا كان ديروجا، عندما عاد إلى شقته في الثالث من أكتوبر، قد كان يحمل طردًا معه.

قال الرئيس: "سيتم استجواب مدبرة منزله في الحال. لقد أجابك المتهم يا سيد هوفرات، بأنه يرغب في السفر، وأنت رافقته حتى المحطة. هل يمكنك أن تقدم أي معلومات مفيدة أخرى؟".

أكد هوفرات: "لا، بالتأكيد لا، دعوني من تكرار الشائعات والأقاويل، إذ إن مثل هذه الأمور تتداول عن كل شخص بدرجات متفوتة، ولا ينبغي أخذها بعين الاعتبار في الحالات الجادة".

سأل الرئيس: "ربما بإمكانك أن تخبرنا بوجه عام عن التقدير الذي كان يحظى به ديروجا بين زملائه؟".

اعتذر هوفرات، قائلًا: "لا أعتقد أن معلوماتي في هذا الصدد ستكون ذات قيمة؛ فمهما رويته بالفعل، يمكن استخلاص

الكثير من الاستنتاجات. أما أنا لا أرغب في مغادرة الأرض الصلبة للحقائق".

الشاهد التالي تاجر النبيذ فيرزيلي، كان رجلًا قصير القامة، ذا بشرة داكنة، أدى القسم في وضعية مشدودة، وعيناه مثبتتان على الرئيس، واضعًا يده اليسرى على صدره، بصوت عالٍ وتعبيرممتلئ بالحماس.

سأل الدكتور زيونمان: "أنت تعرف المتهم، لكنك لست من أقاربه؟".

قال فيرزيلي بحماس: "أصدقاء، أصدقاء مقربون".

كرر الدكتور زيونمان: "لكن لست من أقاربه؟".

قال فيرزيلي: "للأسف لا، لكننا أصدقاء مقربون. أنا أحبه وأقدره".

قال الرئيس بلطف: "لقد شعرت بالامتنان تجاهه لأنه بنصيحة جيدة وأيضًا مبلغ من المال قدّمه لك سلفًا، قد صنع لك السعادة؟".

صاح فيرزيلي: "آه، النصيحة والمال، هذا ليس الأمر الأهم. لقد أعاد إليّ الثقة بالإنسانية. إنه كريم ومساعد".

تابع الرئيس: "لقد تمكنت من رد المبلغ المقترض منه فيما بعد، ومنذ ذلك الحين كنت تقرضه أحيانًا أموالًا؟".

قال فيرزيلي وهو يهز رأسه ويده: "هذا لا يستحق الذكر،

حيث أنني مدين له بكل وجودي. على أي حال، لم يطلب مني المال أبدًا، بل كنت أنا من فرضته عليه. لم يكن يعرف كيف يتعامل مع المال، لذلك كان نبيلًا جدًا ورفيع النفس".

- "هل رد لكم المال في وقتٍ ما؟".

صاح فيرزيلي بكل فخر: "أجل، حتى بالنسبة للمبالغ المتأخرة كان يسألني

أحيانًا إن كنت أحتاجها. لكن لماذا كنت سأحتاجها؟ كانت أموالي بأمان عنده كما لو كانت في البنك. كنت دائمًا أقول له، لا عجلة في الأمر، فليأخذ وقته، حتى لو أعاد المال يومًا لأطفالي. وكانت زوجتي أيضًا ترى أنه لا ينبغي الضغط عليه".

قال الرئيس: "هل كان المتهم يُماطلك أحيانًا، ملمحًا إلى احتمالية حصوله على هبةٍ أو ميراثٍ من زوجته المطلّقة؟".

فأجاب فيرزيلي، وقد بدا عليه شيء من الانفعال: "لم يكن بحاجةٍ لأن يغريني بمثل هذا الكلام. لكنّه، بطبيعة الحال، كان يتحدث أحيانًا عن زوجته السابقة وعن طفلته الراحلة. لقد أحبّ تلك الطفلة المسكينة حبًا جمًا،

وكانت زوجتي وأنا كثيرًا ما نبكي حين كان يحدّثنا عنها".

وبينما قال ذلك، أخرج من جيبه منديلًا كبيرًا ملوّنًا، ومسح به جبينه وعينيه، سواء ليجفف دموعه أم عرقه.

قال الدكتور زيونمان بلطف: "رجاءً، انتبه جيدًا إلى أسئلتي، وقم بالإجابة عليها بإيجاز ووضوح. هل حدث أن ذكر لك

المتهم أنه يتوقع أن يحصل من زوجته المطلقة على مالٍ سواء في حياتها أو بعد وفاتها؟".

فقال فيرزيلي وهو يعصر المنديل بين يديه: "أظنّه قال ذات مرة إن زوجته السابقة كانت غنية، وإنه واثق من أنها ستعطيه ما يحتاج إليه إذا طلب منها ذلك".

سأله القاضي: "هل تذكر متى قال لك ذلك؟".

فأجاب: "أعتقد أن ذلك كان منذ وقتٍ طويل".

تنحنح الرئيس قليلًا، ثم رفع صوته قائلًا: "ننتقل الآن إلى نقطةٍ موضوعٍ بالغ الأهمية، وأرجو منك يا سيد فيرزيلي، أن تجمع كل قواك العقلية وتعطينا كل انتباهك وذاكرتك بكل ما أوتيت من قوة، ولا تفكر أبدًا في العواقب التي قد تترتّب على أقوالك بالنسبة إلى المتهم، بل تذكّر فقط أنك أقسمت على قول الحقيقة!".

عندها اعتدل فيرزيلي في وقفته، وثبّت نظره في عيني الرئيس، قابضًا على منديله بعصبية.

قال القاضي:"احكِ لنا بدقةٍ، وبجميع التفاصيل، كيف بلغك خبرُ الشائعة التي تزعم أن الدكتور ديروجا قتل زوجته، وكيف أخبرته أنت بذلك؟".

صمت فيرزيلي وحدق بتركيز في زاوية، وكأنه يجتهد في جمع خواطره.

قال الدكتور زيونمان بصبر ورفق: "سأقوم بمساعدتك. في

مساء الخامس والعشرين من نوفمبر جاء كافاليير فارامنجو، القنصل الإيطالي، إلى مطعمك؛ ليشرب كأسًا من النبيذ كما كان يفعل من حين لآخر. سألك عن المتهم وقد علمت منه أن السلطات من ميونخ قد أجرت تحقيقًا عنه، وأنه موضع اشتباه في قتل زوجته السابقة، التي تُوفيت في أوائل أكتوبر وأوصت بأن يكون وارثًا لأملاكها. مستاءً من هول الخبر، لقد أسرعت فورًا إلى المتهم، أخبرته بكل شيء، وقلت: لو عرفت من هو المفتري عليه، لكنت قتلته. فردّ المتهم ضاحكًا: "أحمق، لقد فعلت ذلك أنا بالفعل". هذا ما استخلصه منك قاضي التحقيق بعد عناء. أيمكنك الآن تأكيد ذلك أمام المحكمة وهيئة المحلفين؟".

أجاب فيرزيلي: "صحيح أنّ الدكتور ديروجا قال: "أحمق، لقد فعلت أنا ذلك بالفعل"، لكنه كان محقًا فقط في تسميته لي بالأحمق، لأنه كان يعني...".

قال الدكتور زيونمان: "لا تبتعد عن الموضوع! ماذا قلت ردًا على ذلك؟".

قال فيرزيلي: "قلت له إن ذلك مستحيل، وكنت مقتنعًا فعلًا بأنه مستحيل؛ لكنّني، في حالة الاضطراب التي كنت عليها، طلبت منه أن يهرب فورًا إلى أمريكا، وعرضت عليه كل ثروتي كي يساعد نفسه هناك".

فجأة قال ديروجا بصوت مرتفع: "يا له من رجل صالح!".

فيرزيلي، الذي كان إلى الآن يتجنب النظر صوب مقعد الاتهام، أدار رأسه الآن ونظر نحو ديروجا نظرة ممتلئة باليأس.

ونظر إليه أيضًا الدكتور زيونمان، وقال: "كيف تفسرإذن أنك اعترفت بالواقعة في أول لحظة من الدهشة أمام الشاهد فيرزيلي؟".

قال ديروجا بلا مبالاة: "أردت أن أرى ما سيظهر على وجهه، هذا كل ما في الأمر".

قاطعه فيرزيلي سريعًا: "نعم، بالطبع، هكذا كان الأمر بالفعل. ها هو تمامًا. يا إلهي، كان محقًا حين سمّاني أحمقًا. نعم، كنت أحمقًا، أحمق ملعون، لعدم قدرتي على إدراك الأمر على الفور".

قاطعه الدكتور زيونمان، قائلًا: "لا تبتعد عن الموضوع! وإذ فجأة انقلب حال المتهم، أصابه الغضب، وأراد على الفور الذهاب إلى القنصل الإيطالي لمعرفة من الذي افترى عليه. قلت له (فيرزيلي): "إذن لم تفعل ذلك"، توسلت إلى المتهم ألا يقوم بأي خطوة متهورة، وأن ينتظرزيارة القنصل حتى صباح اليوم التالي. ربما تخشى أن يسيء المتهم التصرف مع القنصل في نوبة غضب؟".

صاح فيرزيلي بغضب واستنكار: "حاشا لله! لم أرد القنصل أن يعلم أنني قد كشفت لديروجا كل الأسرار. وكنت أخشى أيضًا أن يعبّر الدكتور ديروجا عن نفسه في غضبه المبّرر

بعنف مفرط؛ فيجعل القنصل يقف ضده. باختصار، لقد كنت أحمقًا ومتوترًا إلى حد لا يوصف. لم أكن أعلم ما أقول وما أفعل".

على مدار التحقيقات، نهض المدّعي العام من مقعده، ورافق إجابات الإيطالي بإيماءات لا إرادية، وأحيانًا بضحكات ساخرة أو صيحات استنكار.

قال حينها، منحنيًا إلى الأمام: "في تلك الحالة من الارتباك، كان لديك بلا شك انطباع بأن المتهم كان صادقًا عندما قال: "لقد فعلت ذلك حقًا". وإلا لما اندفعت بعد ذلك لتصرخ: لا تفعل ذلك!".

نظر فيرزيلي إلى المتحدث بنظرة ملأها الغضب والاحتقار، ثم قال بحزم: "مهما قلت واعتقدت، كنت أنا المخطئ، وكان الدكتور على حق، وحتى لو أنه قتل زوجته وهو لم يفعل لكان محقًا أيضًا".

دبّت حركة في القاعة، اختلطت بأصوات الضحك.

قال المدّعي العام، واضعًا يديه على خاصرته بازدراء: "يا لها من وجهة نظر غريبة!".

ألقى الرئيس كلمته، بعدما عمّ الصمت في القاعة من جديد: "أرى أن نترك الآراء جانبًا، ونقتصر على الحقائق. هل يرغب السادة الزملاء أو أعضاء هيئة المحلفين في توجيه سؤال إلى الشاهد؟ لا؟ إذن يمكننا الانتقال إلى الآنسة كلينكهارت، مدبرة

منزل المتهم أو موظفة الاستقبال لديه".

تقدّمت آنسة تبلغ من العمر نحو خمسةٍ وثلاثين عامًا، بسيطة المظهر لكنها أنيقة في ملابسها، ذات شعرٍ أسود وأنفٍ مستقيم وعينين بنيتين هادئتين.

سارت بخطواتٍ سريعةٍ واثقة، تتلفّت حولها كمن يبحث عمّا يمكن أن يفعله.

وحين وقع بصرها على ديروجا، أومأت له بودٍّ وتشجيع.

أدّت اليمين بنشاطٍ وسرور، وقد بدا عليها كأنها تفكّر بأنها أمسكت الخيط أخيرًا، وستنجح الآن في حلّ هذا التشابك المعقّد.

بدأ التحقيق على النحو التالي:

- "منذ متى وأنتِ في خدمة المتهم؟".

- "عشر سنوات".

أشارت بكلماتها قائلة: "أعرفه إذن أكثر من أي شخص آخر، يا سادتي".

- "ما طبيعة عملك بالضبط؟".

- "أدير المنزل؛ أطبخ الطعام، أرتب الغرف، أستقبل المرضى، أكتب الفواتير، وما إلى ذلك".

- "هذا كثير للغاية. هل كنتِ، أم ما زلتِ، على علاقة صداقة مع المتهم، أم بصياغة أخرى، تجمعك به علاقة تتجاوز حدود

الصداقة؟".

رفعت حاجبيها باستياء، وكأنها أرادت الإجابة بسرعة، لكنها ترددت وقالت باختصار: "لا".

- "كم كان أجرك؟".

- "ثمانون كرونة".

- "هل كانت لديك أي دخل إضافي؟".

- "لا".

- "يبدو أن هذه الوظيفة تقدم بلا شك بعض الدعم المعنوي. يمكننا أن نفترض أنك كنتِ مستقلة جدًا في عملك؟".

- "هل يُحسن الطبيب معاملتك؟".

- "هو يعاملني كما أعامله، ونحن ننسجم جيدًا معًا. ليس بالأمر الصعب أن تجيد التفاهم مع الدكتور ديروجا، ومن لا يفعل ذلك، فهوالمسؤول".

- "حسنًا. هل تتذكرين الأول من أكتوبر من العام الماضي؟ غادر المتهم الشقة نحو الساعة السادسة. هل أخبركِ إلى أين سيذهب، ومتى سيعود؟".

- قال الدكتور ديروجا إنه ربما لن يعود إلى المنزل ليلًا، ولا يعرف بعد ما إذا كان سيكون حاضرًا في العيادة في اليوم التالي. وإذا جاء مرضى، كان عليّ أن أؤجلهم".

- "هل اعتقدتِ أنه سيسافر؟".

- لم أكن أظن شيئًا على الإطلاق – لأنه لا يعني لي شيئًا. عليّ ألا أسأل مطلقًا إلى أين يذهب، فقط كنت أمازحه أحيانًا، لأنني كنت أعلم أن النساء يلاحقنه. ربما فعلت ذلك أيضًا في تلك الليلة".

- "ماذا كان يحمل المتهم معه حين غادر؟".

- "طردًا".

- "هل تعرفين ما يحتويه الطرد؟".

- "لا".

- "لا تعرفين، لكن ربما كان لديك بعض التوقعات؟ هل رأيته يلفُّ شيئًا؟ هل فتش في الخزائن أو الأدراج؟".

- "نعم، رأيت أنه كان يبحث عن شيءٍ وسألته عن ماهيته. حينها قال بغضب: "أين بالظبط خبأتِ مقتنيات الكرنفال القديمة؟". فأجبت عليه أن كل شيء موجود في الصندوق في الصالة، على أي حال كل ما تبقى قد أهدي أو أعير على يده".

- "ماذا تعنين بمصطلح مقتنيات الكرنفال القديمة؟".

- أزياء كان يرتديها سابقًا في احتفالات الكرنفال. في السنوات الأخيرة لم يعد يشارك فيها".

- "وما نوع تلك الأزياء؟".

- "أوه، لا أستطيع أن أحدد بدقة ما تعنيه. أعتقد أنها كانت

تشمل ملابس فلاح، ومهرج، وراهب. لست خبيرة بهذه الأمور".

- "ربما عرضتِ عليه مساعدتك؟".

- "نعم، لكنه قال لي: "اذهبي إلى الجحيم!"، ولم يكن يقصد بها سوءًا، بل كانت مجرد عبارة دارجة على لسانه. ولم أمانع، فقد كان ذلك بعد الغداء، وكان لديّ بعض الأعمال في المطبخ".

في تلك الأثناء، كان المدعي العام قد وقف، يحرك ذراعيه الطويلتين ويقوم بردود أفعال غريبة. قائلًا: "يا آنستي العزيزة ألم يكن للمتهم حقيبة سفر؟".

أجابت الآنسة كلينكهارت: "نعم، عندما كان يسافر، كان يأخذ حقيبة سفر".

واصل المدعي العام بنبرة وديّة مفرطة: "حسنًا، يا آنستي العزيزة، ألم يكن ينبغي لكِ، بصفتك سيدة ومدبرة منزل، من جانب الفضول، ومن جانب آخر بدافع حبّ النظام، بعد أن غادر صاحب البيت، أن تتفقدي ما الذي أخذه معه؟ لو كنتُ في مكانك، يبدو لي أنه كان يجب عليك محاولة التأكد من مدة غيابه، فمن خلال ما أخذه معه، كان بالإمكان استنتاج الكثير".

عقدت الآنسة كلينكهارت حاجبيها بتجهم، نظرت بعيون يملؤها النفور الصريح نحو المدعي العام.

وقالت: "رأيت أن محتويات الصندوق كانت مبعثرة تمامًا، فأعدت ترتيبها. لا أعرف إن كان شيء ما مفقودًا، فلم أنتبه لذلك. لكن على ما يبدو، لم يأخذ معه ثوب النوم".

صاح المدعي العام بانتصار، مشيرًا إليها بإصبعه الطويل: "ها! أرأيتِ؟ أرأيتِ؟ إذن لم يأخذ معه ثوب النوم؟!".

قالت الآنسة كلينكهارت بوجهٍ متجهم: "وماذا في ذلك؟ ما دام أنه لم يكن مسافرًا من الأساس".

قال المدعي العام مبتسمًا ابتسامة مبتهجة: "حسنًا، يا آنستي العزيزة، ولكن إذا لم يكن هناك ثوب نوم في الطرد، فما الذي تعتقدين أنه كان فيه إذن؟".

هزت الآنسة كلينكهارت كتفيها بغضب وبلا صبر، وقالت:

- "على الأرجح كان فيه قطعة ما من زي التنكر، وأراد أن يعيرها لشخص ما".

أشار الرئيس إلى ديروجا: "هل ترغب في حل اللغز لنا؟".

قال ديروجا: "كان بداخله كيمونو، أحضره لي أحد المرضى يومًا من الصين، وأردت أن أعيره للسيدة التي كنت أزورها".

ثم استدار دكتور زيونمان نحو ديروجا، واضعًا ذراعه على مسند كرسيه قائلًا: "لقد قالت قبل قليل إن الطرد كان بداخله ملابس قابلة للغسيل".

أجاب ديروجا بنبرة غاصبة، وقد بدا على وجه تعبيرات

الغضب الشديد جعل السائل يتراجع تلقائيًا: "نعم! لمَ لا تظن أني سئمت من إثارة هذه التفاهات السخيفة؟ لقد قلت ما خطر ببالي في تلك اللحظة، ولن أقول شيئًا بعد الآن! كان في الطرد كيمونو، وثوب للنوم، وفرشاة أسنان، ومسدس، وزجاجة سمّ. لقد سئمت هذا الطرد حتى الاختناق!".

انتظر د. زوينمان لحظة، ثم قال بهدوء: "أنا لا أستجوبك بدافع المتعة، بل لأن هذا واجبي. آمل أن تدرك ذلك، وأن تقرر أخيرًا ما الذي تريد التصريح به على أنه محتوى الطرد".

هدأت ملامح ديروجا، وقال بابتسامة ودودة: "حقًا، أنا رجل خشن الطباع، أرجو أن تعذروني. إذن، كان هناك كيمونو في ذلك الطرد الملعون".

أضاف د. زوينمان: "ذلك الذي أردت أن تعيره لهذه السيدة المذكورة".

علق المدعي العام قائلًا: "على حد علمي، يبدأ الكرنفال في يناير فقط".

ضحك ديروجا: "إما أن السيدة كانت تحضر نفسها مبكرًا جدًا، أو أنها كانت بحاجة إليه لمناسبة أخرى. سأسألها إذا سمحت الفرصة، ثم أخبركم بما قالت".

اهتزّ المدعي العام غضبًا، ولا سيما حين رأى على وجه المستشار القضائي، وكذلك على وجه الرئيس، ابتسامة ساخرة خفيفة سارع الأخير إلى إخفائها سريعًا.

قال الرئيس: "لننتقل الآن إلى عودة المتهم في الثالث من أكتوبر.

ما الذي حدث آنذاك؟ هل تتذكرين يا آنسة كلينكهارت، ما الذي قاله الدكتور ديروجا؟".

- "قلت له: "جيد جدًا أنك أتيت يا دكتور، هناك بعض المرضى ينتظرونك منذ أكثر من ساعتين". فقال الدكتور: "هذا شأنهم، وأسوأ لهم، أنا متعب جدًا وأريد أن أستلقي في الفراش على الفور". فسألته إن كان بإمكانه أن يتحدث معهم للحظة على الأقل ويعيد تحديد موعد لهم، لكنه أشار بيده رافضا وقال: "لا أستطيع"، ومنذ تلك اللحظة أدركت أنه لا ينبغي لى أن ألحّ عليه أكثر".

سأل الرئيس: "ألم يلفت انتباهك هذا التصرف؟".

قالت الآنسة كلينكهارت: "لا، إطلاقًا؛ هو يعاني من الصداع النصفي، وعندما تأتيه النوبة، يصاب بآلام رأس شديدة تجعله لا يبالي بأي شيء. عندها يستلقي، ويجب عليّ أن أتركه وشأنه. وعادةً في صباح اليوم التالي يصبح كل شيء على ما يرام. وكالمعتاد يبدو شاحبًا عندما تصيبه نوبة الصداع النصفي".

قال الدكتور زيونمان: "إذن، ذهب إلى غرفة نومه، ولم ترينه حتى صباح اليوم التالي".

- "لكن الدكتور ديروجا، الذي يتمتع بقدرةٍ مذهلةٍ على

الملاحظة، لاحظ ما جرى، ونادى تلك السيدة – أو المرآة – التي كانت توشك أن تواصل طريقها. قال لها: "لماذا لا تأتين إلينا، يا عزيزتي؟ تعالي، نودّ أن نساهم نحن أيضًا". ثم شرع يوبّخني بشدة، متهمًا إيّاي بأنني تصرّفت من تلقاء نفسي وطردتُ السيدة دون أن أعرف رغبة الحاضرين. ولإنهاء الجدال بسرعة، تناولتُ القائمة، وسجّلت مبلغًا صغيرًا، ومرّرتها إلى غيري. وحين وصلت إلى ديروجا، أخذ يقرأ ما كُتب قبله، ولاحظت من ملامحه أنه استشاط غضبًا من ضآلة المبالغ التي تبرّع بها الآخرون. فقال للسيدة بنبرةٍ لاذعة: انظري يا عزيزتي، هؤلاء السادة هنا أغنياء، ولذلك - بما أنهم يبنون القصور، ويقتنون السيارات، ويشربون الشمبانيا - لم يتبقَّ لديهم مالٌ لزوجات العمال وأطفالهم الذين هم في الحقيقة أكثر مما ينبغي. أما أنا، ففقير، ويُفترض بي أن أشنق نفسي، وكل ما أحتاجه هو حبلٌ رخيص الثمن؛ لذا أستطيع أن أتبرع بثلاثمائة مارك، وأرجو أن تتسلميها".

- "وهل كان يحمل الطرد الذي أخذه معه؟".

- "لم ألتفت إلى ذلك".

قال الدكتور زيونمان بحزم: "أذكرك يا آنسة كلينكهارت أنكِ تدلين بشهادتك تحت القسم. من المعقول أنكِ لم تفكري في الطرد في اللحظة الأولى؛ ولكن بما أنكِ رتبتِ الغرفة في اليوم التالي، فلا بد أنه خطَر ببالك حينها؟".

قالت الآنسة كلينكهارت بلمعة شديدة الاشتعال في عينيها

البنيتين الهادئتين: "هذا ما تعتقده، سيدي الرئيس؛ لأن لديكم شك وربما تتصورون أن الطرد كان يحتوي على أداة للقتل. أما أنا، فقد كنت محايدة، ولهذا لم أعتبر الطرد مهمًا على الإطلاق، كما أنه بالتأكيد لم يكن كذلك".

قالت: "إذا كان الزي ضمن ما أعاره لشخص ما، فمن الطبيعي أنه لم يتمكن من إعادته معه".

قال الدكتور تسوينمان: "نعم، إذا كان الأمر كذلك، هذا صحيح. ولكن، هل كان المتهم يملك كيمونو صيني؟"(1).

أجابت الآنسة كلينكهارت: "رأيت ذات مرة أحد الأغراض الصينية، لكن على أي حال، لست على علم بكل ما يملكه الطبيب. أنا لست جاسوسة".

فتفحّص الدكتور زيونمان الملفات لبعض الوقت، ثم نظر إلى المتهم وسأل:

- هل أبلغك المتهم على الفور حين وصلته أنباء الميراث الذي أصبح له حق فيه؟".

روَت الآنسة كلينكهارت: "نعم، استدعاني للدخول، كنت قبلها في المطبخ، وكان منفعلًا للغاية، يخطط لمستقبله ويتحدث عن كل شيء، وسألني عما أتمناه، لكنه أراد مني أن أختار شيئًا جميلًا وقيمًا. قلت له إن لي رغبة واحدة فقط، وهي زوج من الأقراط الماسية. ووعدني بها، لكنه مازحني على طريقته المعتادة. فضحكنا كثيرًا".

- "إذن، كان سعيدًا للغاية؟".

قالت الآنسة كلينكهارت بهدوء: "بالتأكيد، لقد غمره الفرح حتى كاد يفقد صوابه من شدته. كان يعاني دائمًا من ضيق العيش، وكان يحب أن يتخيل نفسه ثريًا. كان كطفل صغير حين يسبح في تلك الأوهام، وبعد مرور ساعة واحدة فقط، قال باحتقارٍ إنه يمقت كل ذلك الثراء الزائف".

في نهاية الجلسة، تم التحقيق مع خياط وحلاق، وكان ديروجا مدينًا لكليهما بمبالغ كبيرة. لم تكن أناقة الخياط جذابة كما كانت أناقة المستشار فون مويلشن، بل كانت ساحقة بلا رحمة؛ لكنها لم تكن تهدد الفقراء المعدمين، الذين لم يكن يهمهم الأمر، بل أولئك الذين لا يملكون ما يكفيهم من المال، أو يفتقرون إلى الذوق والتهذيب اللازمين ليضعوا ثقتهم به أو بأي خبير أزياء آخر مماثل له.

وقد صرح الخياط بأنه سرعان ما أصبح يشعر بالريبة، لأنه لم يكن يستطيع اعتبار الدكتور ديروجا رجلًا نبيلًا حقًا. ولأنه كان يخدم فقط زبائن راقية جدًا، لم يكن من السهل خداعه في هذا الشأن.

كان ديروجا ودودًا جدًا في تعامله مع موظفيه، وأحيانًا كان يمزح مع الخياط بما قد لا يسره أن يسمعه أمام موظفيه من باب الاحترام. ولم يفهم ديروجا تمامًا أن هذه المزحات قد تحمل تلميحات دقيقة. أما الخياط فلم يدرك معنى هذه التلميحات على نحو كامل. لكنه لاحظ سلوك ديروجا وأرسل

له فواتير نصف سنوية، بينما كان يرسل لزبائنه الراقين فواتير سنوية فقط.

وكان ديروجا مدينًا له منذ عامين ونصف بألف مارك، وهو مبلغ ليس كبيرًا، وأمام زبائن راقين لن يبالغ في الأمر. لكنه، بالطبع، لم يكن ليغض الطرف عنه إذا تعلق الأمر برجل ذي سمعة مشكوك فيها.

عند سؤاله عما إذا كان ديروجا قد تحدث معه عن إرث متوقع أو عن أي مصادر مالية من شأنه التصرف بها، أجاب الخياط بتأدب قائلًا إن ديروجا تحدث كثيرًا، وربما صدرت منه كلمات من هذا النوع. لكنه، ومنذ سنوات، يتبع قاعدة ألا يكرر أو يحتفظ بالمعلومات الخاصة التي يخبره بها زبائنه، ولذا لم يعد قادرًا على تذكر مثل هذه الأمور. علاوة على ذلك، بدت له ثرثرة ديروجا بلا قيمة، فلم يشأ أن يرهق ذاكرته بتذكرها.

أكد الحلاق بحماس أن ديروجا بلا شك كان سيدفع له الدين المستحق إذا ذكّره أو نبهه إليه. كان يقدره ويحب التعامل معه كثيرًا؛ رجل عبقري ونبيل، وكان يعتبر خدمة هذا الرجل دائمًا مصدر فخر له. عينُه تصل إلى أعماق الإنسان، ولا تنخدع بالمظاهر الزائفة، ولا تستهين بأي شيء مهما صغر.

وصاح الحلاق بحماس: "حتى لو لم يدفع لي ديروجا فلسًا واحدًا، يا سادة،

فإنني سأكرس له كل جهدي، ولن أتوقف أبدًا عن القول إنه رجل عظيم".

واصل رئيس الجلسة تحقيقاته وسأله: "هل كانت لديك أي افتراضات في نفسك بشأن غياب المتهم وحالته الجادة غير المعتادة؟".

فأجاب الحلاق بنبرة هادئة، امتزج فيها شيء من الاستنكار والتعليم: "لم تكن لديّ أي افتراضات على الإطلاق، ولم أسمح لنفسي بأن أضع أي تخمينات".

تراجع الدكتور زيونمان، وكان على وشك أن يُنهِي الاستجواب ويُطلِق سراح الشاهد، حين أعلن النائب العام أنه يرغب في توجيه سؤال آخر إليه.

سأل النائب العام: "هل اشترى المتهم في أواخر صيف العام الماضي، أو قبل ذلك، شعرًا مستعارًا أو لحيةً اصطناعية، أو كليهما من عندك، أو استعارها منك؟".

أجاب الحلاق بابتسامة مهذبة تنطوي على شيء من السخرية: "يؤسفني أن أقول إنني لا أتعامل بمثل هذه البضائع. فمحلٌ صغيرٌ متواضعٌ ومنزوي مثل محلي، لا يحقق من ذلك ربحًا يُذكر".

كانت ساعة متأخرة من المساء، فأعلن الرئيس رفع الجلسة.

حينئذٍ وضع المستشار القضائي يده على كتف ديروجا، الذي كان جالسًا مستندًا برأسه، استدار فجأة ونظر إلى الآخرين

بعينين لامعتين يبدو عليهما الارتباك.

سأله المستشار القضائي، في مزيج من الدهشة والاستنكار: "أظنّ، والله أعلم، أنك كنت نائمًا؟".

ابتسم ديروجا بخفة وأجاب: "وأنا أظنّ ذلك أيضًا. آخر ما رأيته كان ذلك الرجل، الخياط. لقد أصابني بالاشمئزاز وشعرت بالملل لدرجة أنني أغمضت عيني، وفورًا غصت بعيدًا دون أن أشعر بشيء. لقد اعتدت ذلك في أيام دراستي الجامعية، حين كنت غالبًا متعبًا جدًا. كنت أستطيع النوم لساعات طويلة خلال المحاضرات دون أن يلاحظ أحد، إلا صديقي كارلو جابوسي، الذي كان يجلس بجانبي. يا لها من فترة شبابية شقية، وذكريات عذبة!".

الفصل الثاني

افتتح الدكتور زيونمان جلسة اليوم التالي ببيان أن شاهدة، جاءت من راجوسا، طلبت أن يتم الاستماع إليها فورًا لتتمكن من العودة إلى أسرتها في أقرب وقت ممكن.

ولم يجد مانعًا في تلبية رغبتها على الفور، خاصة أنه لا يعتبرها شاهدة مهمة، وكان سماعها مرتبطًا فقط بالطلب المقدم من المحامي.

ومع ذلك، من المتوقع أن تقدم الشاهدة معلومات قيّمة حول علاقات المتهم بزوجته السابقة خلال الفترة الأولى من زواجه.

بإشارة منه، دخلت سيدة متوسطة القامة، مزينة بزيٍّ أحمر طوبي مزخرف على كتفيها.

وعلى شعرها الأحمر الناري المرفوع في تمويجات وتسريحة بارزة، كانت ترتدي قبعة كبيرة مزدانة بشلال من ريش النعام الأبيض والأزرق.

خطّت عدة خطوات إلى الأمام، ثم توقفت ونظرت حولها بعيون متفحصة، وابتسامة مليئة بالتوقع على شفتيها.

ويبدو أن عيونها وجدت أخيرًا مكان المتهم واستقرت عليه، ومع ذلك لم تشبع فضولها بعد بما كانت تحاول اكتشافه؛ إذ صرخت فجأة ونادت بصوت صياح: "دودوا!"، وركضت نحو

ديروجا وذراعاها ممدودتان، لكنها قبل أن تصل إليه أمسك بها حارس المحكمة الذي أدخلها، ووضعها أمام الطاولة الصغيرة أمام القضاة المجتمعين، حيث كان عليها أداء اليمين.

قالت وهي تنتحب، وتخرج منديلها: "اعذروني، لكن هذا كان أكثر من طاقتي. هذا اللقاء مرة أخرى بعد كل هذه السنوات! التغيير واضح، ومع ذلك، يبقى الوجه المحبوب والمجنون كما هو، لم يتغير! سيادة الرئيس، لو وُضعت أمامي مقلاة مليئة بالفحم المتقد، لأقسم لكم أنني سأضع يدي فيها لأثبت براءته!".

قال الدكتور زيونمان بنبرة متساهلة مع إحساس بالتفوق: "الأمر ليس بهذه البساطة، ومع ذلك، يمكنك تسهيل الأمر علينا كثيرًا وإفادة المتهم إذا سردتِ ما لديك بطريقة مختصرة وواضحة ومنطقية. اسمك روزين شميت، المولودة باسم فوجلفراي، زوجة نقيب، وتبلغين أربعًا وأربعين سنة؟".

قالت السيدة: "نعم، بالتأكيد، لستُ من النساء اللواتي يخفين أعمارهن خجلًا. فالرجال أيضًا، يبذلون ما بوسعهم ليحتفظوا بمظهر الشباب، ولا سيما في الجيش، ولو كان مظهرهم يعني لهم ما يعني لنا نحن النساء، لبالغوا في ذلك أكثر".

قال الرئيس: "سيدتي زوجة النقيب، أنت تعرفين المتهم سيجيسموندو إينيا ديروجا، لكن لا توجد بينكم صلة قرابة.

هل تتفضلين بسرد الأحداث المهمة والضرورية فقط بإيجاز، متى وتحت أي ظروف تعرفتِ عليه؟".

قالت زوجة النقيب شميت بحيوية: "بكل سرور سأفعل ذلك، سأقول كل ما أعرفه، فقد جئتُ من أجله. ولو اضطررت للسفر إلى أقاصي الأرض، لأخبرتُ زوجي أنني سأفعل ذلك لأساعد دودو على الخروج من مأزقه. لقد استحق ذلك عن جدارة، فهو لطيف وطيب كما عهدناه دائمًا. ومع أنه أحيانًا كان مجنونًا قليلًا لكنه مبدع، ويثور أحيانًا كالدخان والنيران، لكنه لم يقتل أي إنسان على الإطلاق، ولا سيما زوجته الطيبة، روح قلبه، التي كانت أعزّ الناس إليه. وكان يُلقب بلقب (وعاء مليء بالفئران)".

سأل الدكتور زيونمان: "كيف أُطلِق لقب (وعاء مليء بالفئران) على المتهم؟".

أجابت السيدة شميت: "هذا ما يُطلق عادة على الشخصية التي تظهر في نهاية الألعاب النارية؛ حيث يتطاير كل شيء ويصدر صوتًا مدويًا ومتواصلًا، حتى يظن المرء أنه يرى جبلًا ينفث النار والدخان. كان هذا نوعًا من الألقاب المدللة التي أطلقتها عليه زوجته؛ لأنه أحيانًا كان يثور بشدة، كأنه ينفث النار والدخان، حتى كانت تخاف منه".

قال رئيس الجلسة: "لقب حقًا خارج المألوف".

فضحكت السيدة شميت وقالت: "آه، سيادة الرئيس، لم يكن

يقصد به أي شر في الحقيقة، تمامًا كما أن وعاءً مليئًا بالفئران لا يشكّل خطرًا. ولهذا كان الاسم مناسبًا تمامًا، وكنا جميعًا نطلقه عليه، رغم أن ذلك لم يكن لائقًا بي كثيرًا، فقد كنت يومها فتاة صغيرة".

قال المدّعي العام: "برجاء الانتباه؛ فوفقًا لأقوال الشاهدة، كانت زوجة ديروجا في تلك الفترة تخاف منه".

فاستدارت السيدة زوجة النقيب شميت بسرعة نحو المتحدث، وقد احمرّ وجهها من الغضب، وقالت: "إذا كنتم تظنون أنكم بذلك قد حققتم مكسبًا على حساب الدكتور لمجرد أني قلت إنه كان سريع الغضب، فأنتم واهمون تمامًا. فذوو الطباع الحادّة ليسوا بالضرورة الأسوأ، كما يقول المثل: الكلاب التي تنبح لا تعض. لقد قلتُ كثيرًا لزوجي: أما بالنسبة إليّ، فليغضب وليسبّ، بل وليضربْ إن شاء الله، لكن ما لا أطيقه هو التذمّر والنظرات الحاقدة، والتمتمة وحمل الضغائن؛ فأنا أؤمن بأن من لا يغضب أبدًا فقلْبه ليس في موضعه الصحيح، فالانفعال دليل على طيبة القلب وسلامته".

أشار رئيس الجلسة بيديه إشارة ختامية، وقال: "زوجة النقيب، ما قدمتِه لنا من معلومات ذات قيمة كبيرة. ربما تودين أن تروي لنا أولًا كيف تعرفتِ على المتهم!".

قالت السيدة زوجة النقيب: "بكل سرور، بكل سرور، لقد كنتُ خلال الرحلة الطويلة أفكر دائمًا في تلك الفترة، ولهذا فكل شيء حاضر في ذهني، رغم مرور اثنين وعشرين عامًا

حتى الآن. نعم، مرت اثنتان وعشرون عامًا، وكنتُ آنذاك في الحادية والعشرين من عمري. كانت جدتي قد خسرت مؤخرًا مبلغًا كبيرًا في اليانصيب. ومع أنّها كانت تتصور نفسها مثالًا يُحتذى به في العقل والحكمة، فإنها لم تكن تستطيع العيش من دون اللعب. وكان من المحتم، متى توفر لديها المال، أن تلعب. ونظرًا لأن جدي كان منزعجًا وإن لم يُصرّح بذلك أبدًا، إذ لم يجرؤ على قول شيء فقد كان يعبس أحيانًا أو يُلقي بتعليق ساخر، فأرادت جدتي تعويض المال المفقود، فأعدّت البيت القديم عند سياج الحديقة للتأجير، ونُشر إعلان في الصحيفة. ما زلت أذكر، كما لو كان اليوم، كيف كنا نجلس ليلًا متأخرين حول الطاولة تحت المصباح، نكدّ في صياغة الإعلان بالألمانية السليمة. فجدتي لم تكن بارعة في الكتابة، أما جدي فلم تكن لديه أدنى رغبة في أن تكون له علاقة بالأمر. وقد قال أولًا: "لا يليق برجال الضباط أن يؤجروا الغرف"؛ فقد كان نقيبًا، وإن لم يعد في الخدمة منذ زمن طويل. ثانيًا: لم يكن يرغب أن يسكن منزله أناس غرباء لا يعرفهم، وثالثًا: إنه لعارٍ حقًا أن يعيش أبرياء في مثل هذا الكوخ القديم".

قاطعها رئيس الجلسة قائلًا: "يبدو أن جدتك لم تكن ألمانية الأصل، إذ لم تكن اللغة الألمانية مألوفة لها".

أجابت السيدة شميت: "لا، بالتأكيد لا، فقد كانت من البوسنة؛ لكنها كانت امرأة جميلة جدًا، وبالمناسبة متعلمة

أيضًا، لكنها لم تكن متخصصة في العلوم".

سأل رئيس الجلسة: "وماذا عن والديكِ؟".

أجابت زوجة النقيب وقد بدا عليها التأثّر، فاحمرّ وجهها قليلًا:

- "نعم، كان والداي أيضًا من هناك، لكنّهما توفّيا وأنا ما زلت طفلة صغيرة، فلم أتمكّن من تذكّرهما، وكنت أعدّ جدّي وجدّتي في الحقيقة والديّ".

ثم تابعت قائلةً: "حسنًا، لأواصل حديثي.. عندما قال جدّي ذلك، ثارت جدّتي في نوبة غضب، وقالت إنّ البيت القديم كان قد بناه الإمبراطور يوسف، أو فرديناند، أو ربما ماكسيميليان – لا أذكر أيّهم تحديدًا – من أجل محبوبته، في زمنٍ كانت فيه المنطقة بأسرها لا تزال غاباتٍ وبراري. وكان في السقف بعض الرسوم، وعلى الدرج فازةٌ حجرية، وإن كانت مكسورة. وفوق ذلك، لم تكن جدّتي تريد أن تُقنع الناس باستئجار البيت، بل أرادت فقط أن تُريهم إياه؛ فبإمكانهم أن يتفحّصوه بأعينهم، وإن لم يُعجبهم، فليعودوا إلى بيوتهم بسلام".

ثم ابتسمت قليلًا وهي تتابع: "عندما كانت جدّتي غاضبة، كانت تبدو مهيبة بحق؛ فقد كان لها أنفٌ مقوّس كأنف الببغاء – لكنه أجمل – وعينان تلمعان كالألماس، وشَعرٌ أبيض كثيف يعلو رأسها كجبلٍ من الثلج. ولكي يُهدّئها، ساعدها جدّي في

كتابة الإعلان، وكان نصّه في النهاية على النحو التالي: (هنا منزلٌ صيفيٌ أنيق للإيجار، صالحٌ أيضًا لفصل الشتاء عند الرغبة. يقع في منطقة خضراء ويحتوي على بعض الأثاث. مناسبٌ تمامًا لزوجين شابين). كانت جدّتي قد أرادت في البداية أن تكتب: (لمحبّين)، لكن جدّي غضب وقال إنها ستجلب له العار وتسيء إلى سمعته وسمعة العائلة، وإنها أكثر عنادًا من غجرية! فأذعنت له أخيرًا، إذ كانت تُكنّ احترامًا كبيرًا لهيبته ومعرفته بالحياة، فاستُبدلت العبارة بـ (زوجين شابين)".

سأل رئيس الجلسة: "وهل جاء الدكتور ديروجا وزوجته بناءً على هذا الإعلان؟ ومتى كان ذلك؟".

أجابت السيدة شميت: "منذ اثنتين وعشرين سنة، كما ذكرتُ قبل قليل، ربما كان ذلك في شهر مايو".

فقال ديروجا بهدوء: "بل كان في يوليو، إذ كانت شجرة الزيزفون التي كنا نجلس تحتها مساءً تنشر عطرها في كل مكان حولنا، وكان قوس الورود فوق بوابة الحديقة يتفتح حين مررنا به في أول مرة".

نظر الجميع بدهشة إلى المتهم، إذ لاحظوا حينها رقة صوته وعذوبة نبرته، حتى بدت كلماته وكأنها نغم موسيقي لطيف الإيقاع.

وأظهرت السيدة شميت، تلك المرأة الأنيقة الزاهية الألوان،

ميلًا لأن تتقدم نحوه، لكنها تماسكت وقالت مبتسمة: "معك الحق، كان في يوليو! أنت أدرى مني بذلك، بل يمكنك أن تروي كل شيء أجمل وأصدق مما أفعل أنا".

فقال ديروجا في صوتٍ مفعمٍ بالحنين: "فوق جناحنا الصغير كان يعلو، بشكل مائل، كوكب العربة(2). وحين كنا نعود ليلًا، يدًا بيد، أنا و(مينغو)، كنت أنظر إليه وأفكر قائلًا: (يا عربة الزمن الطائرة، كم سيمضي من الوقت قبل أن تحملنا بعيدًا عن هذه اللحظات السريعة الحمقاء.. إلى ذلك الظلام الذي لا اسم له)".

تذكرت السيدة شميت وقالت بحيوية: "نعم، من المفترض أنني سمعت شيئًا يشبه ذلك منك من قبل. ففي الصيف التالي، حينما ظهرت العربة (كوكبة العربة) في السماء، بدت لي دائمًا فارغة جدًا، ومع ذلك، لم أرَ أحدًا يجلس فيها أبدًا، بالطبع".

سأل ديروجا: "إذن، كنتِ تفكرين بنا أحيانًا، يا بروتا؟".

سحبت السيدة زوجة النقيب منديلها وانهمرت بالبكاء، شهقت قائلًا:

- "آه، هذا يلامس قلبي حين تخاطبني بهذا الاسم. لم ينادني أحد به منذ سنوات، فقد توفي جدي وجدتي منذ زمن بعيد، ولا أرغب في العودة إلى المنزل القديم. ومن يدري، هل ما زالت العربة فوقه في السماء!".

استأنف رئيس الجلسة حينها التحقيق، طالبًا من السيدة شميت أن تهدأ، وسألها عما إذا كان الزوجان ديروجا قد تركا انطباعًا يوحي بأنهما يعيشان حياة سعيدة، وهل أعجبا جدّيها؟

ابتسمت السيدة شميت بحيوية، وقالت: "أجل، خصوصًا الدكتور. أعني أن جدي أعجب بالسيدة أكثر، لكنه كتم إعجابه ولم يُبدِه. أما جدّتي، فإذا أحبّت شخصًا، بدا ذلك واضحًا على الفور. ومن النظرة الأولى قالت إنها كانت تتمنى أن يكون مناسبًا لي".

سأل الدكتور زوينمان: "وكيف توصلت جدتك إلى هذا الرأي؟ هل أظهر لك أي اهتمام خاص؟".

أجابت السيدة شميت بحزم: "لا شيء من هذا القبيل! كان من عادته أن يمزح معي فقط. على سبيل المثال، كان يقول لي دائمًا إنني قبيحة إلى حدٍّ لا يُحتمل، بحيث لا يستطيع أحد النظر إليّ إلا بعين واحدة، وإلا لما تحمّل ذلك. وعندما كنت أعترض طريقه، كان يغمض عينًا تارة هذه وتارة تلك ويقول إنه يفعل ذلك ليُريح عينيه. وكانت التعابير التي كان يصنعها على وجهه مضحكة إلى درجة أنني لم أستطع التوقف عن الضحك، وكانت جدتي تضحك هي الأخرى، وإن كان الانزعاج يبدو عليها قليلًا. ومع ذلك، لم تُظهر جدتي انزعاجها له أبدًا، بل كانت تصبّه عليّ أنا ولا أنكر أنني عانيت منها كثيرًا؛ فقد كانت سريعة الغضب، رغم أنها في جوهرها

امرأة عظيمة سأظل أحبّها وأجلّها ما حييت".

وسألها رئيس الجلسة: "ألم تشعري أن تصرّف المتهم كان غير لطيف؟".

أجابت السيدة شميت بحزم: "إطلاقًا! إذا قيل لإحدى الفتيات بهذه الطريقة إنكِ قبيحة، تشعرين بالعكس تمامًا وكأنكِ جميلة. لم أفكر يومًا في الزواج منه، فهو متزوج، بالإضافة إلى ذلك كنت من أشد المعجبات بزوجته. أما جدتي، فقد أحبّتها تدريجيًا، ثم أصبحت تقريبًا أكثر تعلقًا بها من ديروجا نفسه. في البداية، كان لديها عدة ملاحظات على الزوجة: كانت تبدو أكبر

من لديروجا في السن إلى حد ما وبالفعل كانت أكبر ببضع سنوات، وتحديدًا لم تكن جذابة بما يكفي لتناسب رجل وسيم وساحر كهذا. ملامحها لم تكن سيئة إذا دققت النظر، لكن عيونها كانت وديعة للغاية، وبسبب ذلك كانت مملة بعض الشيء. لطافتها الدائمة كانت بالنسبة لجدتي مثل عصيدة الحليب؛ لو تناولتها يوميًا، لملّ منها المرء. بالمقابل، الغولاش المتبّل بالبصل والفلفل لن يملّ منه أحد أبدًا. الشيء الوحيد الذي أعجب جدتي فيها حقًا كان عنقها. كانت تلك المسكينة تُبقي عنقها مكشوفًا دائمًا، مع أن ذلك لم يكن رائجًا آنذاك كما هو اليوم. وحين كانت تمشي في الحديقة بخِفّةٍ، كأنّ في قدميها أجنحةً صغيرة تُحلّق بها، كانت جدّتي تقول وهي تتابعها بنظراتٍ متناقضة قائلةً: "على أيّ حال، هي لا

تُعجبني... لكن، كم أودّ أن أقبّل عنقها ولو مرةً واحدة!". في يوم من الأيام، من المفروض أن يكون ذلك في أكتوبر، إذ كنا قد جنينا العنب، وكانت جدتي في حالة من التوتر والانفعال النفسي بشكل خاص في هذه الفترة، كما هو الحال كل عام أثناء موسم قطف العنب. في الوقت نفسه، كانت تتصور أن العنب سيكون حلوًا، ولكن عندما حان موعد القطاف، تبين أن العنب كان حامضًا مرة أخرى. في صباح ذلك اليوم، صفعتني أثناء الإفطار لأنني أسقطت فنجان القهوة. أي في الحقيقة، هي من دفعتني، لكنها قالت إن ذلك لا يُعدّ عذرًا، لأنني – كما زعمت – كنت أحدّق فيها بغباء. وفي تلك المناسبة قالت لي أيضًا: لو كنت على الأقل ذات عقل فطن، لكانت الأمور يمكن أن تسير على ما يرام، لكن بما أنني قبيحة وغبية، فلا عجب أن الدكتور لم يتزوجني؛ فهو لم يكن قد عرفني عندما كان أعزب، ولذا لم يكن بوسعه أن يتزوجني على الإطلاق. ولم تدرك جدّتي هذا أبدًا. وقالت إنني غير ماهرة في المطبخ، ومع ذلك، كانت تعتبر القدرة على الطبخ شرطًا أساسيًا للسعادة الزوجية. وبأنها كانت تولي هذا الأمر اهتمامًا كبيرًا، ما زلت أشكرها كل يوم، حين يقول لي زوجي إن طعام أفخم فنادق فيينا وبراغ لا يعادل مذاق طعام المنزل، رغم أنه قد سافر كثيرًا ويمتلك خبرة في ذلك. في ذلك اليوم، أردت أن أطبخ الريزوتو، ولأني قد حضرته مرةً تحت إشراف جدتي من قبل، ظننت أنني لن أواجه أي صعوبة. قطعت البصل والكبد وكل المكونات، وأعددت كل شيء، وفجأة شعرت

بالجوع، وراودتني فكرة أن هناك ربما عنبة يمكنني أخذها لنفسي دون أن تلاحظ جدتي. صببت بعض مرق اللحم الإضافي وفكرت أنني بهذه الطريقة يمكنني ترك الريزوتو ينضج قليلًا بهدوء. في الواقع، كان يجب تقليب الريزوتو باستمرار، وكنت أعلم ذلك جيدًا؛ لكنني كنت جريئة ومتهورة قليلًا. الآن لم أعد أستطيع أن أفهم كيف حدث ذلك، لكن في سن الشباب، يتجول المرء فجأة بين زحام أفكاره وهو يتخيّل المستقبل: الحب، الهدايا، الزواج، وما إلى ذلك، حتى انشغلت بهذه الأحلام لدرجة أنني نسيت الغداء تمامًا. وفجأة، وقفت جدتي أمامي، مرتدية روب النوم، ووجهها أحمر كفرن مشتعل. وفجأة صرخت جدتي قائلة:"ها هي واقفة وتعبث، تلك الفتاة المشاغبة التي حرقت لي الريزوتو كله!". حقًا، كانت الرائحة تتصاعد عبر نافذة المطبخ المفتوحة التي كنا واقفين تحتها، ومن الغريب أنني لم ألحظها من قبل. ثم انقضت علي، أمسكت بشعري بإحدى يديها وضربتني بالأخرى، حتى شعرت وكأنني داخل دوامة تدور بي في دائرة. لم يكن الألم ما يشغلني آنذاك، بل الدهشة الشديدة مما يحدث. وما أدهشني أكثر، أن جدتي فجأة اجتذبها ريح عاصفة وأعادت بها إلى الوراء، وكان الدكتورديروجا يقف بيننا، كالملاك الذي يحمل السيف الناري كما في قصة طرد آدم وحواء من الجنة، بعينين لم تكونا زرقاوين كالعادة، بل سوداوين متوهجتين، يلمع فيهما الشرر، كما بدا لي في تلك اللحظة المليئة بالإثارة والتوتر. صرخت بأقصى ما تستطيع، بصوت قوي ممزوج

بنبرة رقيقة، قائلةً: "اتركي الطفل فورًا، أيتها الضبعة البغيضة الملحدة!". وبعد لحظات قليلة، قال بصوت أخف قليلًا وأكثر هدوءً: "كنت أقصد أن أقول امرأة شرسة". حين نطقت بذلك، بدا لها الأمر طريفًا بعض الشيء حيث أنها بدأت تبتسم من طرفي فمها، ثم ضحكت جدتي بصوت عالٍ من قلبها، وما إن سمعت ضحكها حتى انفجرت أنا ضاحكة بشدة، لدرجة أنني صرخت من شدة الضحك واحتصنت الدكتور ضاحكة، حتى كادت الدموع تنهمر من عيوني من شدة الضحك".

طوال فترة سرد الأحداث، كان القضاة، ومعهم الدكتور برنبرجر، يراقبون المتهم خلسةً دون أن يلفتوا الانتباه. وقد بدا على ملامحه بوضوح أنه يعيش تلك الذكريات المستعادة بكل جوارحه؛ كانت عيناه الطويلتان، الجميلتا التكوين، تتلألآن كقشور سمكة فضية، وكأن وهج الماضي انعكس فيهما من جديد. بدا وكأنه نسي تمامًا أين هو وما حوله، وقال بعفويةٍ لصديقته القديمة: "المسكينة مارموت! – الاسم الذي كان يطلقه على زوجته – المسكينة الطيبة الجبانة! هكذا كانت، فيما بعد، تدافع عن صغيرتها أمامي، تلك الصغيرة التي كانت بطبيعة الحال، تستحق العقاب تمامًا كما كنتِ تستحقينه أنتِ في ذلك الحين، يا بروتا. لكن هيا، تابعي.. تابعي الحكاية، ماذا فعلت الجدة بعد ذلك؟".

تابعت السيدة زوجة النقيب قائلة: "كانت عينا جدتي تلمعان بالدموع أيضًا، لكن ليس من الضحك فقط، بل لأنها تأثرت

فعلًا بوجود الطبيب، ولم تُخفِ ذلك. فمع أنها، كما ذكرت سابقًا، كانت حادة وسريعة الغضب، إلا أنها كانت صادقة تمامًا، ولم تتردد في الاعتراف بالخطأ إذا أدركته. وضعت الجدة يديها على جانبيها وقالت: "إذن هكذا يبدو الماء الهادئ! يمكن أن تشتعل منه شعلة حقيقية! حقًا، كنت حينها غبية وقديمة الفكر. ولو كنت اليوم مكان الطبيب، لتزوجتك غدًا على الفور، لقد أُعجبت بك جدًا. والآن، يجب أن أقبّل عنقك!". وبذلك احتضنت الجدة زوجة الطبيب وقبلتها، ليس فقط على عنقها، بل على وجنتيها أيضًا، ثم قالت إن الريزوتو يجب أن يُنسى ويُصفح عنه، وأنها ستتولى إعداد الغداء، إذ كانت تطبخ أفضل مما قد تتوقعه أي ضبعة ملحدة. وفي الحقيقة، استطاعت في غضون ساعة واحدة إعداد أرقى المأكولات، وهي فطيرة اللحم وكرات المشمش، وما زلت حتى اليوم لا أفهم كيف تمكنت من ذلك، فهذه أطباق تحتاج إلى وقت وجهد. بالطبع كان عليّ أن أساعدها قليلًا، فتلقّيت بعض الصفعات والخبطات، لكن ذلك لم يزعجني، لأنها كانت تبتسم أثناء ذلك. وبعد ذلك، أثناء الغداء، الذي كان على السيدة المسكينة أعني زوجة الطبيب أن تشارك فيه أيضًا، تحدثت جدتي كثيرًا عن التربية، وقالت إن الفتيات خصوصًا يجب أن يتعلمن ألا يكنّ رقيقات المشاعر وسريعات التأثر؛ لأن الرجال لن يضعوهن على وسائد من الريش، وإذا لم تتحمّل المرأة صفعة أو لم تستطع الدفاع عن نفسها، فلن يكون حالها على ما يرام؛ فالضعيفات والمتساهلات لا

يُحترمن. أما المرأة التي لا تقدم منفعة للرجال، فسيُنظر إليها فقط كعبء، لذلك يجب أن تمتلك الفتاة إما مالًا أو مهارة في الطهي. أما المسكينة مارموت، فقد امتدحت زوجها لأنه ليس كذلك، لكن جدتي، التي قد بالغت في وصف طباعه سابقًا، قالت إن الاستثناءات غير واردة. في هذا الأمر، كلاهما على السواء، وإذا جعل الحب الشخص غير أناني يومًا ما، فإنه يكره المرأة لاحقًا أضعافًا إذا قامت بخداعه".

سأل الرئيس، الذي تحلى بصبر لا مثيل له أثناء استماعه: "لماذا تقولين دائمًا (المرموت المسكينة)؟".

أجابت السيدة زوجة النقيب بعد برهة قصيرة، وقد بدا عليها بعض الحيرة: "حسنًا، لأنها ماتت".

قال الدكتور زيونمان: "آه، إذن، وهي على قيد الحياة لم تتحدثي عنها هكذا؟".

قالت السيدة شميد: "تخيّل، على العكس، كانت تبدو لي امرأة محط حسد. مع أنها كان يبدو عليها شيء من العجز في بعض الأحيان، وأحيانًا أخرى كانت حزينة وتبدو خائفة، ومن ثم ربما ناديتها ذات مرة (المرموت المسكينة)".

سأل الرئيس: "أتعرفين لماذا كانت حزينة أحيانًا؟".

تدخل ديروجا بسخرية: "لماذا؟ سأخبركم. لأنها لم تحب زوجها كما كان ينبغي، لأنها كانت تظن أن هناك من يناسبها أكثر، ولأنها كانت خائفة من غيرتي. فإننا نحن الإيطاليون لا

يجري في عروقنا الحليب أو الماء، بل الدم، ومن ثم تصبح أعيننا حمراء كالدم عندما نغضب".

نظرت السيدة زوجة النقيب نظرةً ملأها الفزع، ممزوجةً باللوم نحو ديروجا، ثم التفتت إلى القضاة قائلة: "إنه فقط يمزح! لقد كان دائمًا مولعًا بالمزاح، ويحب أن يخدع الناس ويفزعهم".

ثم عادت تخاطبه قائلة: "ولِمَ كانت (المرموت المسكينة) ستتزوجك إذن؟ كان الطفل نفسه يستطيع أن يرى كم كانت تحبك!".

أما ديروجا، فكان قد أسند رأسه من جديد إلى يده، حتى لم يُرَ وجهه، ولم يُبدِ بعد ذلك أي علامة تدل على اهتمامه.

واصلت السيدة شميد حديثها، وهي تتوجه بكلامها إلى القضاة قائلةً:

- "وإن كانت تخافه أحيانًا، فذلك لم يكن ذنبه بالتأكيد، بل سببه خوفها المفرط. لقد وقع ذاتَ ليلةٍ حادثٌ كان له علاقة برجلٍ سكران – لا أتذكّر تمامًا ما الذي حدث – لكنني أذكر جيدًا كيف كنا جميعًا نمازحها بشأن ذلك".

حثّ الرئيس السيدة شميد على أن تتذكر أو تروي ما تبقى لديها من ذكريات عن ذلك. وعندما لم تتذكر شيئًا، سأل ديروجا إن كان ربما يتذكر هو شيئًا. رفع ديروجا رأسه، وكان يبدو وكأنه لا يعرف عن ماذا يدور الحديث.

وجهت له السيدة شميد حديثها قائلةً: "آه، أنت تعرف، أيها الدكتور الصغير، لقد مرّ ليلةً رجل سكران بالقرب من الجناح وكان يصيح بصوت عالٍ إلى درجةٍ أيقظت زوجتك، فظنت أن الصوت يأتي من تحت النافذة. وكان ذلك – على الأرجح – في شهر نوفمبر، إذ كانت ليلةً عاصفةً ممطرة.

ولم تكن ترغب في النهوض، فتظاهرتَ بالنوم، بينما كانت زوجتك ترتجف خوفًا حتى كادت تموت رعبًا. هكذا تقريبًا وقع الأمر، أما زلت لا تذكر شيئًا من ذلك؟".

قال ديروجا: "أجل، صارت زوجتي حنون على غير معتاد. استيقظت لأنّها احتضنتني وضغطت رأسها على عنقي بقربٍ شديد، وبينما كنت ما أزال غارقًا في حلمٍ يخيّل لي أنّها اجتاحتها فجأة عاطفة تجاهي، ناشدتني أن أحميها من ذلك السكير. قالت: "إنه تحت النافذة، في اللحظة التالية سيدخل إلينا. ماذا نفعل، يا إلهي، ماذا نفعل! أغلِق النافذة على الأقل". فقلت لها: "سأحترس من فعل ذلك؛ لأنك هذه المرّة لطيفةٌ معي"، وقلتها بصراحة وبنبرة قاسية إلى حدّ ما، فتركتني حينئذٍ وأدارت وجهها إلى الجانب الآخر وبكت. قلت لها كلمات أشد حدة مما قلت من قبل، آمرًا إياها ألا تكون سخيفة بالبكاء، وقلتُ أيضًا إن كانت تشعر بكل هذه التعاسة فلا داعي لأن ترتجف من أجل الحياة. فقالت إنّها لو صارت بائسةً حتى الموت، فإنها لا ترغب أن يمسّها أو يخنقها إنسانٌ شنيعٌ سكير. ولم تُنكر أنّها بائسة. قلت: "ذلك الرجل ملقى بالخندق

بالخارج وسيغنّي حتى ينام"، ثم تظاهرتُ بالنوم لأعذّبها بمخاوفها. بعد نصف ساعة سكت العويل، فنامتْ نومًا عميقًا وهادئًا، بينما كنت مستيقظًا بجانبها أُمعِن النظر في عنقها الأبيض الجميل وأتأمّل كم هو يسير عليّ أن أضغط على حنجرتها، تقريبًا دون أن تَشعر".

ارتجفت حواجب النائب العام المقوّسة بانتصار، ومدّ إصبع السبابة، وفمه مفتوح على وشك الكلام، حين رفع المستشار القضائي يده في وجهه وقال بلا مبالاة، كما لو كان يردّ على اعتراض تافه: "لم يفعل ذلك بالفعل. فالكلاب التي تنبح لا تعضّ، كما قالت شاهدتنا من قبل".

قبل أن يتمكّن النائب العام من إصدار أي صوت، أعلن الدكتور زيونمان، بعد أن طلب موافقةً ضمنيةً بنظرة حازمة يمينًا ويسارًا لكنه لم ينتظر ردّها، إغلاق الجلسة لأجل استراحة الغداء. أراد أن يوجّه بعض الأسئلة في الساعة الثالثة إلى السيدة زوجة النقيب شميد، وإذا وافق زملاؤه، يمكنها حينئذٍ المغادرة، فالقطار الليلي المتجه إلى فيينا سينطلق في الساعة الثامنة.

الفصل الثالث

كان الدكتور بيرنبورجر قد حضر الجلسة برفقة طبيب أعصاب شاب صديق له، الدكتور فون فايدنبروك، وغادر المحكمة معه بعد انتهاء الجلسة.

كان الرجلان مختلفين إلى حدٍّ كبير، غير أنّ اهتمامهما المشترك بعلم النفس وما يتصل به قرّبهما إلى بعض، حتى صارا على قدرٍ من الألفة، ولا سيّما منذ أن خضع بيرنبورغر للعلاج على يد الدكتور فون فايدنبروك وفق طريقته الخاصة، بعدما أُصيب باكتئاباتٍ عصبية ناجمة عن الإفراط في الإجهاد.

كان بيرنبورجر قصير القامة، ضئيل البنية، ضعيف الأطراف، غير أنّ وجهه كان معبّرًا، وعيناه لا تعرفان الكلل، تلمعان بذكاءٍ وانتباهٍ دائم.

أما الدكتور فون فايدنبروك، فكان طويل القامة، نحيفًا أنيقًا، ملامحه بالغة الرقة حتى لتبدو، عند التأمل الدقيق، كأنها تتلاشى. وكان في مشيته شيء من المرونة والليونة، كأنه على استعدادٍ دائم للمراوغة أو التكيّف، لكن في الواقع، لم يكن يفعل سوى أن يمدّ مجسّاتٍ حسّاسة، مرنة الحركة، لتستشعر ما حوله، فيما ظلّ جوهره ساكنًا، صلبًا وناعمًا في آنٍ واحد، لا تعرفه التغيرات.

"ها قد اجتمعت مرة أخرى مجموعة من الفتيات

الهستيرات" قال ذلك وهما يعبران الشارع الواسع المؤدي إلى مركز المدينة.

قال الدكتور بيرنبورجر بحماسة، وهو يرفع بصره إلى رفيقه: "ألا ترون أن ديروجا شخص هستيري؟ أنا أرى الأمر على نحوٍ مختلف تمامًا. فارتكابه للجريمة أمرٌ يقيني، لا شك فيه؛ وقد فعلها من غير انفعال، بهدوءٍ لا مثيل له، بل وبطبيعيةٍ تامة، منعت عنه كل زلةٍ قد تفضحه. فالمجرمون الذين يضعون خططًا مدروسة، كما هو معروف، لا بد أن يقترفوا في النهاية خطأً يجرّ عليهم الهلاك. أما ديروجا، فقد قتل كما يتناول المرء حساءه، بلا مبالاة، وبشكل شبه آلي، ولذلك لم يترك وراءه أثرًا يُذكر".

أشاد الدكتور فون فايدنبروك: "ملاحظة دقيقة جدًا، فقط الأفعال غير الواعية هي الحية والمثمرة، وفي جوهرها خالية من الزلات وصحيحة دومًا. وأود أن أضيف: وكذلك بلا عيب".

ردّ بيرنبورجر: "مبدئيًا، أوافق من منظور الملاءمة، لكن هذا ليس موضوعنا الآن؛ وإلا لكان كل إنسان عديم الأخلاق لا يُعاب في أفعاله اللاأخلاقية".

فسأل فايدنبروك: "أوليس كذلك؟"، ثم تابع: "لكن ديروجا – في رأيي – لا يندرج ضمن هذه الفئة. فأنا أراه هو وزوجته شخصين سويّين أخلاقيًا، وإن كانا مصابين بالهستيريا. فالقتل في زماننا جريمة لا تليق إلا بأدنى طبقات الشعب؛ أما حين يظهر في الأوساط المثقفة، فإنه يدلّ على هستيريا أو

انحراف".

قال الآخر: "أود أن أفسر الغيرة نفسها على أنها شيء شيطاني. على أي حال، أعتقد أننا هنا أمام رغبة قتل هستيرية، لا تعدو كونها غريزة حب مكبوتة. رغم أن زوجة ديروجا أحبته، حسب شهادة تلك البرّوتا الطريفة، فإنه يظل غير مكتفٍ. ويسعى للمزيد، يثير الخوف، فتزداد متعته بتضاعف مخاوفها، لكن جشعه يظل غير مشبع ولن تنطفئ رغبته حتى بعد وفاتها. هؤلاء التعساء هم مصاصو الدماء الحقيقيون في الأساطير".

أجاب فون فايدنبروك: "بالنسبة للأشخاص الأصحاء، نعم، أما بالنسبة للمرضى، فبالكاد، وإذا استفيد منها، فبشكل عشوائي. أما في حالة ديروجا، فهستيريته تتجلى في قدرته الغريبة على تهدئة نفسه وقتما يشاء. إنه شديد التأثر، قد تدمعه أبسط الأشياء، ثم في اللحظة التالية يغدو جامدًا كالصخر. عندها، يمكن القول إنه – نوعًا ما – لم يعد موجودًا. إذا ركّز على ذلك، فقد يتمكّن ربما من أن ينقسم فعليًا، وحينئذٍ سنشهد ظاهرة التوأم المزدوج".

استفسر بيرنبورجر: "أما الزوجة؟ لماذا تعتبرونها هستيرية؟".

أجاب الدكتور فون فايدنبروك: "خوفها المفرط يُعدّ عرضًا كافيًا على هستيريتها. لاحظوا كيف تتناغم الرغبة في القتل مع الخوف. من اللافت جدًا كيف تنجذب مثل هذه الطباع

مغناطيسيًا لبعضها، لتزيد من سمات شخصياتهم المتناقضة إلى أقصى حد وتحدد مصيرهم. فالدافع نحو التدمير الذاتي، متجاوزًا كل الحدود، يظهر كمحرك غريزي خفي".

كان الأمر كما لو أنّ هذه الأفكار قد أبلغت المستشار القضائي فاين بما فيها. فعندما التقى بموكّله بعد انتهاء الجلسة، قال له: "اسمع يا دكتور، إذا حاولنا تصويرك على أنّك مختل عقليًا، أظن أنّ لدينا فرصة لذلك".

فأجابه ديروجا: "افعلوا كما تشاؤون، فأنا أترك الأمر كله لكم. وبما أنّني إنسان صالح جدًا وواقعي، أرى الأمور على حقيقتها وأسميها بأسمائها، فمن الممكن بسهولة أن يظنّ الناس أنّني مجنون".

تحدّث المستشار القضائي عن رغبته في مرافقة ديروجا لتناول الغداء قائلًا: "مايستر رايشاردت سيكون لديه بلا شك شيء صالح للأكل، وعلى حد علمي يحتفظ ذلك العجوز حتى بنبيذ جيد. فمن دون رشفة نبيذ، وسيجارة طيبة، وفنجان قهوة جيّد، لا أستطيع مواصلة العمل حين تدق الثالثة".

فقال ديروجا: "جيد أنك ستأتي معي، فبذلك يمكننا أن نتبادل الحديث قليلًا. لكن اسمع، قاطع نفسه فجأة، هل تأتي حقًا بدافع التعاطف معي، أم لتستدرجني بالكلام؟".

قال المستشار القضائي ضاحكًا: "نعم يا صديقي، ولماذا أنا هنا إذن؟ أنا أدافع عن مصالحك، ولو كنت عاقلًا حقًا، لكنت

قصصت عليّ كل شيء منذ البداية، بدلًا من أن تجبر على الإفصاح بكل شيء دون تفكير في الوقت غير المناسب، وعلى نحوٍ يضرّك. يا رجل، والله إنك تجعل عملي شاقًا للغاية!".

صادف ديروجا صديقة قديمة بعد عشرين عامًا على غير توقع، فاعتذر ثم واصل حديثه: "من الطبيعي أن أتحدث بحرية وبشكل مستفيض، وكان عليك أن تحذرني. وعلى أي حال، فالأمر عندي سواء".

وبعد أن استمتع المستشار القضائي بوجبته الأولى، استرخى في مقعده وقال: "يبدو أنّك كنت تحب زوجتك حبًا شديدًا، أليس كذلك؟".

فسأله ديروجا بهدوء: "ولماذا تقول ذلك؟ في شهر العسل، هذا أمر طبيعي. وبعد ذلك أُحببت، والله وحده يعلم، عددًا لا يُحصى من النساء الأخريات".

قال المستشار القضائي فاين: "حسنًا، لكن على أي حال، يجب أن يحب الرجل زوجته حبًا شديدًا ليضع نفسه في مثل هذا المأزق الذي قد يهدد حياته من أجلها".

قال ديروجا: "أولًا، لم يكن بوسعي أن أتنبأ بذلك، وثانيًا، كنت سأفعل الشيء نفسه مع أي إنسان، ومن المؤسف حقًا ألّا يفعل الجميع ذلك. فإذا أطلق الصيّاد النار على حيوان فأصابه، ولم يسارع إلى إنهاء آلامه، يُعدّ حقًا إنسانًا قاسيًا.

أما البشر، فنراهم يعانون أسابيع وشهورًا من العذاب قبل أن يموتوا، ولا يمدّ لهم أحد يد العون! يا لها من محبة صادقة للغير، حقًا! كأنّ الإنسان يستطيع أن يمنح غيره هدية أثمن من الموت! أما أنا، فسأكون أشدّ امتنانًا لمن يقصر من عمري حين أصبح غير صالح للحياة، من امتناني لأولئك الذين وهبوني إياها من الأساس".

قال المستشار القضائي: "لذا، يا صديقي العزيز، لكل شيء وجهان، ففي النهاية، قد يقتل أي ابن أخ عمه الغني ويدّعي أنّه فعل ذلك بدافع صلة الرحم!".

اندفع ديروجا غضبًا؛ فاحمر وجهه، قائلًا: "ماذا تعني بذلك؟ هذه تلميحة حقيرة أرفضها تمامًا".

قال المستشار القضائي بهدوء: "اسمح لي لقد تحدثت بشكل موضوعي تمامًا، وإذا كنت حساسًا فلن نحرز أي تقدم في الحديث. فالإنسان مزيج بين الخير والشر؛ فإلى جانب الدوافع الحسنة، توجد أيضًا دوافع سيئة. وإذا قتل شخص ما آخرًا وسيجني من موته منفعة، فلا بد على الأقل أن نأخذ في الاعتبار احتمال أن تكون لديه مصلحة في ذلك".

قال ديروجا: "أنت تعلم أنني لم أكن أعلم شيئًا عن وصية زوجتي".

صحّح المستشار القضائي بهدوء: "إذن لقد أخبرتني بها".

صاح ديروجا غاضبًا: "إذا لم تُصَدِّقني، فلن أتحدث معك

على الإطلاق. كيف تجرؤ أن تدافع عني وأنت تظن أنني لصّ قاتل حقير؟ هذا تصرّف غير لائق، وغير مقبول تمامًا كما لو أنني قتلت زوجتي لأرثها. وغير مناسب أيضًا أن تتواصل معي تحت ستار العطف والمودّة".

لقد أصبح وجهه شاحبًا، وبلا وعي أمسك بيده نحيلة البنية بمقبض سكينه.

قال المستشار القضائي ضاحكًا: "نعم، اسمعني، أتريد حقًا أن تجعل مني شرائحًا بين الجبن والقهوة؟ أنت إيطالي سريع الغضب، ويبدو أن عليّ أن أرتدي درعًا من الصفيح في كل مرة أزورك فيها".

فردّ ديروجا ببرود: "إن كنت تريد أن تسيء إليّ، فافعل – لكن ذلك لن يفيدك كثيرًا".

تابع المستشار القضائي: "هل هذه إهانة؟ إذا قلت إنني أرى احتمال أن تكون على علم بوصية زوجتك؟ هل أقصد أن هذا الأمر دفعك إلى الفعل؟ لا، كل ما أقوله هو أنه لا بد من أخذ احتمال تأثير هذا الأمر بعين الاعتبار".

قال ديروجا: "هذا ما يُسمّى بالرأي العام – جمهور من الجهلة لا يعرفني، فلا حاجة لي بأن يصدقني، أمّا أنت، فأطالبك أن تفعل".

صمت المستشار القضائي برهة، ثم قال: "حاول يا صديقي العزيز أن تكون عادلًا في حكمك بعض الشيء، كما تطلب من

الآخرين أن يسرفوا في عدالتهم معك، فأنا لا أعرفك إلا منذ وقت قريب، بل عرفتك في ظروف شديدة الغموض. والحق يُقال، إن ما يُقال عنك لا يبعث على الثقة. أنت تعيش حياة طائشة، ولا تعمل إلا عندما تفرغ جيوبك من النقود، رغم أنّ لك مهنة مجزية وعقلًا راجحًا. لقد تركت نفسك تنحدر عمدًا، فأصبحت – إن صحّ التعبير – متشردًا بإرادتك. أفلا يكون من التهور أو الحماقة أن أصدقك تصديقًا أعمى، حتى لو كانت هناك دلائل أو افتراضات مبررة تتعارض مع ما تقول أو ما أعتقده؟ ألستَ أنت أول من سيسخر مني عندئذ ويقول: "فاين ألماني أصيل، غبيّ كحبة بطاطس؟!".

ابتسم ديروجا بود وأدار وجهه نحوه قائلًا: "بالنسبة لألماني، فأنت في الحقيقة ذكيّ إلى حدٍّ لا بأس به، وفوق ذلك رجل طيب. لكنني لا أرى سببًا يمنعك من أن تدعني أقول الحقيقة. فلو فعلت، لكنا قد وضعنا حدًا إلى نهاية هذه القصة المملّة المقززة منذ وقت طويل".

ألقى المستشار القضائي نظرة وهو متمعن في التفكير إلى دخان سيجارته، وهزّ رأسه قائلًا: "لقد نصحتك وفق ما يمليه عليه ضميري. لو أردت إثبات أنك ارتكبت الجريمة بدوافع نبيلة وطاهرة، لما استطعت إثبات ذلك. وبالمقابل لا يمكن لأحد أن يثبت يقينًا أنك ارتكبت الجريمة بالفعل، ما لم تظهر أدلة جديدة غير متوقعة. لذا أظن أنه إذا واصلت الإنكار بإستمرار، فسأتمكن من إثبات براءتك. وهذا أفضل من أن

تقضي بضع سنوات في السجن، حتى لو تخيلت نفسك هناك ستعيش حياة هادئة ومريحة كما لو كان نهج حياة ديوجين. بهذه الطريقة نخوض مغامرة خطيرة، لكن يمكن أن نجني منها ربحًا عظيمًا، أمّا في الحالة الأخرى، فلن نحصل – في أفضل الأحوال – إلا على نتائج جزئية.

قال ديروجا: "وأنت لست مجرد مصلح للملابس، بل فنان في تصميم للأزياء. ولكن في الحقيقة، أنا أنتمي أكثر إلى ورشة المصلح".

قال المستشار القضائي: "فالإيطالي الأصيل يستطيع أن يجسد بسهولة دور اللازاروني أو دور النبيل، وعندما تتحرر وتستعيد ثروتك، ستتجاوز هذا الألم القصير، وربما تبدأ حياة جديدة".

ضحك ديروجا قائلًا: "أبدأ حياة جديدة؟ في عمر السابعة والأربعون! أليس ما عشته كافيًا لأقول إنني نلت من الحياة ما يكفيني؟".

قال المستشار القضائي: "حسنًا، لا أرغب في أن أتدخّل في الأمر أكثر من ذلك، بإمكانك أن تواصل حياتك المتهوّرة كما تشاء. على أي حال، لقد بدت لك نصيحتي معقولة آنذاك، وقد قبلتها بمحض إرادتك".

فقال ديروجا: "سأفعل كل ما تريده، فقط كي لا ترث تلك البارونة تروشكوفيتس الثروة، تلك المرأة الحقيرة. لولا

ذلك، لرضيتُ أن يُقطع رأسي أو أُلقى في السجن دون تردّد. فالحياة لا تستحق مثل هذا الصراع".

الفصل الرابع

في الشارع الواسع الذي تسلّلت إليه أشعة شمس الربيع الخفيفة، والذي يؤدي إلى مبنى المحكمة، التقى الدكتور فون فايدنبروك بالمستشار الأعلى زيونمان، فعرّف بنفسه وأعرب عن إعجابه بالطريقة التي أدار بها جلسة المحاكمة.

قال إنه ممتنٌ لما أُتيح له من نظرةٍ إلى نفسٍ معقّدة، وإنه على يقينٍ بأن الدكتور زيونمان سيواصل استكشاف أعماقها وخفاياها.

فقال المستشار الأعلى: "أنا معتاد على أن أطرح أسئلتي بحيث تظهر كل الحقائق الخارجية والداخلية المتعلقة بالقضية من تلقاء نفسها. لا ألجأ إلى القوة والحيلة، كما تعلم، بل أترك الأمور تنكشف تلقائيًا، كما تنبسق الورقة حين تتفتح".

فقال الدكتور فون فايدنبروك: "نعم، لقد لاحظتُ ذلك...".

ابتسم فون فايدنبروك مُبتهجًا: "إنه لأمرٌ رائع. فأنتم، بطريقة أو بأخرى، تهيئون الجو المناسب، ومن ثم تنكشف لعبة الحياة من تلقاء نفسها. حتى الآن، تركتم ضوء النهار يهيمن، وربما يحين الوقت لتسمحوا للّيل بأن يسود، فتخرج الظلال من أعماق النفس البشرية".

سأل الدكتور زيونمان: "أأنت عالم نفسي وتريد إجراء دراساتك؟".

أجاب فون فايدنبروك بودّ: "من مائدتكم الغنية يسقط الكثير".

توقفا على السلم العريض أمام المبنى لإنهاء حديثهما، بينما كانت الساعة تدق الثالثة. قال المستشار الأعلى: "لا أستطيع أن أفعل في هذا الشأن بقدر ما تظنون. ومع ذلك، لا يستطيع أي محقق جنائي اليوم الاستغناء عن علم النفس، ولكنني أتعمد استخدام مصطلح (علم النفس) لأوضح أنه من منظوري ليس علمًا حقيقيًا، بل شعور فطري يمكن تسميته عبقرية. إنني أترك لنفسي مجالًا أكبر للتأثر بمشاعري أكثر من عقلي. ستندهشون لسماع مثل هذا الرأي من محامٍ".

بينما كان الدكتور فون فايدنبروك يُظهر اندهاشه وإعجابه، امتلأت قاعة هيئة المحلفين، فسأل أحد المحلفين، مربي الدواجن كوخرله، رئيس المحلفين، المستشار التجاري فينكلر، الذي كان يجلس بجانبه، عن هوية السيدة الفاضلة التي كانت تحمل نظارة أحادية طويلة بمقبض ذهبي في الصف الأول من قاعة الحاضرين.

قال المستشار التجاري: "هذه هي البارونة تروشكوفيتس، التي أشعلت كل هذه القصة، ألا تعرفها؟".

صاح الآخر مندهشًا: "هكذا تبدو؟ كنت أتخيلها قبيحة ونحيلة جدًا، لأنها تتحدث عن الوضع المعيشي المتواضع لأطفالها، وكيف كان عليهم أن يكافحوا في حياتهم".

قال المستشار التجاري وهو يهز كتفيه: "النبلاء، لديهم ببساطة مفاهيم مختلفة عما يحتاجه الإنسان وما له الحق في المطالبة به. على أي حال، إذا كان لدى شخص ثروة كبيرة وإمكانية أن يزيدها، فلن يقول أبدًا لا".

اعترف مربي الدواجن بذلك، لكنه وجد الأمر مبتذلًا بعض الشيء أن يتظاهر أحدهم بالترف بينما يتحدث عن معاناة أطفاله اليومية من أجل الخبز.

لاحظ الآخر: "إطلالتها أنيقة حقًا، وغالية الثمن". ثم أضاف المستشار التجاري وهو يمرّر نظرة تقديرية على السيدة: "الريش على القبعة ربما يكلف مئة مارك، والماس في مقبض النظارة أحادية العدسة ربما ألف مارك".

سأل مربي الدواجن وعيونه متسعة: "هل هذه ألماسات حقيقية؟".

- "نعم، فالحجارة المزيفة لا تمتلك هذا البريق".

قال المستشار التجاري وقد بدا عليه الحماس: "حتى لو تمكن الناس من تصنيع الألماس اصطناعيًا وفق الصيغة الكيميائية، فإن بريق الأحجار الطبيعية يختلف تمامًا. لا يمكن لأحد أن ينكر ذلك، فالبريق الطبيعي للأحجار لا يمكن الوصول إليه أبدًا".

سأل مربي الدواجن: "وهل تلك الألماسات التي على قبعتها أصلية أيضًا؟".

أجاب المستشار التجاري مستنكرًا: "لا، إطلاقًا، تلك السيدة تجيد اختيار ما يليق بها فيما يتعلق بأمور الذوق. ما تضعه هو مشبك عصري خيالي لا يتجاوز ثمنه خمسين ماركًا. لكنك حقًا لست على علم بمثل هذه الأمورا".

أقرّ مربي الدواجن: "صحيح، لولا أن زوجتي تعتني بمظهري قليلًا، لما كنتُ أختلف عن عاملٍ في مزرعة. ولا أُخفي عليك سرًا، لا أستطيع التمييز بين ما يسمى بسيدة راقية من الطبقة المخملية(3)، بين ما يُعرف بسيدة من طبقة الديمي موند(4). وبين ما يُعرف بسيدة من...".

صاح المستشار التجاري مندهشًا: "ماذا تقول! هذا غير معقول! لا بدّ للمرء أن يكون على دراية بمثل هذه الفروق!".

فسأل مربي الدواجن: "إلى أيّ نوع تنتمي السيدة تروشكوفيتس إذن؟ أليست تقف على الحدّ الفاصل بين الاثنين تقريبًا؟".

قال المستشار التجاري وقد احمرّ وجهه من الدهشة والغضب: "من فضلك! إنها حقًا سيدة راقية! إطلالتها تعبّر عن ذوقٍ رفيع وتميّزٍ لا يشوبه خطأ".

فقال الآخر معترضًا: "لكن، كما تعلم، سيدة ذكية من طبقة الديمي موند تستطيع أن تقلّد ذلك بسهولة. فمثل هذه الأمور يسهل تعلّمها سريعًا".

فأصرّ المستشار التجاري، ولا يزال وجهه متوردًا من

الانفعال: "كلا، هناك لمسة خاصة لا يمكن تعلّمها. لا تُكتسب، بل فقط تُحَسّ. تفصيلة دقيقة بحجم الذرّة هى ما تصنع الفارق".

في تلك اللحظة دخلت هيئة المحكمة فقطعت الحديث، وأعيد استدعاء السيدة زوجة النقيب شميت إلى القاعة. وبعد أن ذكّرها رئيس الجلسة مجددًا بضرورة قول الحقيقة وعدم إخفاء أيٍّ منها، لخّص نتيجة أقوالها السابقة قائلًا: "بعد فترةٍ وجيزة من زواجه بزوجته التي كانت تكبره بعدّة سنوات، استأجر المتهم شقةً صيفية عند جدّيكِ في لايباخ. كان آل ديروجا يبدو أنهما زوجان سعيدان، رغم أنّ سعادتهما رافقها قليل من التوتر نتيجة لبعض الطباع الخاصة بالرجل، وخصوصًا مزاجه الحاد وسرعة غضبه المفاجئة وميوله للغيرة. كما تعلمون، كانت هناك حالة من الغيرة غير مبررة، أليس فهمي لذلك صحيحًا؟".

قالت السيدة شميت: "لا يمكنني بالطبع أن أعرف شيئًا عن ذلك".

وأضافت: "فلقد كان الأمر في الماضي. ومن الممكن أن تكون المسكينة مارموت قد أحبّت شخصًا آخر، فهي بلا شك كانت قد بلغت الثلاثين من عمرها، وأعتقد أنّ هذا صحيح؛ لأن من الحماقة لو اخترع الدكتور هذه القصة ليعذب نفسه بها".

قال لها الدكتور زيونمان: "لكنّك قلتِ هذا صباح اليوم، كنتِ

ترين أنّه من المستحيل أن تكون السيدة ديروجا قد ارتكبت مثل هذا الخطأ".

كررت السيدة شميت: "ارتكاب خطأ؟ هذا الكلام لا يُعقل. يا إلهي، أليس من حق المرء أن يحبّ شخصًا ما دون أن تُخطط ضده المكائد؟ أنا أيضًا كنت أحبّ دكتورنا الصغير نعم، لم تتجاوز مشاعري بدايتها، ولكن حتى لو حدثت قبلة واحدة ذات مرة، فما المشكلة؟ أكثر من يثيرون الشكوك هم المتزمتون جدًا".

قال الدكتور زيونمان: "لكن ليس هناك حتى الآن ما يثبت أن السيدة ديروجا – زوجة المتهم السابقة – كانت لا تزال على تواصل بأي علاقة سابقة؟".

صاحت السيدة زوجة النقيب شميت بصوت مرتفع قليلًا: "يا للهول! ماذا تعني بذلك؟ كما لو كانت حقًا امرأة حقيرة! من الأفضل أن تسألوا الدكتور نفسه، فهو سيخبركم بذلك بالتأكيد. وأظن أنه قد يهمّ بالانقضاض عليكم لو وجهتم له سؤالًا كهذا!".

لم يستطع الدكتور زيونمان إلا أن يبتسم، وقال: "لهذا أفضل أن أسمع منك أنتِ".

ثم أضاف: "إذن، أنتِ ترين أنه ربما كانت للسيدة ديروجا ميول قبل زواجها، لكنكِ مقتنعة بأن أي علاقة سابقة كانت قد انتهت تمامًا في ذلك الحين. وبما أن المتهم استقر أولًا في

لينتس وبدأ عمله هناك كطبيب، فقد تخلى في شهر ديسمبر عن الشقة الصيفية في بيت جدّيكِ. هل تواصلتِ فيما بعد مع الدكتور وزوجته؟".

السيدة شميت: "لقد أرسلوا ليخبرونا بميلاد طفلتهم الصغيرة، تلك التي توفيت فيما بعد. كانت الجدة قد أهدتني نسخة من ذلك الخطاب، وما زلت أحتفظ بها حتى الآن. لطالما شعرت بأنهما شخصان مميّزان، وظللت فترة طويلة أنتظر أن يحدث لهما أمر استثنائي. لكن لم يخطر ببالي قطّ أن يكون على هذا النحو".

وبعد أن وُجّهت إليها بعض الأسئلة الإضافية حول الزوّار الذين كان آل ديروجا يستقبلونهم، وعن طريقة إنفاقهم، انصرفت السيدة زوجة النقيب شميت من القاعة.

ثم دخل رجل أنيق في نحو السادسة والثلاثين من عمره. كان مظهره بالغ التهذيب، يكاد يُذكّر بشخصية مرموقة من عالم الأزياء، وملامحه متناسقة بنفس القدر؛ غير أن وجهه لم يكن أملس ورديًا، بل شاحبًا رماديّ اللون، تشوبه مسحة من الإرهاق والإنهاك، وقد غارت وجنتاه قليلًا.

انحنى أمام المحكمة بانحناءة تنمّ عن احترامٍ لتلك الهيئة الرسمية؛ ذلك الاحترام الذي يمنحه لكل مؤسسة حكومية، مهما كان يرى نفسه فوقها، ثم سُجّلت بياناته الشخصية، فذكر أنّ اسمه بيتر هازه وأنه يقيم في ميونخ. بعد ذلك طُلب منه أن يوضّح كيف تعرّف على المتهم.

- "تعرّفنا على بعضنا في مقهى كافاليير، حيث كان يتردد عليه باستمرار. ليس مقهى من الدرجة الأولى، لكنه مكان مريح جدًا، ويقصده عدد لا بأس به من الفنانين، رغم أنه في الأصل تم تأسيسه لغير الفنانين. كان ديروجا ذائع الصيت هناك بشكل كبير، وكان مشهورًا بشخصيته الغريبة الأطوار ورفيقًا لطيفًا في المجالس، لذلك سررت بلقائه. كان له مكان محدد على طاولة بعينها، حيث اعتاد أن يتجمع حوله دائرة مختلطة من الأشخاص".

فسأله رئيس المحكمة: "هل كان بين هؤلاء أشخاص من الطبقة الراقية؟".

فأجاب بيتر هازه: "كان بينهم هذا وذاك، لكن معظمهم من طبقة البوهيميين".

نطق الكلمة بنغمة حيادية تمامًا، بحيث من المستحيل أن يُفهم ما إذا كان يقصد بها الازدراء أم الإعجاب أم مجرد وصف عابر.

وبشكل عام، بدا عليه انفصال كامل عن محيطه؛ وكأنه لا يرى من حوله سوى جدران بيضاء خالية.

قال الرئيس: "هل تسمح لي الآن أن تصف اللقاء الذي دار بينك وبين ديروجا في ذلك المقهى المذكور؟".

انحنى السيد هازه موافقًا، وقال: "اسمحوا لي بتوضيح الأمر: لم يكن هناك تفاعل مباشر وصريح بيني وبين ديروجا.

فقد وقع آنذاك حادث في منجم أدى إلى وفاة عدد من العمال، وكان يتم جمع تبرعات لأسرهم. وفي ذلك المساء، دخلت سيدة إلى المقهى حاملة قائمة للتوقيعات والتبرعات".

سأل الرئيس: "سيدة؟".

قال السيد هازه: "نعم، سيدة أو بالأحرى، امرأة كانت ترتدي ثيابًا رثّة للغاية. اقتربت من طاولتنا، وبما أني كنت أقرب الجالسين إليها، أشرتُ لها بيدي أو بهزةٍ من رأسي ألا تُتعب نفسها؛ إذ أرى أن جمع التبرعات، أيًا كان نوعها، في أماكن الترفيه أمرٌ غير لائق".

لكن الدكتور ديروجا، الذي يتمتع بقدرةٍ مذهلةٍ على الملاحظة، لفت نظره ما جرى، ونادى تلك السيدة أو المرأة التي كانت توشك أن تواصل طريقها.

قال لها: "لماذا لا تأتين إلينا، يا عزيزتي؟ تعالي، نودّ أن نساهم نحن أيضًا".

ثم بدأ يوبّخني بشدة، متهمًا إيّاي بأنني تصرّفت من تلقاء نفسي وطردتُ السيدة دون أن أعرف رغبة الحاضرين.

ولإنهاء الجدال بسرعة، تناولتُ القائمة، وسجّلت مبلغًا صغيرًا، ومرّرتها إلى غيري.

وحين وصلت إلى ديروجا، أخذ يقرأ ما كُتب قبله، ولاحظت من ملامحه أنه استشاط غضبًا من ضآلة المبالغ التي تبرّع بها الآخرون.

فقال للسيدة بنبرةٍ لاذعة: "انظري يا عزيزتي، هؤلاء السادة هنا أغنياء، ولذلك بما أنهم يبنون القصور، ويقتنون السيارات، ويشربون الشمبانيا لم يتبقَّ لديهم مالٌ لزوجات العمال وأطفالهم الذين هم في الحقيقة أكثر مما ينبغي. أما أنا، ففقير، ويُفترض بي أن أشنق نفسي، وكل ما أحتاجه هو حبلٌ رخيص الثمن؛ لذا أستطيع أن أتبرع بثلاثمائة مارك، وأرجو أن تستلميها من شقتي المذكورة هنا، وعلى أي حال، يمكنك أخذ هذ الدبوس الآن كضمان".

وفي أثناء حديثه أخرج دبوسًا غريب الشكل من رابطة عنقه، بدا أنه ثمين للغاية، وقدمه للسيدة، كانت محرجة من تصرفه، فرفضت أن تأخذه في البداية، لكنها في نهاية الأمر اضطُرت أن تقبل.

ثم قال بعض السادة الذين كانوا يعرفون الدكتور ديروجا أفضل مني، إنه لو تبرع كلٌّ من الحاضرين بنحو خمس ماركات، لجُمع المبلغ المطلوب؛ فليس الهدف أن تصبح أرامل العمال أغنى منّا نحن أنفسنا. وأضافوا أنه ينبغي عليه أن يتحلّى بالعقل ويقدّم مبلغًا يتناسب مع وضعه المالي. غير أن هذه الملاحظات لم تؤدِّ إلا إلى استفزازه أكثر، فاستشاط غضبًا، وأطلق في ثورته سيلًا من العبارات الغاضبة، لا أستطيع بالطبع أن أنقلها إلا على وجه التقريب.

طلب منه رئيس المحكمة أن يروي ما حدث بقدر ما تسعفه ذاكرته.

فانحنى السيد هازه موافقًا، قال بالتقريب ما يلي: "وضعي المادي؟ ماذا تعرفون أنتم عن وضعي؟ أنا في أعينكم مجرد مسكينًا بائسًا، وتظنون أن من حقكم السخرية مني والتصرف تجاهي بتعالٍ. ترون فيّ مهرّجًا للبلاط، مجرد وجوده لتسلية الآخرين، دون أن يكون له أي حق في المطالبة بشيء. لكنني أستطيع، مثلكم تمامًا، أن أتزوج امرأة ثرية، فأصبح في نفس مستواكم المعيشي. لكن لا أحتاج لذلك، لأن بإمكاني أن أتصرف متى شئت في ثروة زوجتي السابقة. وبعد وفاتها سأصبح رجلًا ثريًا، وربما بنفس القدر من البخل والطمع الذي أنتم عليه الآن. فخذي مالي يا عزيزتي، ما دمت لا أزال فقيرًا!".

ثم أضاف السيد هازه: "وأرجو أن تأخذوا بعين الاعتبار أنني أروي فقط ما حفظته ذاكرتي أو ربما ما توهّمت حفظه. والأفضل أن تسألوا الدكتور ديروجا نفسه عمّا إذا كان هذه الكلمات قد صدرت عنه بالفعل".

بالكاد وجه رئيس الجلسة رأسه نحو ديروجا، حتى صاح الآخر مبتهجًا: "كانت كل الرواية ممتازة وتليق بكاتب بارع. أبدو فيها أفضل بكثير مما كنت أتوقع. من المحتمل أنني قلت كل هذا بالفعل، لكن السيد هازه، بأمانته، حذف كل الشتائم التي كنت أوجهها إليه شخصيًا حول قسوته، ونفاقه، وتفاهته، وما شابه ذلك".

قال السيد هازه، متوجّهًا إلى الرئيس: "لقد حذفت ما لم

يرتبط بالموضوع بشكل مباشر، ومع ذلك، ربما لم يكن ينبغي عليّ أن أتجاهل تمامًا هجماته عليّ، لأنها توضح مدى سيطرته على انفعالاته في لحظات الغضب، وأنه لا يمكن استخلاص استنتاجات إلا بشكل محدود من أقواله في مثل تلك اللحظات".

وقف المستشار القضائي فاين، قائلًا: "أرجو أن تأذنوا لي أن أضيف ملاحظة أخرى مشابهة على هذه الملاحظة الصحيحة جدًا للشاهد. النتيجة الرئيسية لما سمعناه من أقوال، هي أنه لا يجب أخذ ديروجا على محمل الجد بشكل مطلق. من المفترض أن تكون قد زرت إيطاليا وتعرف الإيطاليين لتتمكن من تقييمه بشكل صحيح. أحيانًا تذكرنا خطاباته بأسلوب الترويج المبالغ فيه والمثير للانتباه، كما يفعل دجال إيطالي في السوق حين يروّج للّاصقات الطبية لعلاج مسامير القدم: (سيداتي وسادتي، ولو كان أخوكم من أبويكم مكاني، فلن يخدمكم بأمانة أكثر مما أفعل. لست هنا من أجلي، بل من أجلكم، فماذا تعني القليل من الفلوس التي تدفعونها لي مقارنة بما أقدمه لكم: حياة خالية من الألم، خطوات واثقة، إعجاب النساء، إعجاب الرجال!)".

ضحك الحاضرون، وفي أثناء ذلك عبس الدكتور زيونمان حاجبيه بخفة، وقال: "لا يجوز لنا أن ننسى أن الإيطاليين، بذكائهم، يعرفون كيف يستفيدون جيدًا من خصائص وطنهم، وأن من يرتدي الأقنعة كثيرًا فلا بد أن لديه وجهًا حقيقيًا،

وإن كان أحيانًا يصعب تحديد أيهما الحقيقي. لكنني لا أرغب الآن في الغوص في الفلسفة، بل في إثبات الحقائق، وأود الإشارة إلى أننا نعرف أيضًا تصريحات مشابهة للمتهم صدرت عنه وهو في كامل توازنه النفسي. وأود أن أعرف: هل دفع المتهم آنذاك المبلغ الذي سجّل؟".

أعرب السيد هازه عن أسفه لعدم قدرته على تقديم إجابة.

عند الصف الأمامي لمقاعد المحلفين، نهض المستشار التجاري وينكلر، وقال: "ربما يمنحنا الدبوس الموجود في ربطة عنق المتهم، الإجابة المرجوة، لا شك أنه هذا الذي رهنه، ويبدو أنه استعاده الآن بعد دفع المبلغ المذكور!".

أكد ديروجا أن هذا هو الدبوس نفسه الذي استعاده بعد أن دفع المبلغ المذكور، ثم أخرجه وعرضه ليعاينه الآخرون.

سأله المستشار القضائي فاين: "هل دفعت حقًا الثلاثمائة مارك؟ وكيف جمعت مثل هذا المبلغ على الفور؟".

هزّ ديروجا كتفيه بنفاد صبر، وقال: "أتظن أنني لم أكن قادرًا في أي وقت على تدبير ثلاثمائة مارك؟ كان بوسعي مثلًا أن أطلب سلفة من القنصلية الإيطالية مقابل ترجمة أو فحص أو ما شابه ذلك. ديروجا لديه عقل في جمجمته، لا بطاطس!".

وفي تلك الأثناء، كان رئيس الجلسة يتفحّص الدبوس، وسأل السيد هازه عمّا إذا كان هو نفسه الذي قدّمه المتهم كضمان في تلك الليلة، فأجاب بيتر هازه بالإيجاب بعد أن

تفحّصه بهدوء.

قال الدكتور زيونمان: "إنه قطعة رائعة وجذابة، وهو متعمق في فحص الدبوس الذي يصوّر رأس رجل أسود مع عمامة؛ الرأس من لؤلؤة سوداء، والعمامة من لؤلؤة بيضاء، وكانت الأخيرة مزخرفة بالياقوت والزمرد".

قال ديروجا، وهو يستعيد الدبوس: "هدية من زوجتي الراحلة. كانت تقول إنه صُنع ليليق بعطيل مثلي".

بعد هذا الحدث، سأل رئيس الجلسة الشاهد إذا كان يريد أن يضيف شيئًا آخر. ولأول مرة بدا احمرارًا خفيفًا على وجه السيد هازه، إذ كان انتباهه مشغولًا بالبارونة تروشكوفيتس، التي جلست في الصف الأول من الحاضرين وانحنت للأمام بتركيز شديد وهي تتابع الدبوس بعناية الذي كان بحوزة الرئيس.

عندما خاطبه الرئيس، استدار فجأةً وقال إنه لا يعرف شيئًا آخر يتعلق بالموضوع، لكنه مستعد للإجابة على أي أسئلة إضافية.

بعد انتهاء الجلسة، لم يغادر بيتر هازه مبنى المحكمة، بل انتظر الدكتور زيونمان، وقدّم نفسه له وطلب الإذن بطرح بعض الأسئلة، فأخذه كبير قضاة المحكمة إلى مكتبه.

تركّز اهتمام السيد هازه على معرفة العقوبة التي قد تُفرض على المتهم في حال صدور حكم إدانة غير متوقعة.

أجاب الدكتور زيونمان وهو يبدّل رداءه الرسمي بمعطفه المدني: "انظر، أيها المحترم، حتى الآن تقتصر التهمة على القتل الخطأ، وفي هذه الحالة سيُحكم عليه ببضع سنوات فقط في السجن. لكن المدعي العام يرى أن القضية تُعد جريمة قتل عمد، وإذا ظهر أي دليل جديد يشير إلى ذلك، فقد تصبح المسألة خطيرة. فمثلًا، إذا تبيّن أن الرجل كان على علم بمضمون الوصية، فحينها سيُرجّح رأي المدعي العام، وفي تلك الحالة، وللأسف، سيكون علينا الشروع فورًا في القبض عليه".

قال السيد هازه مستعلمًا: "هل لي أن أسأل، ما هو منظوركم الشخصي في هذه القضية؟".

أجاب الدكتور زيونمان: "بصفتي عالم نفس، أتجنّب الانحياز تجاه الشخصيات الإشكالية. أما بالنسبة للون الأساسي الذي يتخذه هذا (الحرباء)، فبصريح القول، لم أحدد بعد رأيًا واضحًا فيه".

قال السيد هازه، وقد بدا عليه بعض الحماس: "ولِمَ ينبغي أن يكون له لون أساسي من الأساس؟ إن التغير المستمر هو طبيعته الجوهرية. لديّ تعاطفكبير مع الحرباوات".

وأضاف الدكتور زيونمان بعد برهة: "أفهم، أفهم... جميل، ولكن مراوغ. فالنظرة الجمالية تختلف كثيرًا عن الأخلاقية، وهذه الأخيرة لا تتطابق دائمًا مع القانونية".

بينما كان على وشك أن يلتقط قبعته العريضة من على الرف، طُرِق الباب، ففتح المدعي العام، فدخلت البارونة تروشكوفيتس إلى الغرفة وهي متجهة مباشرة نحوه.

قالت بسرعة وهي تمد له يدها المغطاة بقفاز جلدي أبيض ضيق: "سيادة الرئيس، أعلم أن اقتحام خصوصيتكم في هذا الوقت يُعد تدخلًا فظًا للغاية، لكنكم حقًا رجل ذو شهامة ولن تطردوني، وأنا أقلّ شرفًا من أن أترك مجاملتكم دون استغلال".

أطلق الدكتور زيونمان تنهيدة مضحكة، قائلًا: "حسنًا، لا تبالغي في الأمر، ولا تطيلي الحديث، سيدتي البارونة".

ضحكت ضحكة شبابية صافية، تحمل نبرة رقيقة من الإغراء، قائلةً: "سأختصر، طالما أنتم، سيادة الرئيس، ترغبون في ذلك. فالأمر يتعلق بالدبوس الذي كان في أيديكم اليوم وأعدتموه لذلك الرجل. تعرفت عليه فورًا، فهو قطعة عائلية من إرث جدتي الكبرى، أي من إرثي وإرث ابنة عمي الكبرى الراحلة. يؤلمني أن يكون هذا التذكار الثمين في يد ذلك الرجل، وأود أن أطلب منكم اتخاذ إجراء لاستعادته وتسليمه لي".

قال الدكتور زيونمان بدهشة: "لكم، سيدتي البارونة؟ وهل هو حقًا من ممتلكاتكم؟".

قالت البارونة: "بالطبع كما هو معروف، أنا أقرب الأقارب

للمتوفاة".

جلس الدكتور زيونمان على الفور، ولم يمنعه ذلك أن يشير للبارونة بأن تشغل الكرسي بجانبه، دون أن يفقد هدوءه، قائلًا: "لكن الدبوس لم يكن من ممتلكات ابنة عمتك في الأصل".

قالت: "لقد سمحت لنفسها أن تهديه له".

قالت البارونة: "بالطبع، لكن بعد ذلك طُلّقت، وفي مثل هذه الحالات يستعيد الناس الهدايا التي قدموها. علاوة على ذلك، لقد قتلها! لا يمكن السماح له بحمل دبوسها".

العيون الحائرة التي تبادلها كبير القضاة مع المدعي العام لم تُقلل من تماسكها. سألت، مع إيماءة حازمة تشجع على سرعة الرد: "والآن؟ ألا ترون أنكم أنتم من يطيلون الأمور؟".

قال الدكتور زيونمان بعد أن استعاد رباطة جأشه: "بما أنكم تأمرونني بالاختصارفبصراحة تامة رغبتكم غير قابلة للتحقيق. حتى لو أُدين الدكتور ديروجا، لا يمكننا سلبه ما يملكه بحق. ثم إنه حتى هذه اللحظة لم تثبت إدانته، ولم يقتل زوجتَه الراحلة، ابنةَ عمّكم، اعذروني تمامًا كما لم أفعل أنا ولا أنتم".

صاحت السيدة، وفي عينيها الرماديتين الممزوجتين بزرقة لامعة بريقُ عتابٍ حادٍ: "سيادة الرئيس، هل تجرّد رجال القانون حقًا من شعورهم بالعدالة الطبيعية والإنسانية؟".

أسرع المدعي العام ليطمئنها، قائلًا: "سيُردّ لكم حقكم، سيدتي البارونة. وأنا على يقينٍ بأنه إن خابت مساعينا، فالعناية الإلهية ستتكفل بكشف الحقيقة".

فسألت البارونة: "وماذا عن الدبوس؟ إنني أجمع مثل هذه القطع، وهذه أجمل قطعة لي فيها حق إرث واضح، فهل يُعقل أن تظل في يد مثل هذا الرجل؟".

قال الدكتور زيونمان ضاحكًا، وهو يقف مرة أخرى ليلتقط قبعته: "فيما يخص هذا الأمر، فلتلقِ المسؤولية على جدتك الكبرى، لا علينا نحن".

صاحت البارونة مستاءة: "أنت قاضٍ صارم، حاد، لا يمكن النقاش معه بسهولة".

وأضاف الدكتور زيونمان مصالِحًا: "لكن إنسان لطيف، ومقدر جمال السيدات الجميلات جدًا".

وعندما غادر الجميع معًا، طلبت البارونة أن تُعرّف نفسها على بيتر هازه، قالت له بودّ: "لست غريبًا عني، لأنني أعرف كتبك وأعجب بها. يواسيني أنني، بالرغم من هذه المحاكمة البشعة، حظيت بلقاء ثمين كهذا".

وطلبت منه أن يزورها هي وزوجها في الفندق إذا بقي لبعض الوقت هنا، وعندما رأت سيارتها تنتظرها، ودّعت الرجلين الآخرين مبتسمةً، قائلة: "سأستعيد الدبوس، شعوري يخبرني بذلك".

تابع السيدان السير عدة خطوات معًا. قال الدكتور زيونمان: "ما أروع وما أجمل افتقار النساء الكامل للمنطق والموضوعية، على الأقل بالنسبة لنا نحن الرجال!".

وأضاف السيد هازه بإعجاب: "وما أفظع قسوتهن!".

قال الدكتور زيونمان: "أنا أميل أكثر إلى اعتبارهن غير مدركات لما يفعلن". ثم أضاف: "بالمناسبة، كم تقدّر عمر هذه السيدة؟ لديها ابنة بالغة، إذن لا بد أن يكون عمرها اثنين وأربعين عامًا على الأقل".

قال بيتر هازه: "أعتقد أنها أكبر سنًا من ذلك، لكنها مهندمة جدًا وتعرف كيف ترتدي ملابسها ببراعة".

قال الدكتور زيونمان: "الطبع، بالطبع، عدم الانشغال بالعمل أو الهموم هو ما يحافظ على الشباب".

شغلت البارونة تروشكوفيتس أيضًا فكر المستشار التجاري فينكلر؛ فبحث عن فرصة ليطرح على الدكتور بيرنبورجر بعض الأسئلة عنها.

قال له: "إن لديها سحرًا وأناقةً ورشاقة، لكنها تملك أيضًا قدرًا خطيرًا من الحدة في الطباع".

فأجابه الدكتور بيرنبورجر بابتسامة هادئة: "ولهذا أنا هنا، لأبقي الأمر تحت السيطرة".

تابع المستشار قائلًا: "لقد لاحظت أنها تتجنب النظر إلى ديروجا، مع أنها عادةً تتابع كل ما يدور بانتباه شديد. إنها

تختار دائمًا مقعدًا يجعلها غير قادرة على رؤية وجهه. هل كانت بينهما أي علاقة في الماضي؟".

فقال الدكتور بيرنبورجر: "إنها لم تعرفه قط، لكنها كانت تكرهه منذ البداية".

فعقّب فينكلر متعجبًا: "إذن هو تحيّز أعمى؟".

قال الدكتور بيرنبورجر: "حسنًا، لكن هذا لا يجعل الأمور أفضل".

ضحك المستشار التجاري وقال: "وكيف يتصرف زوجها حيال ذلك؟".

أجابه الدكتور بيرنبورجر: "أوه، إنه يمد لها ذراعه ويسير إلى جانبها. وعلى أي حال، هو رجل نبيل حقًا. حتى غباؤه فيه شيء يجعلك تحترمه دون وعي".

قال المستشار ساخرًا: "غباء كهذا مع امرأة كهذه! حسنًا، أهنئه!".

ابتسم المحامي وأضاف: "ربما تخطئ في حكمك. لا أعلم إن كانت تحترمه أو يتعلق بما تمتلكه من مبادئ أصلًا، ربما هي مجرد مدللة باردة المشاعر".

ارتجف المستشار، وقال: "هذا النوع لا يناسبني أبدًا، أظن أنني أفضّل أن أخدع على أن أعيش مع واحدة كهذه".

الفصل الخامس

افتتح الرئيس الجلسة قائلًا إن استجوابات الشهود القادمة ستتعلق بالفترة الأخيرة من حياة السيدة الراحلة سويتير، معربًا عن أمله في أن تسلط هذه الشهادات مزيدًا من الضوء على الأحداث التي لم تُكشف بالكامل بعد. وأضاف أنه حتى الآن كان يُفترض أن المتهم لم يكن على علم بمضمون الوصية، وأن الشخص الوحيد الذي كان على دراية بذلك هو الصديقة المقربة للمتوفاة، الآنسة كونيجونده شفيرتفجر. وليس من المستبعد أن تؤدي شهادتها، إذا تخلّت عن التحفظ الذي أبدته حتى الآن، إلى تغيير مجرى الأمور على نحوٍ كبير.

وقد لاحظ الجميع أن دخول الآنسة شفيرتفجر إلى القاعة كلّفها مجهودًا نفسيًا كبيرًا لتجاوز ترددها. كانت ترتدي ثوبًا بسيطًا لا يواكب الموضة، ومظهرها في مجمله لم يكن لافتًا للانتباه، غير أن من يُمعن النظر إليها كان يلمح فيها خصوصية وجاذبية خفية. وكانت تلك السمات تتجلى بوضوح في عينيها الرماديتين الكبيرتين المفتوحتين أكثر مما ينبغي، وفي أنفها القصير، وفمها الصغير الذي يبقى مفتوحًا قليلًا على الدوام، وفي ملامح وجهها المتحركة باستمرار، مما أضفى حيوية على وجهٍ غير منتظم الملامح في الأصل.

لعلها كانت تشعر في أعماقها بعجزٍ طفوليٍّ عن التظاهر والتكلّف، وبميلٍ غريزيٍّ إلى قول ما يخطر ببالها دون تفكير،

لذا كانت تميل بين الغرباء إلى الاتّصاف بالحذر والصمت. وقد منحها هذا – مقترنًا بخجلها من الظهور أمام الناس – ملامحَ كائنٍ صغير في قفص، اعتاد أن يُستهزأ به فيحاول الدفاع عن نفسه.

وبعد أن جعلها الدكتور زيونمان تؤدي اليمين، طلب منها أن تتحدث دون تحفظ كل ما قد يساعد في توضيح الحقيقة. وأضاف قائلًا: "هناك أناس يرون أنفسهم محبين للحق، ويسمحون لأنفسهم تحت ظروف معينة، بل وقد يعدّون ذلك فضيلة أن يصمتوا أو حتى أن يكذبوا. هل أنتِ من هؤلاء؟".

ترددت لحظة، ثم رفعت عينيها الرماديتين الكبيرتين نحوه بثبات، وقالت: "نعم، أنا كذلك".

قال الدكتور زيونمان: "لقد كانت المتوفاة تعاني من السرطان منذ ثماني سنوات، أليس هذا ما دفعها قبل أن تكتب وصيتها إلى التفكير في أمورها الأخيرة أو الحديث عنها؟".

أجابت الآنسة شفيرتفجر: "لم تتحدث معي في ذلك قط، ولا أظن أنها تحدثت مع أحد. فالأطباء كانوا يحاولون دائمًا إخفاء حقيقة مرضها عنها، وهي بدورها كانت تتجاوب معهم في ذلك، أولًا لأنها كانت سهلة الإقناع بطبيعتها، وثانيًا لأنها – في هذه الحالة تحديدًا – كانت في حاجةٍ لأن تُخدع. كانت تريد أن تعيش بالأمل وتحلم بالحياة. ثم إنها، بعد كل عملية جراحية، كانت تستعيد إحساسها التام بالعافية وكأنها شُفيت

تمامًا".

فسألها الدكتور زيونمان: "وكيف حدث إذن أنها فكرت في نهاية الأمر في الوصية؟".

فأجابت الآنسة شفيرتفجر: "الأمر واضح، لأنها كانت تقترب فعلًا من نهايتها، وقد شعرت بذلك في قرارة نفسها".

قالت الآنسة شفيرتفجر: "عندما أصابها قبل عام النوبة المروعة التي لم تنهض بعدها أبدًا، شعرت بحزن شديد وعرفت أنها لن تشفى بعد ذلك. لم تبُح عن ذلك، لكنني كنت أشعر كثيرًا بأنها تفكر فيه".

وعندما طُلب منها أن تسرد الواقعة بتفصيل، شرحت: "في أحد الأيام بعد الظهر، أثناء زيارتي لها كالعادة، استقبلتني قائلة إنني أتيت في اللحظة المناسبة. لقد قررت للتو إعداد وصيتها، وكان لا بد لي من مساعدتها في ذلك. على الرغم من تقدمها في العمر، لم تفكر جدّيًا في إعداد وصيتها سابقًا، لكنها الآن، بسبب حالتها الحرجة، اضطرت للقيام بذلك. وأضافت أنه سيكون من العبث أن يحصل أقاربها على مالها، وهم أناس يكاد يكونون غرباء عنها، فضلًا عن أنهم أغنياء بالفعل. أجبتها أن الموت لن يأتيها بعد، وأنني أتصورها في مخيلتي قوية ونشيطة ورشيقة كما كانت سابقًا. لم تجب، لكنني قرأت في عينيها ما كانت تفكر به، وكأن عينيها كانت تبوح بكل شيء، وربما كانت هي تقرأ ما يدور في عينيّ".

فسألها الدكتور زيونمان: "هل كانت متوترة حينئذ؟".

قالت الآنسة شفيرتفجر وهي تكتم بجهد بطولي الدموع التي اندفعت من عينيها عند استرجاع الذكرى: "لا، لم تكن متوترة كثيرًا، فقط في البداية ارتجف صوتها قليلًا. ثم قلت لها إنني لا أحب التعامل مع الوصايا وما شابهها، خصوصًا حين تتعلق بشخص عزيز عليّ مثلها. لكنها كانت محقة؛ فمن يملك أملاكًا عليه أن يضع وصية، وكان ينبغي أن تفعل ذلك منذ زمن بعيد. فسألتها عما تنوي فعله بأموالها إذا لم تتركها لأقاربها. عندها بدا عليها الارتباك الشديد، وأخذت تمهّد لكلامها طويلًا، قائلة إنها ستفاجئني، وربما سأضحك منها أو ألومها، ثم قالت في النهاية إنها ترغب في أن تجعل الدكتور ديروجا وريثها".

قاطعها الدكتور زيونمان: "لحظة من فضلك، صديقتك كانت تتوقع إذن أن هذا القرار سيفاجئك؟ هل كانت قد أعربت من قبل عن نوايا أخرى؟ لو سألَك أحدٌ في السابق عن مقاصد صديقتك، أكنتِ ستقولين إنك لا تعرفين عنها شيئًا، أم أنك لم يكن لكِ رأيٌ في ذلك؟".

فأجابت الآنسة شفيرتفجر: "بل كنت سأقول إن لي رأيًا. كنت دائمًا أعتقد أنها ستنشئ مؤسسة خيرية للأطفال الفقراء، تخليدًا لذكرى طفلتها المتوفية، ولأنها كانت تحب الأطفال حبًا جمًا. وكانت كثيرًا ما تقول إن الأطفال الجائعين التعساء وصمة عار على المجتمع. وكانت تبالغ في ذلك إلى

حدّ أنها إذا سمعت طفلًا يبكي في الشارع، ظنّت فورًا أن أحدًا يسيء معاملته. وكنت أقول لها كثيرًا، لأواسيها: (أتعلمين؟ إنه مجرد طفل عنيد)، لكنها في قرارة نفسها لم تكن تصدقني. كما تحدثنا أيضًا عن مؤسسات يمكن إنشاؤها لصالح الأطفال الفقراء".

فقال الدكتور زيونمان: "ألم تُذكّريها بذلك إذن؟ أوَ لم ترَ هي بنفسها أن من اللازم أن تُبيّن سبب تغيّر نيتها؟".

فأجابت الآنسة شفيرتفجر: "قالت إنها كانت تَشُك دائمًا في أمر المؤسسات الخيرية، إذ كانت تظن أن المال لا يصل في النهاية إلى أولئك الذين أُنشئت المؤسسة من أجلهم".

ثم توقفت الآنسة شفيرتفجر بعد أن قالت ذلك، وبدا عليها التردّد، كأنها غير متأكدة إن كان عليها أن تضيف شيئًا آخر أو تتابع الحديث.

قال الرئيس مشجعًا: "ألم تفكر صديقتك يومًا في أي وسيلة لتجنب هذا الخطر؟".

ثم استعادت الآنسة شفيرتفجر، بعد لحظة تردد قصيرة، ثقتها وقالت:

- "لقد كانت تنوي أن تُورّثني ثروتها، أولًا لتساعدني على أن أعيش حياة أفضل – فصديقتي كانت تتصور حياة معلمة الرسم شاقة جدًا –وثانيًا، لأنها كانت تعلم أنني سأسير على نهجها وأستخدم هذه الأموال في سبيل الخير للأطفال

الفقراء".

فقال الدكتور زيونمان: "آه، فهمت! إذن كان لديها رغبة أن تُورّثك ثروتها. ولكن هذا ليس بالأمر الهين إذا غيّرت رأيها فجأة في مثل هذه القضية. لا بد أنها أوضحت لك سبب ذلك واعتذرت؟".

فاتخذت الآنسة شفيرتفجر تعبيرًا فخورًا ومُدافعًا، وقالت: "لم يكن عليها أن تفعل ذلك على الإطلاق، فقد كنا صديقتين حميمتين. ومع ذلك، كان الأمر يزعجها، وكانت ترغب في أن تشرح لي بتفصيل السبب وراء تصرفها".

قالت الآنسة شفيرتفجر: "قد سمعت ذات مرة أن حالة الدكتور ديروجا ليست على ما يرام، وأن وضعه يزداد سوءًا، ولم تكن تستطيع أن تكفّ عن التفكير في ذلك. فهو والد طفلتها الحبيبة، وكان يحبها، ولم تستطع حتى الآن أن تتخلّص من فكرة أن ما تملكه هي، في الأصل ملك له أيضًا. باختصار، كانت تقول إنها لن تكون مطمئنة في آخر أيامها ما لم تطمئن إلى أنه في مأمن من الحاجة بفضل ثروتها، ولن تكون مرتاحة إلا بعد أن تضمن له ذلك. وبالطبع لم أدعها تُكمل حديثها، بل حاولت أن أواسيها، وأكدت لها أن المال لن يضعني إلا في حيرة، لأنني سأشعر بأن عليّ إنفاقه بطريقة ما، دون أن أعرف كيف، وأنني لا أرغب في أن أغيّر نمط حياتي، لأنني اعتدت عليه وأجد فيه راحتي. إن المال لن يذكرني إلا بفقدانها، ولذلك سأكرهه".

فقال الرئيس متعجبًا: "لكن الغريب في الأمر أن صديقتك لم تُخصّص لكِ على الأقل وصية صغيرة، كما فعلت مع خادمتها".

فقالت الآنسة شفيرتفجر باختصار: "لقد امتنعت عن ذلك بناءً على رغبتي".

قال المدّعي العام، مقاطعًا فجأة: "ألتمس الإذن بالكلام للحظة. فبعدما سمعت رواية الشاهدة، تكوّن لديّ انطباع بأن الحديث الذي سبق إعداد الوصية قد جرى بعد آخر مرض خطير أصاب صديقتها، أي في شهر مارس أو أبريل تقريبًا. لكن الوصية الموجودة أمامنا مؤرخة في التاسع عشر من سبتمبر، أي قبل وفاتها بأسبوعين فقط".

لم تُجب الآنسة شفيرتفجر، بل نظرت إلى المتحدث نظرة طويلة بعينين ملأها العداء، كأنها توجهها إلى شخصٍ يتدخل فيما لا يعنيه، ثم التفتت إلى رئيس الجلسة.

فقال الرئيس بلطف: "هل ترغبين في توضيح الأمر لنا، آنستي؟".

فأجابت الآنسة شفيرتفجر: "لقد كتبت صديقتي الوصية للمرة الأولى في الربيع، ثم أعادت كتابتها في التاسع عشر من سبتمبر".

فسأل الرئيس: "وهل بقيت على حالها دون تغيير؟".

فقالت الآنسة شفيرتفجر: "لقد زادت صديقتي المبلغ الذي

خصصته لأورسولا، خادمتها".

فقال الدكتور زيونمان: "يبدو، على الأرجح، أن الخادمة قد اعتنت بها جيدًا أثناء مرضها الأخير، فأرادت أن تُعبّر عن امتنانها لها بشكل أكبر".

أومأت الآنسة شفيرتفجر برأسها، ونظرت إلى رئيس الجلسة بنبرة ودّية. ثم أضافت: "وبناءً على رغبتي، تم إلغاء الوصية الصغيرة التي كانت قد خصصت لي في النسخة الأولى".

قال المدّعي العام وهو يضحك بطريقة خبيثة: "إذا استمر الأمر هكذا، فقد يُكتب سرًا وصية جديدة كليًا استنادًا إلى النسخة غير المعدّلة".

قال الرئيس: "إذن في بداية الأمر لم يكن لديك اعتراض على الوصية الصغيرة، فما أسباب رفضك لها الآن؟ هل حدث شيء بينك وبين صديقتك؟".

أجابت الآنسة شفيرتفجر بحيوية: "أوه، لا، لا"، مؤكدة ذلك بشدة: "لقد طاوعتها آنذاك فقط حتى لا أزعجها، لكنني قررت منذ البداية أن ألغي الوصية الصغيرة فيما بعد، لأنها لم تناسبني".

ولما لاحظت ابتسامة المدّعي العام الساخرة، رفعت رأسها بثقة، وأحكمت ضغط شفتيها في إيماءة تحمل تحديًا صامتًا.

قالت الآنسة شفيرتفجر: "لا أعلم ذلك، ولكنني لا أظن هذا، لأنها كانت بالتأكيد ستخبرني لو حدث شيء من هذا القبيل،

إذ كان بوسعها عندئذٍ أن تجد مبررًا واضحًا لوصيتها. كانت تعلم منذ وقتٍ طويل أن حالة الدكتور ديروجا ليست على ما يرام؛ فعدد الوسائل التي تصل عبرها مثل هذه الشائعات إلى الناس لا يُحصى".

فسألها الدكتور زيونمان: "هل كانت صديقتك تتحدث معك أحيانًا عن المتهم؟".

فأجابت الآنسة شفيرتفجر: "لا، نادرًا جدًا، كانت تعتقد أنني لا أتعاطف معه ولا أتفهمه".

فتدخّل المدّعي العام، قائلًا: "إذن فمن الممكن تمامًا أن تكون هناك علاقة قائمة بين صديقتك وزوجها السابق دون علمك بذلك".

فرفعت الآنسة شفيرتفجر رأسها بازدراء، وارتسمت على شفتها العليا القصيرة ابتسامة ساخرة خفيفة.

فقال رئيس الجلسة متدخّلًا بنبرة مهدّئة: "لسنا نعني بالطبع أن نقول أي شيء يُسيء إلى صديقتكِ، آنسة شفيرتفجر. ومع ذلك، قد تكون أخفت عنكِ أمرًا ما لتتجنب سماع رأيٍ قاسٍ أو ملامة منك بشأنه".

فأجابت الآنسة شفيرتفجر: "ربما يبدو ذلك ممكنًا من حيث الافتراض، لكنه غير مرجّح في الواقع، ولا أرى ما يدعو إلى مثل هذا الظن. لقد أوصت له بثروتها ببساطة لأنه كان والد طفلتها، ولأنها كانت تؤمن بأنه أحبّها حقًا. أذكر أنها قالت ذات

مرة إن الزواج، في جوهره، يستحيل أن يُحلّ رباطه إذا وُلّد بوجود أطفال، وحين خالفها أحد الرأي، أجابت: (ربما لا يصحّ هذا على الجميع، لكنه صحيح في حالتي). كانت صديقتي، بطبعها الحنون وميلها إلى الأُنس والتعلّق بالآخرين، لا تطيق الوحدة، ولعلها كوّنت في أعماقها – من غير وعيٍ منها – هذه الفكرة لتبقى على الأقل مرتبطةً به وجدانيًا".

فقال الدكتور زيونمان بلطف: "إذا لم أكن قد أرهقتك بأسئلتي، فهل تتكرمين بتوضيح كيف اختلفتِ أنتِ والسيدة سويتر، رغم صداقتكما الوثيقة، في نظرتكما إلى المتهم إلى هذا الحد؟".

ابتسمت الآنسة شفيرتفجر ابتسامة خفيفة، وقالت: "نادرًا ما يستطيع شخص ثالث أن يفهم سبب حبّ إنسان لآخر. بالإضافة إلى ذلك، يمكن للمرء أحيانًا أن يغفر للآخر الظلم الذي ألحقه به، لكن الأصدقاء يكونون أقل ميلًا لذلك".

فقال الرئيس: "إذن، أنتِ ترين أن المتهم كان سبب الخلاف الزوجي؟".

أجابت الآنسة شفيرتفجر بحذر: "لقد عذّبها بطباعه المتقلبة وغير المعتدلة".

قال الرئيس: "ومع ذلك، وبما أن السيدة سويتر أصرت على الطلاق بنفسها، يبدو أنها استمرت في التعلق بزوجها السابق. هل يمكنكِ، بصفتك صديقتها، أن تساعدينا على فهم هذا

التناقض؟".

فكرت الآنسة شفيرتفجر لحظة، ثم قالت: "التناقضات موجودة في كل إنسان بمفرده، وتزداد وضوحًا أكثر في العلاقات بين شخصين".

قالت الآنسة شفيرتفجر: "أثناء زواج صديقتي، أهدت زوجها كتابًا بمناسبة عيد ميلاده، وعندما أرادت أن تضيف له إهداءً داخله، كتبت على الصفحة الأولى: (ديروجا، أنت جميل وكذلك غريب. لا يمكن العيش بدونك، ولا يمكن العيش معك)".

إنه نقش شعري قصير كتبه ليسينغ لشخصية تُدعى كلوتيلد.

ابتسم بعض الحضور، لكن الدكتور زيونمان ظل جادًا تمامًا، ثم قال: "لدي سؤال آخر أود أن أطرحه عليكِ. يُقال إن السيدة سويتر كانت خائفة جدًا، وأن خوفها من طباع زوجها الحادة كان أحد الأسباب التي دفعتها للطلاق. هل تعتقدين أنها استمرت بالشعور بالخوف منه بعد الطلاق؟".

قالت الآنسة شفيرتفجر بثقة: "أوه، لا، لم تكن تخاف من ديروجا. قبل بضع سنوات، قرأت في الصحيفة أن رجلًا قد هاجم زوجته السابقة وقتلها طعنًا، وعندها علّقت قائلة إن مثل هذا يحدث كثيرًا، وأن النساء اللواتي يرغبن في الانفصال عن أزواجهن أو قد انفصلن بالفعل، يجب حمايتهن

بطريقة ما. قلت لها ألا تقرأ هذه الصحف الساذجة، فهي مليئة بالشائعات والأكاذيب. فضحكت وقالت: (هل تقصدين أنني أخاف؟)، ثم أوضحت لي أن ديروجا، رغم أنه كان شديد العنف أحيانًا في الخلافات الصغيرة التي لا بد من وجودها في الحياة المشتركة، ولم يكن خاليًا من الرغبة في الانتقام، إلا أن ذلك لم يدم طويلًا، وكانت متأكدة أنه لا يحمل أي ضغينة تجاهها. لذلك أعلم يقينًا أنها لم تكن تخاف منه على الإطلاق. وعلى وجه العموم، كان الخوف يرافقها، وكانت تفضل العيش في الطابق الثالث لأنه الأكثر أمانًا من اللصوص حسب اعتقادها. كما كانت تخاف كثيرًا من الموت، رغم أنها من ناحية أخرى كانت تعتبره لقاءً متجددًا مع طفلتها".

قال الرئيس: "ربما لم تكن تخشى الموت لذاته، بل عملية الاحتضار، التي كانت تتصورها مؤلمة وعسيرة".

وافقت الآنسة شفيرتفجر قائلة: "نعم، كانت لديها تخوفات رهيبة من الألم، ومع ذلك كان عليها أن تتحمّل عذابًا مؤلمًا".

فسأل المدعي العام ما إذا كانت المريضة قد أصيبت في أي وقت بتغيب في الوعي نتيجة الألم.

فأجابت الآنسة شفيرتفجر بابتسامة خفيفة، موجّهة نظراتها نحو الدكتور زيونمان: "أوه، لا. على العكس من ذلك، كانت تقول أحيانًا إنها ظلت تتمتع بوعيها الكامل حتى في أشد لحظات الألم. مرةً سألتني إن كنت أحبها بما يكفي لإعطائها سمًا يخلّصها من معاناتها. فارتعبت وقلت لها إنني أحبها أكثر

من أن أجرؤ على التفكير في أمر كهذا، فضلًا عن أن أفعله. ثم ذكّرتها بأنها ستعود لتستمتع بالحياة في أقرب وقت حين تشعر بالتحسن، وربما تُشفى تمامًا، وأنها – على حد علمي بها – ستنسى قريبًا كل هذا الألم. عندها ضحكت وراحت تواسيني، وقالت إنني على حق تمامًا، وإنها تأمل أن تفتخر يومًا بما تحمّلته بشجاعة. على أي حال، لم يكن هناك لحظة واحدة فقدت فيها وعيها أو لم تكن تعرف بالضبط ما تفعله".

قال الرئيس: "تبقّى لديّ الآن سؤال واحد، ورغم أن إجابته – بالنفي – قد تبيّنت بالفعل في أقوالك السابقة، إلا أنني مضطر لطرحه صراحة: هل أخبرت السيدة سويتر زوجها السابق بمضمون وصيتها؟".

أجابت الآنسة شفيرتفجر: "لا أعلم ذلك، لكني لا أظنها فعلت. فما الداعي لذلك من الأساس؟".

فقال الرئيس: "دعينا نترك هذا جانبًا الآن. لنفترض أنها أرادت إخباره، لكان عليها أن تكتب له رسالة. وبما أنها في ذلك الوقت لم تكن تنهض من فراشها، فضلًا عن مغادرتها المنزل، فلا بد أنها كانت ستكلف أحدًا بإرسال الرسالة. إذن، لم تطلب منك القيام بذلك؟".

أجابت الآنسة شفيرتفجر: "لا، وهل سبق أن عهدت إليك بإرسال رسائل من قبل؟".

قالت الآنسة شفيرتفجر: "ربما، لا أذكر تحديدًا، لكن المؤكد

أن أيًا منها لم يكن موجّهًا إلى الدكتور ديروجا".

قال الرئيس: "ربما كان الخطاب موجّهًا بعنوان مختلف، بقصد تضليلك؟".

فأجابت الآنسة شفيرتفجر، وظهر عليها بعض الاستغراب: "أوه، لا، فذلك كان سيتطلّب اتفاقًا مسبقًا بينهما. ولم تكن لتسلك مثل هذه الوسائل الخفية، أؤكد لك ذلك تمامًا".

فقال الرئيس بعد فترة من الصمت: "أنا أصدقكِ يا آنسة شفيرتفجر، وأعتمد على إخلاصك في قول الحقيقة. فأنتِ معلمة، وقد أوكلت إليكِ مهمة تربية النشء، وتحظين بمحبة واحترام تلميذاتك وأولياء أمورهن، ولن تفقدي هذه الثقة من أجل مجرد وهم. إذن، أنتِ لم تُبلّغي المتهم – بناءً على طلب من صديقتك – بمضمون وصيتها، ولم تُرسلي له رسالةً نيابةً عنها يمكن أن تحتوي على تلك المعلومات؟".

فقالت الآنسة شفيرتفجر: "كلا".

- "إذن، أنتِ على يقين بأن المتهم لم يكن على علم بالوصية؟".

فأجابت بثقة: "نعم، أنا على يقين تام بذلك".

فكر الدكتور زيونمان قليلًا، ثم قال إنه يريد إنهاء التحقيق؛ إذ بدا الأمر مرهقًا لها حقًا. ولحسن الحظ، بدا عليها الشحوب الشديد، حتى أن عينيها الكبيرتين بدتا شبه سوداوين.

قالت الآنسة شفيرتفجر: "أوه نعم، أنا مرهقة جدًا، هل

يمكنني المغادرة؟".

أوضح لها الدكتور زيونمان أنه رغم حلول وقت استراحة الغداء الآن وسماحه لها بالمغادرة مثل الآخرين، إلا أنه سيحتاج إلى استدعائها خلال فترة التحقيق، فردت منحنية قليلًا برأسها مودعة المكان.

قال المستشار القضائي فاين للسيد ديروجا: "إنها عانس شجاعة، رغم أنها لا تحمل آراء أفضل عنك".

أجابه الأخير مختصرًا: "بريئة، وغبية قليلًا".

كان جالسًا وقد أسند رأسه مخفيًا خلف يده، ثم اعتدل فجأة كما لو كان غارقًا في متاهة موسيقية مظلمة تنقطع فجأة. كان بصره الحاد يتجول عبر القاعة.

توقفت نظراته المترقبة صدفة عند البارونة تروشكوفيتس، التي كانت على وشك النهوض، أشارت بعينيها للمحامي الجالس على بعد عدة مقاعد منها، فقال: "شخص بغيض؛ يتناسب تمامًا مع هذه القضية القذرة التي يدافع عنها".

أجاب المستشار القضائي قائلًا: "حسنًا، كما ترى، من الطبيعي أن تنزعج البارونة إذا حُرمت من ثروة كانت تأملها، ومن المنطقي أكثر أن تتوقع منك أشياء سيئة، لأنها لا تعرفك".

قال ديروجا بحدة: "هل تعتبر هذا عذرًا؟ لأنها نفسها جشعة، لا يمكنها أن تتصور دوافع أخرى للآخرين؛ هذه هي خبرتها

في التعامل مع الناس. مثير للاشمئزاز!".

وفي الوقت نفسه، وصلت البارونة إلى السلالم الخارجية للمبنى القضائي، وكانت تتفحص المكان بتلهف من خلال نظاراتها الصغيرة أحادية العدسة. قالت للدكتور بيرنبورجر: "أنا منزعجة جدًا من الطريقة التي يُعامل بها هذه الآنسة. ربما تكون فتاة محترمة، ولكن من الواضح أنها لا تقول الحقيقة، ولا أفهم كيف يُسمح بذلك".

قال الدكتور بيرنبورجر: "نعم، هذا أمر بالغ الحساسية، صاحبة السعادة"، ثم أضاف: "فالتعذيب أُلغي منذ زمن بعيد".

قالت البارونة: "وكان ذلك تسرعًا شديدًا في رأيي. فالقدماء كانوا أكثر حكمة منا في كثير من الأمور، وكانوا يدركون جيدًا الدافع وراء اللجوء إليه. ومع ذلك، لا بد أن تكون لدينا وسائل لاستخلاص الحقيقة من الناس. لو كنت أنا الرئيس، لتصرّفت على نحوٍ مختلف تمامًا. لكنك تبدو شارد الذهن، سيدي الطبيب".

أجاب الدكتور بيرنبورجر بهدوء: "على العكس، أنا غارق في التفكير محاولًا إيجاد حلٍّ لهذه المعضلة".

تابعت البارونة قائلة: "هل لاحظت أنها اعترفت فعليًا بما كانت تحاول إنكاره؟ أعني أن ابنة عمّي كانت تخشى زوجها السابق. والمدهش حقًا أن الرجال يميلون في بعض الأحيان إلى قتل زوجاتهم السابقات! لا بد من التفكير مليًا قبل الإقدام

على خطوة كهذه".

فقال البارون الذي كان يقف إلى جوارها بابتسامة ودودة: "آمل يا صغيرتي ألا يكون هذا هو السبب الوحيد الذي يصرفك عن فكرة الطلاق".

نظرت إليه البارونة مبتسمةً ابتسامةً خفيفةً ممزوجة بسخرية، وقالت:

- "كلا، يا عزيزي، أنتَ فارس نبيل أكثر من أن تكون سببًا لإثارة مخاوفي".

وفي الوقت نفسه، أشارت إلى السائق المنتظر ليقرب السيارة إلى مكانها، ولوّحت لمحاميها بتحية عابرة مودعةً إياه.

أما المدعي العام، فقد خرج من القاعة يرافق الدكتور زيونمان إلى مكتبه، وصوته حاد ولهجة كلامه تفيض بالعتاب: "الأمر واضح كالشمس!"، وكان يقصد الآنسة شفيرتفجر، مؤكّدًا أنها بلا شك من أرسلت الرسالة. وأضاف بغضب: "هذه المرأة، على الرغم من صدقها المعتاد، كذبت هذه المرة بلا شك، ويجب اتخاذ إجراء ضدها!".

ثم ارتفع صوته أكثر، وقد بدأ الغضب يتملكه: "أم أننا سنشهد مرة أخرى كيف تُنقذ عاطفة النساء شخصًا بائسًا من العقاب المستحق؟! هذا الرجل يحظى بإعجاب النساء، وفي هذا العصر، صار مصير الرجل مرهونًا بإعجابهن، وكأن حياته

بأكملها تُراقب في صالونات المجتمع الراقي. أليس من المهين أن يُصاغ القانون نفسه وفق أهواء النساء؟!".

وأثناء حديثه، كان يضغط يديه بعصبية، تمرّر أصابعه المتوترة بين خصلات شعره الطويل الرفيع، التي انتصبت مضطربة في كل اتجاه، وكأن الغضب يبعثر كل شيء حوله.

قال الدكتور زيونمان، بتعبير استنكاري: "اهدأ يا زميلي، فافتراضاتك حول إعجاب النساء لا تنطبق على الآنسة شفيرتفجر؛ وربما تكن له نفورًا صريحًا".

وصاح المدعي العام بنبرة يأسٍ تكاد تكشف عن إحباطه: "مجرد كلمات! كلمات فقط! لكنها في الواقع تميل إليه، وربما تكون هي نفسها من كتبت إليه. أليس هذا واضحًا كالشمس؟". ثم دار بنظره بسرعة نحو العضوين المساعدين، باحثًا عن تأكيد.

أكد الاثنان أن سلوك الآنسة شفيرتفجر لفت انتباههما، لكن يمكن تفسيره بطرق أخرى، مثل خجل النساء المميز من الظهور أمام العامة.

تذمر المدعي العام بغضبٍ متصاعد: "يا إلهي، إلى أين يمكن أن يصل هذا، إذا كان مجرد نموذج قديم بلا قيمة قادر على تضليل أعين محققين قانونيين مخضرمين؟!".

تقدم زيونمان خطوة إلى الأمام، ونظر إلى الساعة ببطء، ثم قال بهدوء مهيب، كمن يحاول إعادة التوازن: "يا عزيزي،

علينا جميعًا، مثلك ومثلي، أن نأخذ قسطًا من الغداء وراحة منتصف النهار قبل أن نواصل هذا النقاش المحموم".

قال الدكتور زيونمان بنبرة حازمة، تحمل في طياتها النصح: "خذ قسطًا من الراحة، ربع ساعة من النوم فقط! وأرجو منك فيما هو قادم أن تكتفي بطرح الأسئلة التي تراها مناسبة".

فأجابه المدّعي العام بمرارةٍ حارقة: "وما جدوى الأسئلة، إذا كان المرء يُطعَم بالأكاذيب؟ لقد علمت الآن ما أردت أن أعرفه، وهو أن الأمر على النحو الذي قلته منذ البداية: "لم يكن قتلًا بدافعٍ طارئ، بل جريمة قتلٍ مدبّرة عن قصدٍ وتفكيرٍ مسبق. فعندما علم بأنها أوصت له بثروتها، قرر أن يقتلها قبل أن تغيّر رأيها، وربما تلغي الوصية متأثرةً بأقاربها".

قال الدكتور زيونمان: "هل أعيد عليك تلميحاتك، وأصرّح بشكوكي في أنك ترى الأمور من خلال عدسة وضعتها البارونة تروشكوفيتس؟ فلو قارنا سحرها بسحر الآنسة شفيرتفجر، لبدت هذه الشكوك شبه مبرّرة".

ابتسم المدّعي العام، وقد أعجبه المزاح، وقال بنبرة خافتة:

- "على أي حال، كل محاكمة تتدخل فيها النساء تنتهي بالمرثرة، لكن ليشهد الجميع أنني منذ البداية كنت على يقين بأنها جريمة قتل".

قال زيونمان ضاحكًا: "نعم، وأشهد طوعًا أن صديقي المدّعي العام مولع دومًا بقناعاته الأولى، كما تحبّ الأم طفلها

الأول... حتى يأتي الثاني فيأخذ مكانه شيئًا فشيئًا".

الفصل السادس

بدأ الرئيس قائلًا: "أورسولا زوجر، في الثامنة والثلاثين من عمرها، خدمت السيدة الراحلة سويتر مدة تسعة عشر عامًا".

نظرت أورسولا زوجر إلى الحضور بابتسامة واثقة مشوبة بلمحة من التفاخر، كأن ملامحها تلمّح إلى أنكم تتلهفون إلى معرفة الحقائق التي لا يعلمها سواي؛ هيا، التهموا فريستكم، فستجدون فيها ما يرضي فضولكم.

قال الرئيس: "لا بد أنكِ كنتِ على درايةٍ تامةٍ بأحوال السيدة سويتر بعد هذه العِشرة الطويلة".

أجابت أورسولا بنبرة مفعمة بالثقة والاستعداد: "بالتأكيد، فكل ما يخص سيدتي أعرفه من البداية حتى النهاية، ولا يوجد من يعرف عنها أكثر مني".

فسألها الرئيس: "هل كانت السيدة الراحلة تتحدث إليكِ أحيانًا عن ماضيها؛ أعني فترة زواجها من المتهم؟".

أطلقت أورسولا صفيرًا خفيفًا محمّلًا بالسخرية، كأنما تلمّح إلى أن هذا وقع مرات لا تُعدّ: "هاه! خصوصًا منذ أن أصبحت مريضة، تلك المسكينة. عندما كنت أجلس معها في المساء، كانت دائمًا تقول: (هل تتذكرين هذا وذاك يا أورشيل؟ هل تتذكرين قصة المتسوّل؟). في الأيام الأولى، حين لم يكن لدى السيد الطبيب أيّ مرضى بعد، كان يأتي جميع متسوّلي المدينة إلى الباب بلا استثناء. وحدث مرة أن خرج الطبيب

بنفسه وقال: (ها، أنت أيها الصديق الطيب، تريد أن أعطيك شيئًا؟ حسنًا، أخبرني كم ربحت اليوم؟ قل الصدق: على الأقل مارك واحد، أليس كذلك؟ تمشي بعكاز، ولديك عين واحدة حسنًا، لنقل مارك واحد. أما أنا، فلم أكسب شيئًا! طوال أربعة أسابيع لم أدخل عشرة ماركات! لكن إذا رغبت بسيجارة، وأردت أن تؤنسني قليلًا...)، ثم لفّ له سيجارة بيده، وكان المتسوّل يبدو وكأنه خرج للتو من صندوق القمامة، لكنه في الحقيقة كان رجلًا ماكرًا ظريفًا. وبعدها صار يأتي كل بضعة أيام، وما إن أفتح له الباب حتى قال لم يكن يريد شيئًا، فقط أراد أن يؤنس السيد الطبيب قليلًا".

قال الرئيس: "إذن، كنت تقدّمين للسيدة المريضة ذكريات طريفة لتخفيف الألم عنها".

أجابت أورسولا: "بالطبع، فقد كان الألم والحزن كافيين عليها بالفعل".

تابع الرئيس: "إذا كانت السيدة سويتر لا تحمل أي ضغينة تجاه السيد الطبيب، وتتذكره بمحبة، فهل كانا يتبادلان أحيانًا الرسائل؟".

ابتسمت أورسولا بانتصار، وقالت: "كنت أعلم أنكم ستعودون لهذا الموضوع، لكن لنكن واضحين، هذا لم يحدث أبدًا. لو كانت لتتبادل الرسائل مع زوجها السابق؟ لكان من الأفضل لهما البقاء معًا بدل ذلك".

أوضح الرئيس: "الأمر يختلف. قد يحدث أن يتفق المرء مع شخص عن بُعد بشكل ممتاز، بينما يعيشان تحت سقف واحد وتظهر بينهما الخلافات باستمرار".

قالت أورسولا بحزم: "كانت سيدتي امرأة رقيقة جدًا، لم يكن هناك أي حديث عن المشاحنات أو الهمسات السرية بعد انفصالهما. وحينما قلت سابقًا إن السيد الطبيب في الأساس لم يكن رجلًا سيئًا، وأنه لأمر مؤسف أن ينحرف الآن عن السبيل الصحيح، ومؤسف لنا أيضًا لأنه طالما كان حاضرًا، كانت الأحداث تتوالى بلا توقف، كانت سيدتي تهز رأسها قائلة: (حتى لو تصالحنا اليوم، فسوف نتشاجر مجددًا خلال العام). وكانت محقة، فمثل هذا الرجل لا يترك الأمور تهدأ بسهولة".

فسأل الرئيس: "إذن أنتِ تعتقدين أن السيدة سويتر لم ترسل رسائل إلى المتهم، ولم تتلقَ منه أي مراسلات أيضًا؟".

أجابت أورسولا بعيون لامعة: "أؤكد لك بكل يقين! لا حاجة للحديث عن الاعتقاد هنا، يا سيادة الرئيس، فأنا أعلم ذلك. ولهذا لا أظن نفسي مخطئة، والله أعلم بذلك. فهذا يعني أولًا أنني أعرف خط السيد الطبيب، وثانيًا أنه بما أنها مرضت قبل عام، لم يصلها أي خطاب إلا وقد مر عبر يدي، ولم تكتب هي شيئًا بعد ذلك سوى ما كانت تمليه عليّ أو على الآنسة شفيرتفجر، ومعظم الأحيان على الآنسة شفيرتفجر. كما أننا كنا نتولى إرسال رسائلها عبر مكتب البريد".

قال الدكتور زيونمان: "حسنًا، يا صغيرتي، سيدتك لم تكن طريحة الفراش! إذا أرادت حقًا، كان بإمكانها النهوض وإحضار أدوات الكتابة والكتابة دون علمك، كما كان بإمكانها، على سبيل المثال، أن تطلب من الدكتور كيرشنر، طبيبها، المساعدة في إرسال أي رسالة".

قالت أورسولا بنبرة متسامحة: "نعم، يبدو لك ذلك يا سيادة الرئيس؛ لأنك لا تعرف الأمور كما كانت حقًا. لكن أن تكون سيدتي قد كتبت رسائل وأرسلتها من وراء ظهري، فهذا مستحيل. لو كنت مطّلعًا على حقيقة الحال، لما راودك مثل هذا الظن. لا، وحتى لو لم تكن طريحة الفراش – وهي لم تكن كذلك – فلم تكن لتلجأ إلى مثل هذه التصرفات معي بلا مبرّر؛ فقد كان يكفيها أن تقول ببساطة: (أورسولا، لا ينبغي لأحد أن يعرف بأمر هذه الرسالة، ولا حتى أنت). أما أن تعهد برسالة إلى الدكتور كيرشنر، فذلك حقًا مما يُضحك إذا عرف المرء الملابسات! وكيف كانت لتثق بأنه لن يحتفظ بها في جيبه نصف عام، أو يُسقطها على الدرج؟ ولماذا كانت لتبوح بأسرارها لغرباء، ولديها الآنسة شفيرتفجر وأنا ونحن من تثق بهما تمام الثقة؟ لذا، تخلّ عن فكرة الرسائل السرية، يا سيادة الرئيس! فما جرى في منزلنا أعرفه جيدًا، ولم يقع فيه شيء إلا وكنت على علمٍ به".

قال الرئيس، الذي لم يشأ بعد أن يسلّم الأمر: "لا بد أنكِ كنتِ تخرجين أحيانًا لقضاء بعض الحاجات، يا عزيزتي

الآنسة، فهل كنتِ تعلمين أيضًا ما كان يحدث في المنزل أثناء غيابك؟".

أجابته أورسولا بثبات لا يتزعزع: "إن كنتَ تظن يا سيادة الرئيس أنك ستوقعني بهذه الحيلة، كما يُقال، فاسمح لي أن أقول إنك واهم. ففي الأوقات التي كنت أغيب فيها، كان من المستحيل أن يحدث في المنزل أي شيء دون أن أعلمه! كنت أغلق باب الشقة خلفي كلما خرجت. كانت سيدتي قد أوصت بذلك بنفسها، قائلة: (أورسولا، بما أنني لا ينبغي أن أنهض، وفق ما يقوله السيد الطبيب، فالأفضل أن تغلقي الباب جيدًا لتتأكدي أنه لا يستطيع أحد الدخول. وإذا جاء أحد، فليقرع الباب ويعود. لن يحدث أي حريق أثناء غيابك). أما أنا، فكنت مطمئنة تمامًا. فكيف يمكن أن يحدث حريق، بينما كنت أخرج عادةً في الصباح أو بعد الظهر، وفي المنزل لم يكن هناك أي شعلة؟ وكانت الآنسة شفيرتفجر تمتلك مفتاح الشقة لتدخل متى شاءت. إذن، يا سيادة الرئيس، يجب أن تدرك أن أي أمر غير معتاد لم يكن ممكنًا خلال غيابي".

ارتفع صوت المدعي العام فجأة، صارخًا:"خلال غيابك قُتلت سيدتك!".

صمتت أورسولا للحظة، إذ فاجأها ذكر هذا الاتهام، غير أن ثقتها بحجتها لم تتزعزع. ثم جمعت قواها وقالت أخيرًا: "لم نصل إلى هذا الحد بعد. أنا لا أؤمن أساسًا بحدوث جريمة قتل؛ لأنه من المستحيل أن يحدث شيء في الشقة أثناء

غيابي".

قاطع الرئيس قائلًا: "إلا إذا كانت السيدة سويتر هي من رغبت من تلقاء نفسها في تحقيق أمر معين".

فابتسمت أورسولا وهي تعود إلى نبرة يقينها السابقة، مؤكدة موقفها بثقة وتقول: "لكن يا سيادة الرئيس، لا يمكن أن تصدق أن سيدة مريضة على فراش الموت كانت ستنهض وتنزل ثلاث طوابق إلى الشارع فقط لترسل برسالة إلى طبيبنا العزيز، في حين كان بإمكاني أنا أن أوصلها له بكل سرور وفي أي وقت!".

تنهد الدكتور زيونمان، ثم قال: "ولم تسافري قط، منذ أن مرضت السيدة سويتر العام الماضي واضطرت إلى ملازمة الفراش؟".

أجابت أورسولا: "أبدًا، مع أنها كثيرًا ما عرضت عليّ أن أسافر لزيارة أمي، وكنت أعلم أن الآنسة شفيرتفجر كانت سترحب بالإقامة معها أثناء غيابي، ولم تكن لتتضايق من ذلك، كما كان بإمكانها أيضًا أن تستعين بممرضة إن شاءت. لكن تلك الممرضة لم تكن لتعرف أحوالها كما أعرفها أنا، ورغم حزني على فراق أمي طوال تلك المدة، قلت لنفسي: (لقد بقيت هذه السيدة إلى جانبي تسعة عشرعامًا دون أن تتركني، فكيف أتركها أنا الآن؟)، ثم إنني ما كنت لأجد الراحة حتى في بيتي، وأظن أنني لن أسامح نفسي لو تركت تلك المسكينة المريضة وحدها".

ارتجف صوت أورسولا قليلًا، ومسحت وجهها بمنديل.

انتظر الرئيس قليلًا، ثم طلب منها أن تصف يوم وفاة السيدة سويتر، من البداية إلى النهاية، بقدر ما تتذكر.

بدأت أورسولا تقول: "في ذلك اليوم بالتحديد، لم أشك في أي شيء سيئ على الإطلاق. فقد كانت الليلة سيئة للغاية، وكنت أسمعها تتأوه، فركضت ربما خمس مرات وسألت إن كان عليّ أن أحضر الطبيب، لكنها قالت: (لا، فهو لن يفعل شيئًا لي)، وأمرتني بالابتعاد أيضًا، لأن وجودي كان يزيد الأمر صعوبة عليها. فقد قالت إنه إذا كنت بجانبها، كان عليها أن تتحكم بنفسها".

قالت أورسولا: "وفي الصباح، غلبني النوم حقًا، فقد سمعت الساعة تدق الرابعة، لكن الخامسة لم أعد أسمعها، وفي السابعة أيقظني منظف المدخنة الذي طرق الباب. كنت غاضبة لأن الباب دُقّ بصوت عالٍ جدًا، فركضت نحوه وقلت للرجل إن هذا ليس من الأدب، وأنه كان يجب أن يُعلن عن قدومه قبل يوم، والآن لن أستقبله على الإطلاق؛ فأنا في الحقيقة لا أحب هذا الرجل الوقح. اعتقدت أن سيدتي ربما كانت قد غلبها النوم قبل قليل واستيقظت الآن مرة أخرى، وفجأة دقّ الباب وسألتني من بالخارج. فأخبرتها أنه منظف المدخنة، وأنني قد وبختته وأعدته من حيث أتى، فابتسمت وقالت لا بأس، وستغفو مرة أخرى، فهي تشعر الآن بالراحة. رغم أن مظهرها يوحي وكأنها مصابة بالحمّى، بقيت هادئة

تمامًا، وعندما دخلت غرفة نومها مرة أخرى حوالي الساعة العاشرة، وجدتها مستلقية ساكنة، وشعرها يتدلى نصفه على وجهها. خرجت بهدوء مستعجلة قدر استطاعتي، وعندما عدت أطللت مرة أخرى بحذر، فإذا بها مستلقية وعيونها مفتوحة، تبتسم بسلام وتقول: (هل أنتِ هنا يا أورسلشين؟ أشعر براحة تامة، لم أعد أشعر بأي ألم). كانت تبدو فعلًا بحالة جيدة، رغم وجود خطوط داكنة كالشرائط تحت عينيها. وعندما تأملتها، بدا لي مظهرها غريبًا بعض الشيء، فقلت في نفسي: (سيدتي تبدو غامضة). لكن لم يخطر ببالي أبدًا أن يكون سر هذا الغموض هو الموت، وإلا لما نطقت بذلك".

فسألها الرئيس: "وماذا ردّت عليكِ؟".

ابتسمت بسعادة أكبر مما كانت عليه من قبل، وقالت:

- "(السر هو أن مينغو جاءت لزيارتي). كانت مينغو هي طفتلها التي فقدتها، وكنا نناديها بهذا الاسم منذ ولادتها، لأننا ظننا أنها ستكون ولدًا".

قال الرئيس متأملًا: "إذن فقد رأتها في منامها؟ وهل حدثتك عن ذلك؟".

أجابت أورسولا بنبرة حنين: "بالطبع، كلما حلمت بسيدتنا مينغو، كانت تتحدث عنها طوال اليوم. قالت إنها رأتها في عربة مكشوفة يجرّها حصانان أسودان جميلان، وكانت

تجلس في المقعد الخلفي كما تجلس عادة بين والديها. جلست مستقيمة بفخر، ولوّحت لها بيدها الصغيرة، داعية إياها أن تأتي وتجلس بجوارها. ثم فجأة، لم تعد العربة عربة، بل صارت كأنها أرجوحة أو دولاب هواء، وبدأت ترتفع شيئًا فشيئًا إلى السماء على أنغام موسيقى عذبة لا توصف. وبينما خُيّل لها أن الأرجوحة انقطعت، وداخلها خوف غامض، قالت لها مينغو بجدية طفولية: (تمسكي بي فقط!)، فضحكت، رغم ارتجاف قلبها، من أن هذا الكائن الصغير أراد أن يكون سندًا لأمه... ثم استيقظت. خلال تحضير الطعام، كنت أعود إليها بين الحين والآخر لتحدثني عن مينغو، ثم أحضرت لها الغداء وجلست بجانبها أحثها على تناول الطعام جيدًا، لأنها كانت عادةً تكتفي بتذوقه فقط. قالت لي: (أورسلشين، دعيني، لا أشعر بالجوع اليوم. بالتأكيد سيأتي متسول إلينا، وسيكون سعيدًا بما يحصل عليه اليوم من هذا القدر). كان ذلك يوم الخميس، وفي هذه الأيام عادةً يأتي رجل مسن يقول إنني أفضل من يطهى الطعام في الشارع بأكمله، وكنا نستمتع دومًا بهذه الأوقات معًا. وبينما كانت تقول ذلك، رن جرس الباب، لكنه لم يكن المتسول، بل شخص آخر، بدا سلوفاكيًا ويبيع مصائد الفئران. بالكاد فتحت له الباب، ثم دقت سيدتي جرسًا آخر بقوة شعرت بها في عظامي، وسألتني إن كان هو الطبيب. قلت: (حاشا، في مثل هذا الوقت لا يأتي الطبيب، إنه متسوّل). فقالت: (جيد إذن. أردت فقط أن أخبرك ألا تدعي الطبيب يدخل عليّ اليوم. أنا متعبة جدًا، ولا أريد

أن أتعذب. يمكنك أن تخبريه أنني قضيت ليلة سيئة وأنني نائمة)".

فسألها رئيس الجلسة: "ألم يلفت ذلك انتباهك؟".

فأجابت أورسولا بدهشة: "لا، لم يكن في الأمر ما يثير الريبة. فقد كنت أضطر أحيانًا إلى صرف الطبيب بحجةٍ ما، مثلًا حين أكون أقرأ لها شيئًا مشوّقًا".

فسألها الرئيس: "وهل قرأتِ لها شيئًا في ذلك اليوم أيضًا؟".

هزّت أورسولا رأسها بحزن، وقالت: "لم يحدث ذلك بعد. فبعد أن أنهيث أعمال المطبخ كما أفعل كل يوم، سألتها إن كانت ترغب أن أقرأ لها، أم تفضل أن تأتي الآنسة شفيرتفجر. فقالت: (لا، جوندل ستأتي بالتأكيد من تلقاء نفسها إذا وجدت وقتًا، وأظن أنني سأعود للنوم قليلًا مرة أخرى. يمكنك أن تذهبي إلى البنك لتدفعي الإيجار، لأنك لم تفعلي ذلك بالأمس – وكان اليوم الثاني من أكتوبر – وفي طريق عودتك، اشتري لي زجاجة من النبيذ اليوناني، أشعر برغبة شديدة فيه، والطبيب سمح لي بتناوله). ثم أوصتني أن أبلغ البواب أن يُشعل التدفئة في المساء، حتى لا تجلس في البرد، لأن الريح كانت تهبّ بقوة نحو نافذتي. وكان من المفترض أن يبدأ التدفئة منذ اليوم الأول من الشهر، لكنه كان كسولًا جدًا حتى إنه بالكاد يكنس الأوراق اليابسة في الحديقة الأمامية، أما النزول إلى القبو لتشغيل التدفئة فذاك ما لم يكن يطيقه إطلاقًا. وكان كلما لُمته، جاء بعذر جديد يمنعه من القيام

بذلك، وكان دائمًا يقول ساخرًا إنه يفضل أن يكون موقدًا في الجحيم على أن يكون بوّابًا لثلاثة منازل فيها ثماني عشرة شقة، لكلٍّ منها درجة حرارة مختلفة. فقلتُ لسيدتي مازحةً إنني أفضل أن أتجمّد من البرد على أن أتشاجر مع تلك السوسة البشرية التي تُدعى بوّابًا، فضحكت وقالت: (لا، بل، أوهميه بأن الأمر خطير، صوّري له كم أعاني من البرد، وكم أنا غاضبة منه). وهذه كانت آخر كلمات سمعتها منها".

قال الرئيس: "عندما عدتِ إلى المنزل، كانت قد توفيت. وقد أُغلقتِ الباب ووجدتِه مغلقًا".

- "الباب لم يكن مغلقًا، وذلك لأن الآنسة شفيرتفجر كانت قد حضرت قبل وقت قصير من وصولي، وعادةً لم يخطر ببالها أن تغلقه".

سُئلت الآنسة شفيرتفجر عما إذا كانت قد وجدت الباب مغلقًا، فأوضحت أنها لم تلتفت لذلك، ولذلك لا تستطيع الإدلاء برأي. كانت في طريقها إلى المدرسة المسائية وكانت متعجلة، وأرادت فقط السؤال عن حال صديقتها. وبما أن الشقة كانت هادئة تمامًا، افترضت أن صديقتها نائمة، فنظرت بهدوء إلى غرفة النوم ثم غادرت.

أما الباب الذي يربط غرفة نوم صديقتها بغرفة المعيشة، فكان كما هو دائمًا، مفتوحًا على مصراعيه. وعند مغادرتها لم تُغلق باب الشقة إطلاقًا، فهي لم تفعل ذلك أبدًا. وكان ذلك حوالي الساعة الخامسة وخمس دقائق.

توجه الرئيس مرة أخرى إلى أورسولا: "كم كانت الساعة حين عدتِ إلى المنزل؟".

قالت أورسولا: "عند مفترق شارعنا، سمعت كنيسة القلعة تدق السادسة، ومن هناك تبلغ المسافة تقريبًا خمس دقائق، خاصة لأنني كنت أمشي بسرعة. لقد تأخرت بسبب الانتظار في البنك، ولأنني اضطررت للذهاب لشراء النبيذ. دخلت أولًا إلى المطبخ ووضعت حقائبي فقد اشتريت بعض مستلزمات المنزل أيضًا ووضعت معطفي. ثم توجهت بهدوء إلى غرفة النوم؛ لأنني اعتقدت أن سيدتي نائمة، وإلا كانت لتناديني فور فتح الباب.

(هل أنتِ هنا، أورسلشين؟) نادتني بصوتها الرقيق، النقي والبريء كصوت طفل. ومن خلال الباب المفتوح رأيتها مستلقية ساكنة، رأسها مائل على الجانب وذراعاها فوق الغطاء، ففمرني شعور بالفرح لأنها نائمة بسلام.

لكن حين كنت في غرفة المعيشة، لاحظت فجأة أن وضعها في النوم كان مختلفًا عن المعتاد؛ لم تكن تستلقي أبدًا على ظهرها بشكل مستقيم، بل كانت تميل قليلًا على جانبها، ووضعت إحدى يديها تحت وجهها. حين خطرت لي هذه الفكرة فجأة، شعرت برعبي يتملكني، واضطررت لجمع قوتي قبل أن أعود إليها. وعندما رفعت شعيراتها بهدوء عن وجهها، رأيت أنها كانت قد ماتت، فليس هناك إنسان حي يمكن أن يظل ساكنًا إلى هذا الحد".

استفسر الدكتور زيونمان: "هل كانت تترك شعرها دائمًا منسدلًا؟".

أجابت أورسولا مبتسمة ابتسامة قصيرة تحمل شيئًا من الاستهانة: "أبدًا، كنتُ أصفف شعرها كل صباح بعناية ومرتّبًا، ولم يكن ينقصه شيء، لكن في الليلة الماضية تبعثر شعرها بسبب تقلباتها من شدة الألم، ولأنها كانت منهكة جدًا، لم أرد أن أزعجها بذلك".

قال الرئيس: "نعلم من خلال الطبيب الذي استدعته الفتاة على الفور أن الوفاة حدثت قبل ساعة أو ساعتين تقريبًا، وكان السبب، كما افترض الطبيب حينها، شللًا في القلب. وكانت حالة المريضة مهيأة لتوقع ذلك، لذلك لم يُثِر الأمر أي شك من أي جهة".

-"حضّري يا آنسة زوجر سردًا مرتبًا مرة أخرى عن الأشخاص الذين تواجدوا في الشقة خلال اليوم!".

قالت أورسولا بنبرة استنكار واضحة: "لم يكن في الشقة أحدٌ على الإطلاق، في الصباح جاء منظّف المداخن أولًا وقرع الجرس، لكني صرفته. ثم عاد ثانيةً، هذا الرجل المزعج، فقلت له إن في البيوت المنظّمة لا يُنظّف الموقد في العاشرة صباحًا، وعليه أن يتذكر ذلك. بعدها جاء ساعي البريد؛ وكان عادةً يُلقي الرسائل من تحت الباب فقط، لكنه هذه المرة قرع الجرس لأن معه رسالة ناقصة الطابع".

فسألها الرئيس بسرعة: "ما نوع تلك الرسالة؟".

فأجابت أورسولا بنبرة متعالية قليلًا: "كانت الرسالة لي، من صديقة حصلت على وظيفة في فرنسا".

فسألها الدكتور زيونمان: "وماذا حدث بعد ذلك؟".

قالت: "ثم جاءت بائعة الخضار، لكني لم أشترِ منها شيئًا، لأن السبانخ كانت في المرة الماضية مُرّة الطعم، وبعد الظهر جاء السلوفاكي. غير ذلك، لم يأتِ أحد، ولم يدخل الشقة أيّ إنسان على الإطلاق".

عندها طلب المدّعي العام الإذن بالكلام.

قال المدّعي العام: "أود أن أشير، إلى أن الشقة لم تكن مُحكمة الإغلاق كما تحاول الفتاة الطيبة أن تُصوّرها. فقد روت بنفسها أنها عندما فتحت الباب لذلك الذي يُدعى بالسلوفاكي، استدعتها السيدة سويترالجرس، مما يعني أنه كان يمكنه استغلال الفرصة والتسلل إلى الداخل".

عندها استدارت أورسولا مباشرة نحو الرجل الطويل النحيل الذي اتهمها، وسندت ذراعها على خاصرتها، بينما رمقته من رأسه إلى قدميه بنظرة حادة متقدة.

وقالت بنبرة ساخرة: "حقًا؟ كان يمكنه ذلك؟ لو لم أصفق الباب في وجهه بقوة! لقد أغلقت الباب بإحكام قبل أن أركض إلى سيدتي، وكان مغلقًا أيضًا عندما عدت. سمعت وقع خطواته على الدرج السفلي بعد أن غادر. كنت قد أعطيته

صحنًا من الحساء، وأردت أن أستعيد الطبق الفارغ، لكنه لم يلمسه حقًا. فهؤلاء المتشرّدون عادةً لا يهتمون بالفعل بالطعام، ومع ذلك، كان هذا الرجل، في الواقع، مسالمًا جدًا، ولم يكن يبدو ممزق الثياب أو متسخًا مثل أولئك المتسكعين الحقيقيين".

سأل الرئيس: "هل تعتقدين حقًا، أنك كنتِ ستتمكنين من التعرّف على المتهم لو أنه تنكّر بملابس أو هيئة معينة؟".

احتاجت أورسولا لبعض الوقت لتفهم مغزى السؤال، ثم قالت بعينين تتسعان دهشةً: "تقصد سيادتكم، دكتورنا المحترم؟! أتعني أن دكتورنا كان يمكن أن يكون هو السلوفاكي؟ يا إلهي، يا سيادة الرئيس، يمكنك إذن أن تسألني على نفس القدر إن كنتُ أظنّك أنتَ دكتورنا! هل هو دكتورنا؟! لو كان هو لكان غمز لي بعينيه وقال: (أورسولا، أما تعرفينني أيتها الحمقاء؟). لا، لا، هذا غير وارد إطلاقًا! آه، أنتم تقولون هذا الكلام فقط لأنكم لا تعرفون كيف تسير الأمور عندنا!".

قاطعها الدكتور زيونمان بحركة يائسة من يده، وتنهيدة طويلة أوقفت سيل كلامها المتسارع، ثم قال: "فلنلتزم بالموضوع. إذن، أنتِ ترين أنه من المستحيل أن يكون أحدٌ قد تسلّل إلى الشقة؟".

فأجابت أورسولا بحزم: "مستحيل، مستحيل تمامًا".

قال الدكتور زيونمان: "إلا إذا كانت السيدة سويتر نفسها

ترغب في ذلك".

فردت أورسولا باحتقار ونبرة غاضبة: "نعم، بالطبع كانت ستفتح الباب للصوص والقتلة!".

قاطعها المدّعي العام، قائلًا: "اللصوص والقتلة الظاهرون لا، ربما كان زوجها السابق، الذي ما زالت، كما يثبت الوصية، تكن له بعض المشاعر المحبة للأسف".

صرخت أورسولا بصوت مرتفع: "وهكذا بعد سبعة عشر عامًا، كان يمكنها أن تعرفه بمجرد سماع رنين الجرس!".

قال المدّعي العام بنبرة حادة فيها شيء من خبث شيطاني: "يا صغيرتي، لو كانت تنتظره، لم يكن هناك حاجة لذلك".

أشار الدكتور زيونمان بحركة تحذيرية نحو أورسولا؛ التي بدت وكأنها على وشك أن تنقضّ على خصمها لتخنقه.

ثم رفع صوته قائلًا: "أظن أننا بدأنا ندور في حلقة مفرغة. السيد المدّعي العام يفترض وجود نوع من التفاهم أو التواصل بين الزوجين المنفصلين، لكن هذا لم يُثبت بعد، بل على العكس، هناك ما يرجح استحالته. ومن وجهة نظري، لم يعد لدى الشاهدة ما تضيفه مما يفيد سير القضية، لذا يمكننا الانتقال إلى سماع شهادة القائم على المبنى، ما لم يكن لدى السادة الزملاء أو السادة المحلفين اعتراض".

رفعت أورسولا رأسها بكبرياء، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة موجّهة إلى القائم على المبنى الذي

سيُستدعى، ثم عادت إلى مقعدها بجانب الآنسة شفيرتفجر.

كان القادم المنتظَر لا يُشبه دودة الطحين في شيء، إذ كان وجهه يغلب عليه الحمرة، وتعلو أنفه مسحةٌ زرقاء.

دخل بخطواتٍ متراخية، متخذًا وضعَ رجلٍ ينظر إلى الحياة بعين العاشق المدلّل، فلا يعرف للعجلة سبيلًا.

تأمّل المكان ببطءٍ وتمهّل، ثم ألقى نظرةً فاحصة على الطاولة الطويلة الخضراء التي وقف أمامها، متفحّصًا بشكل عابر الأشياء الموضوعة عليها جميعها.

أدى القسم أمام الرئيس، ثم طُلب منه أن يُجيب على الأسئلة الموجّهة إليه بما يوافق الحقيقة، دون غموض أو إسهابٍ لا داعي له.

قال القائم على المبنى ضاحكًا: "ولمَ لا؟ فليس هناك ما يستحق القلق".

السؤال الأول: "أين تتواجد عادةً خلال النهار؟".

فأجاب القائم على المبنى مبتسمًا: "لا يمكن الإجابة عن هذا ببساطة، فالأمر يعتمد على ما أفعله في ذلك الوقت. لكن إذا قلت إنني غالبًا ما أكون في أحد المنازل الثلاثة التي أعمل بها، سواء لإصلاح شيء في شقةٍ ما، أو لأن أحد السكان يريد التحدث معي بشأن أمرٍ ما، أو أكون في القبو عند التدفئة، أو في الحديقة أتجوّل ذهابًا وإيابًا، فهذا تقريبًا ما يحدث. أما في شقتي الخاصة فأنا أقل تواجدًا، فليس لديّ ما أقوم به

فيها، لأن اهتمامي بالأسرة ليس بمستوى اهتمامي بالعمل".

سأل الرئيس: "هل تُغلق المنازل خلال النهار؟".

أجاب القائم على المبنى: "حاشا! يمكن لأي شخص الدخول والخروج كما يشاء. فلا يقع عندنا أي أمر خاطئ على الإطلاق، ولكل شقة بابها الخاص للحماية. لا، لا يوجد ما يُسمّى الإغلاق خلال النهار. في الصباح عند السادسة أفتح كل الأبواب، وفي الواقع زوجتي هي التي تقوم بذلك، وفي المساء عند التاسعة أغلقها، وهذا السلوك متفق عليه دائمًا بيننا".

سأل الدكتور زيونمان: "لكن القبو مغلق أليس كذلك؟".

أجاب القائم على المبنى: "نعم، كما ترى يا سيادة الرئيس، الأمر ليس سهلًا ليُجاب عنه بسرعة. في الليل ينبغي أن يكون مغلقًا بالطبع، لكن إبقاؤه مغلقًا نهارًا لا يمكن أبدًا، خاصة بسبب التدفئة، ولأن الفتيات كثيرًا ما يأتين بالفحم والبطاطس وما شابهها. لو أغلقناه وفتحناه طوال الوقت، لكان عملًا لا ينتهي من الإقفال والفتح. طوال اليوم يسمع المرء: (سيد البواب، أرجوك ساعدني!)، أو (سيد البواب، لحظة من فضلك!)، كنتُ مطالبًا أن أكون في مائة مكان في الوقت ذاته. لذا، من الأفضل للجميع أن يظل القبو مفتوحًا، ولم يبدُ أن أحدًا اعترض على ذلك حتى الآن".

قال الرئيس مُذكّرًا: "لكن يبدو أنك قد ضبطت شخصًا

يحاول التسلل إلى القبو بنفسك".

قال القائم على المبنى بعد أن أخذ وقتًا للتفكير: "آه، هذا ما حكت عنه أورشل، أليس كذلك؟"، ثم انفجر ضاحكًا بعد برهة وقال: "نعم، لم يكن يثير الخوف في أحد، فقد كان وجهه أخضر كمن قضى الليل يأكل تفاحًا غير ناضج! كان أحد المتشرّدين، أو ربما خبأته إحدى الفتيات، فالفتيات جميعهنّ لهنّ عشّاق، حتى وإن تظاهرن بالخجل والاحتشام".

عقد الدكتور زيونمان حاجبيه، وسأله بنبرة حادّة: "هل تتذكّر من كان يدخل ويخرج في الثاني من أكتوبر من العام الماضي؟".

تنهد القائم على المبنى، وقال: "يا إلهي، كيف لي أن أتذكّر من يدخل ويخرج عندنا كل يوم! تخيّل يا سيادة الرئيس ثلاثة بيوت فيها ثماني عشرة شقّة، من غير أن أعدّ مسكني ضمنها. في أحدها أربع شقق، وفي كلٍّ من الآخرين سبع. ويمكنك أن تتخيّل ما يحدث في أوائل أكتوبر، حين تنتقل بعض العائلات إلى الخارج وأخرى إلى الداخل، ومعهم العمّال والصنّاع وما يصحب ذلك من فوضى!".

قال الرئيس مؤكدًا: "لأن هذه أيام ذات طابع خاص بشكل أكبر، فربما بقيت عالقة في ذاكرتك. وحتى الموت المفاجئ للسيدة سويتير، التي كانت تسكن أقدم بيت هناك، قد أضفى على ذلك اليوم تميزًا عن غيره. وعندما ظهرت الشكوك لاحقًا، فمن المؤكد أنك حاولت تذكّر من دخل وخرج من ذلك البيت

في ذلك اليوم".

فأجاب القائم على المبنى، قائلًا: "سأبذل قصارى جهدي لإرضائكم، سيدي الرئيس. الكنّاس الذي جاء في الصباح الباكر لن يكون محل اهتمامكم، وكذلك البريد، والعمال لم يكن لهم شأن بالبيت الذي تسكنه السيدة سويتر؛ لأن المنزل لم يشهد أي إصلاحات أو تغييرات. أما المتسولون، فلم يكن هناك أكثر منهم، وكانت السيدة سويتر نفسها السبب في ذلك؛ فقد اشتكى الآخرون منها لأنها كانت تجذب المتسولين إليها دائمًا بتقديمها لهم شيئًا. على أي حال، كانت دائمًا تدفع لي تكلفة كل شيء، حتى أصغر الأمور، فهي لم تكن من أولئك الذين يظنون أن أمثالي موجودون لخدمة الجميع مجانًا. إذن، كان بإمكانها في نهاية الأمر أن تتصرف مع المتسولين كما تشاء. فهم يأتون بين حينٍ وآخر، وعليهم، بفضل الله، أن ينجزوا ما جاءوا لأجله".

قال الرئيس مؤكّدًا: "تذكّر جيدًا، هل رأيت بين الساعة الرابعة والسادسة بعد الظهر متسولًا، شخصًا لم تعرفه، لفت انتباهك؟".

قال القائم على المبنى بعد لحظة تفكير عميق: "بين الرابعة والسادسة؟ في ذلك الوقت كنت قد أرسلت ابني ليجلب كوب بيرة من الحانة القريبة، وكنت أنتظر عند باب الحديقة حتى يعود. ثم وضعت الكوب على الدرج لأرتشف منه بين الحين والآخر. وفي تلك الأثناء، جاءت السيدة هوفرات من الطابق

الأرضي في المنزل الثاني، وأخذت توبخني بما عرفته من عدم تدفئتي للمنزل. فقلت لها: (ولكن يا سيدتي هوفرات، مع هذا الجو الجميل! لم نحظَ بمثل هذا الطقس طوال الصيف، وهذا النسيم الخفيف لن يؤذيكم، فهو رياح جنوبية!)، وهكذا حتى بدا أنها اقتنعت أخيرًا، ثم انصرفت في حال سبيلها.

نعم، وبعدها جاء رجل، بدا وكأنه أحضر شيئًا، ربما قبعة أو وشاح أو شيء من هذا القبيل، وكان يحمل علبة، ربما لراتب التقاعد، ويبدو عليه حينها أنه مولع بالموضة؛ ثم جاء رجل غريب طريف. في البداية لم يلاحظني على الإطلاق، وكان يريد المرور بجانبي كما لو كنت عمود إنارة، وكنت أتعمد ألا أتحرك عن مكاني، لأنني أردت أن أرى إن كان سيصطدم بي. فجأة توقف أمامي مباشرة وقال: (هل لديكم قداحة، يا صاحب النعمة؟)، ومد لي سيجارة. لم أستطع إلا أن أضحك، وأخرجت قداحتي السويدية وأوقدت له النار، ولشكره أومأ برأسه قليلًا ولمس قبعته. لكنه لم يكن متسولًا، فقد كان يحمل أشياء ليبيعها، ملاعق وخلاطات، وكانت مربوطة بحبل على يده. وعندما خرج من الباب، رمى السيجارة في شجيرات البنفسج عند البوابة، إن كانت قد اشتعلت أم لا، أو إذا كان طعمها جيدًا أم لا، لا أعلم، وكنت سألتقطها في البداية، ثم فكرت قائلًا: (دعها، لن تكون سيجارة مميزة بطبيعة الحال).

سأل الرئيس: "هل يمكنك إعطاء وصف دقيق وموثوق لهذا

الرجل؟".

قال القائم على المبنى وهو يهز رأسه مبتسمًا، كما لو أراد أن يقول: "لا، سيدي الرئيس، لو حاولوا أن أقع في الفخ، لكنت أكثر ذكاءً من أن أقع فيه". "رغم أنني أحب أن أقدم لك هذه الخدمة... أنا لا أريد أن يكون لي أي علاقة بذلك. أعتقد أنه كان يملك شعرًا أسود طويلًا إلى حدٍ ما، وكان يسير شارد الذهن وكأنه غارق في أحلامه. وإذا وقف أمامي الآن، فأنا على الأرجح سأتعرف عليه مرة أخرى. أما ما إذا كان معطفه رماديًا أو أخضر أو بني، وما نوع حذائه، وهل كانت جواربه مثقوبة، أو أمورأخرى من هذا القبيل، فهذا لا أستطيع أن أخبركم به حقًا".

سأل الرئيس: "ألم تفكر مطلقًا في سبب مجيئه أو ما يمكن أن يكون مقصده؟".

قال القائم على المبنى: "حسنًا، ما رأيته بالفعل، سيدي الرئيس، أنه كان يبيع ملاعق، ولم يكن هناك ما يستدعي التفكير في شيء آخر. فلو أردت التفكير في كل بائع متجول، لاستغرقت وقتي كله في ذلك. عليكم فقط أن تتخيلوا من هم الذين يدخلون ويخرجون عندنا! فمثلًا، في المنزل الثالث في الطابق الثاني، هناك السيد روبسامِن، مؤلف وناشر موسيقي، شخص عصبي للغاية، ولولا صبري الشديد معه، لكان قد غادر المسكن منذ زمن بعيد. تخيلوا فقط من هم الذين يأتون إليه، بعدها لن يفاجئكم شيء بعد الآن. يأتون

سادة وسيدات، يرنمون له أو يعزفون له، فرقة غجرية بالكامل تقريبًا، وبعد قليل يتضح أنهم فنانون ونبلاء. في ذلك اليوم، بالمناسبة، حضر أيضًا صانع البيانو، لكنه طلب منه الانصراف، إذ علم من أورسولا، الفتاة، أن سيدتها قد قضت ليلة سيئة وكانت بحاجة للراحة والنوم. السيد روبسامِن طيب القلب حقًا. أما صانع البيانو، فليس هو الرجل ذا السيجارة؛ فهو أحمر الوجه وأشقر الشعر، أعرفه جيدًا لأنه يزور السيد روبسامِن كل ثلاثة أشهر".

قال الرئيس متسائلًا: "إذن، الرجل جاء من المنزل الثالث، يمكن أن يكون من الثاني أيضًا، التي تضم دار الضيافة".

أجاب القائم على المبنى: "رأيته أول مرة عندما اقترب من الجهة الأمامية للمبنى، حيث كنت أقف".

قال المدعي العام وذراعه ممدودة، مع تعبيرات وجهه توحي بالأمر: "أرجو من القائم على المبنى أن يخبرنا ما إذا كان المتهم يشبه الرجل ذا السيجارة".

طلب الدكتور زيونمان من القائم على المبنى: "هل تريد أن ترى المتهم الآن؟".

استدار القائم على المبنى ببطء، وأمعن النظر في ديروجا، الذي بدا أن التحقيق يثير اهتمامه ودهشته، بل كان بالنسبة له مصدر تسلية.

قال أخيرًا: "في هذا الشأن، أنا عاجز عن الإجابة، سيدي

الرئيس، أقسم أنني لم أرَ هذا الرجل من قبل".

قال الرئيس: "تخيله مرتديًا باروكة سوداء ولحية مزيفة".

صاح القائم المبنى بحزم غير معتاد: "مستحيل، إذا بدأت أطلق لخيالي العنان بمثل هذه التصورات، فلن أميّز أحدًا عن الآخر، وسأحمّل لاحقًا مسؤولية ما تخيلته، وقد أجد نفسي فجأة متهمًا بشهادة زور. انظر يا سيدي الرئيس، عندما يبدأ المرء في استحضار ملامح شخص ومقارنته بغيره، يبدو له في النهاية أن كل شيء ممكن، ثم يتضح في آخر الأمر أنه لم يكن سوى مجرد خيالات".

قال الرئيس: "إذن، ليس لديك صورة دقيقة في ذاكرتك عن الرجل الذي طلب منك قدّاحة. هل تتذكر أشخاصًا آخرين ترددوا على منازلك في الثاني من أكتوبر، بين الساعة الرابعة والسادسة؟".

أجاب القائم على المبنى: "نعم، كنت قد كلفت ابني لتوّه أن يعيد قدح البيرة إلى الحانة، وكنت أتابعه بعيني وهو يعبر الشارع، حين ناداني أحد من الخلف وسألني عن أقرب محطة لعربات الأجرة. كان على عجلة من أمره حتى إنني بالكاد تمكنت من الإجابة عليه، ودفعني بكتفه وهو يمر بجانبي. وبعد ذلك مباشرة، نادتني زوجتي لأن أنبوب المياه في الشقة بالمنزل الثاني قد انسدّ مجددًا، فهم هناك دائمًا يرمون فيه العظام والشعر المتساقط كأنه سلة قمامة، على أية حال، بعدما تفقدت الأمر وعدت إلى الحديقة، رأيت الطبيب يدخل

المنزل الثالث، بسبب السيدة سويتر التي كانت قد توفيت في تلك الأثناء".

سأل الرئيس: "ما الانطباع الذي تركه السيد لديكم؟ ذاك الذي كان على عجلة شديدة من أمره؟".

قال القائم على المبنى: "ما زلت أتذكر، أنه كان يرتدي معطفًا طويلًا وواسعًا. حينها قلت لنفسي، في الموضة الرائجة حاليًا، النساء يلبسن ثياب الرجال، والرجال يلبسون ثياب النساء. ومن الخلف بدا وكأنه امرأة ملتفة في ثيابها. ومع ذلك، كان رجلًا أنيقًا حقًا".

طلب المدعي العام العودة مرة أخرى للحديث عن الرجل ذي السيجارة، لمعرفة ما إذا كان يتحدث الألمانية الفصحى أم كما يتحدث الأجانب.

قال القائم على المبنى: "نعم، كما تعلمون، قلة فقط من الناس يتحدثون مثلنا تمامًا. كثيرًا ما كنت أفكر: ما هذا الهراء الذي يتفوه به؟! ثم بعد قليل، يتضح أنه ألماني كامل، لا أكثر ولا أقل".

كرر الرجل الجملة كما لو كان يحاول أن يتذكر نغمة الكلمات وطريقة نطقها: "هل لديكم قداحة، صاحب النعمة؟ كان نطقه غريبًا بعض الشيء، لكنه لطيف جدًا ومليء بالفكاهة، ولغته الألمانية كانت جيدة في النهاية أيضًا. أما الرجل الذي كان في السيارة، فقد تحدث بسرعة جعلت من الصعب فهمه، وأعتقد

أنه لم يستوعب كلامي جيدًا أيضًا، فقد توجّه أولًا إلى الجهة الخاطئة رغم أنني أوضحت له الأمر جيدًا. ومع ذلك، قد يكون ذلك بسبب عجلة الوقت وعدم توفر وقت كافٍ لديه".

قال الرئيس: "أما هذا السيد، فمن المرجح أنه نفسه الذي سأل عن غرفة في دار الضيافة ليقيم فيها، وتم رفض طلبه. لم يُعثر على أي أثر له، ويفترض أنه أقام هنا لفترة مؤقتة فقط".

مع ختام هذه الجلسة، كان جميع المشاركين، باستثناء ديروجا، مرهقين، متوترين، ومتحيرين. كانت أفكار السيد فون ويدينبروك تدور حول حلم المرأة الراحلة، الذي وصفته أورسولا، وكان يتحدث عنه مع الدكتور بيرنبرجر أثناء سيرهما جنبًا إلى جنب عبر الممرات الواسعة لمبنى القضاء.

قال: "الطفلة، التي زارتها، كانت بالطبع تشير للأب، وتأرجحها يدل على انفعالات داخلية. لا شك أنها كانت تنتظرها".

كان الدكتور بيرنبرجر، الذي بدا شاحبًا للغاية، قد أشعل سيجارته للتو، وبدأ يستعيد بعض توازنه.

قال مسرعًا: "صحيح، الاستنتاجات من اتجاهين متعاكسين تتقاطع وتتوافق عند نقطة واحدة كما يلتقي مساران في نفق. لقد طلب منها المال، وهذا أعاد إحياء ذكرياتها. كانت تنتظره في حالة من الحب أو الانفعال العاطفي. وقد جاء

متنكرًا في زي بائع متجول يبيع ملاعق خشبية. إما أن أورسولا، التي كانت تعرف السر، هي من سمحت له بالدخول، أو أنه تسلل من دون أن تنتبه، أو ربما فتحت له السيدة سويتر بنفسها. لو كنت أعرف نتائج التحقيق الأول، ولو سمح لي أن أطرح أسئلتي، لاكتشفت الحقيقة فورًا. لقد كنت أعاني من الانتظار بينما كانت هذه الإجراءات البطيئة تمضي في طريقها".

مسح الدكتور بيرنبرجر يده بمنديله، وكانت أصابعه النحيلة ترتجف قليلًا.

قال الدكتور فون ويدنبروك: "إذن، تظن أن رغبة اللقاء جاءت من ديروجا، وكان دافعها الخوف من ضياع المال؟".

أجاب بيرنبرجر: "أعتقد ذلك، في النهاية، السلوفاكي هو من قتلها، والسلوفاكي كان هو نفسه ديروجا".

قال فون ويدنبروك بعد لحظة صمت: "برأيي أن السبب أعمق من المال، هناك انجذاب غريب بين الأشخاص ذوي الطباع العصبية، يجذبهم بعضهم إلى بعض بطريقة تؤدي إلى الهلاك. ومهما كان شكل الرغبة، فهذا هو جوهرها".

ثم تمتم بيرنبرجر، وهو يفكر: "ترى، هل يمكن أن تكون السيجارة التي أُلقيت ما تزال هناك بين الشجيرات؟ ولكن كم من ثلوجٍ وأمطارٍ قد سقطت عليها بالفعل".

اعترض الدكتور فون ويدنبروك: "لقد بدا بلا تكلف وكأنه

على عجل، ولِمَ لا يكون هو الرجل الذي كان في السيارة؟".

قال الآخر: "أما ذلك الذي طلب القداحة فكان يريد أن يظهر بريئًا، ثم رمى السيجارة فورًا لأنه لم يكن ينوي التدخين من الأساس. على أي حال، عادةً ما يحمل المدخنون أعوادَ ثقابٍ معهم. وفوق ذلك كله، شعرتُ بالأمر عندما أشارت الفتاة إلى السلوفاكي؛ رأيت المشهد بعيون أخرى".

نظر السيد فون ويدنبروك إلى صديقه باهتمامٍ متجدّد: "لو كان هذا صحيحًا، لكان الأمر محسومًا، قال وتساءل عمّا إذا كانت مثل هذه الظواهر قد لفتت انتباه صديقه سابقًا".

في ذات الممر الذي كانا يسيران فيه، وقف ديروجا مع المستشار القضائي فاين عند فتحة النافذة يتبادلان الحديث، يراقبان المارة بشكل عابر.

قال ديروجا: "لو كنتُ الرئيس، لأحضرت مسدسًا معبأً إلى الجلسة، ووجهته إلى وجه الشاهد، وإن لم يُجب بعقلانية، لضربته حتى سقط قتيلًا. هذا الرجل يملك صبرًا لا يُدرَك".

في تلك اللحظة رأى الدكتور بيرنبرجر يقترب مع رفيقه، أخرج بسرعة سيجارة من علبتها، تقدم خطوة أو خطوتين إلى الأمام وقال للدكتور بيرنبرجر: "هل لديكم قداحة، صاحب النعمة؟". ثم، بعدما أشعل سيجارته، عاد ليقف بجانب المستشار القضائي، وهو يرمقه بعينين جاذتين وبصيرة ثاقبة.

أصبح وجه الدكتور بيرنبرجر شاحبًا من شدة الانفعال، بينما كان ديروجا يسلمه السيجارة المشتعلة صامتًا؛ كان هو يفكر: "من الواضح أنه يسخر مني. يا له من إنسان يمتلك هذا القدر من البصيرة وسرعة البديهة، والجرأة وبرودة الأعصاب! كل شيء يمكن أن يُتوقع منه. ومع ذلك، لو لم يكن مذنبًا، لكان سلوكه يدل فقط على ثقة شخص غير معني بالأمر. أما في هذه الحال، فكانت ثقته تحمل سمات المجرم ذي الخبرة، الجريء والمتسلّط بعقله؛ كان تحديًا صامتًا من مجرم فطن يظن في أعماقه أنه لا يمكن لأحد كشفه".

كان الدكتور بيرنبرجر غارقًا في أفكاره ومنفعلًا إلى حدٍّ لم يسمح له بالتعبير عمّا يدور في ذهنه بصوتٍ عالٍ، فمضى بخطى سريعة، متقدّمًا صديقه ببضع خطوات.

فقال له الآخر: "لقد كشف أفكارك، وهذه إحدى العلامات الأخرى على الهستيريا، شأنها شأن البرود الذي يبديه. لا بدّ في النهاية أن يُقرّ الجميع بأننا أمام حالةٍ مرضية، نوعٍ من جرائم اللذّة".

فقال الدكتور بيرنبرجر بانزعاج: "لكن المرأة التي قتلها كانت في الثانية والخمسين من عمرها!".

أجابه الدكتور فون ويدنبروك: "وهذا بالضبط ما يمثل دليل انحرافه. ربما اندمجت صورتها في ذهنه مع ذكرى أمه، فقويت في داخله الرغبة المتولدة من الشغف وحبّ التدمير، حتى غدت أشدّ خطرًا".

في تلك الأثناء، وجّه المستشار القضائي لومه إلى موكله: "يا لك من هائج، سريع الغضب!". قال: "عليّ أن أضع قفلًا على فمك. ما هذا الانفجار الآن؟".

قال ديروجا: "أوه، لماذا لا أرمي لهذين القرشين الصغيرين عظمة بين أنيابهما؟ ألم ترَ كيف كانت عيناهما تفيض جشعًا؟ يؤسفني فقط أنني لا أستطيع مشاهدة كيف يقضمانها".

قال المستشار القضائي: "لا يُستهان بالقرشين"، وأضاف: "ومع أنك إيطالي لا فائدة منك، إلا أنني لا أرغب حقًا أن ينقضّ أحدهما عليك بين أنيابه".

الفصل السابع

بالكاد غادرت البارونة القاعة متمسكةً بذراع زوجها، حتى اعترض طريقها خادم المحكمة وطلب منها باسم المستشار في المحكمة العليا، زيونمان، أن تزوره لإجراء محادثة قصيرة في مكتبه. وأضاف الخادم أنه مستعد لأخذها على الفور.

قالت متوجهةً إلى زوجها: "سترافقني، أليس كذلك؟". فسار معاها برضى منه، بالرغم من شعوره بالجوع، لكنه افترض أن السادة في المحكمة سيكونون في وضع مماثل، ولن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا.

وقالت باللغة الفرنسية أن المستشار في المحكمة العليا رجل لطيف جدًا، متواضع قليلًا، ودود، وبشكل عام، اعتقدت أنه إلى حد كبير في صفها.

كان الدكتور زيونمان قد ارتدى ملابسه بالفعل، وكان يقضم قطعة صغيرة من الشوكولاتة لتعزيز نشاطه وقوته.

قال وهو يقدّم لهما المقاعد: "ما كنتُ لأستدعيكما في هذه اللحظة، لولا أن الأمر في مصلحتكما. رغبتي الوحيدة أن أُخفّف عنكما الصدمة، أو المفاجأة غير السارة، إن لم أستطع أن أتجنبها عنكما كليًا، فعلى الأقل أن أخفف أثرها".

صاحت البارونة وقد ارتجف صوتها: "صدمة، يا سيدي المستشار! والآن، بعد أن أنهكت أعصابي تلك الجلسة المروّعة! لا، لا يمكن أن تكون قاسيًا إلى هذا الحد!".

ابتسم الدكتور زيونمان بلطف، وقال: "آمل أن أهوّن من وقع الأمر بأن أمهّد لكما الحديث بنفسي. لقد وصلتني هذا الصباح رسالة من الآنسة ابنتكما، تخبرني فيها بأنها علمت من الصحف بأمر المحاكمة. إنها منزعجة للغاية، وتعلن احتجاجها الشديد، وتطلب أن يُنشر اعتراضها على الملأ".

صاحت البارونة وقد احمرّ وجهها من الغضب: "لكنكم لن تفعلوا ذلك، سيدي المستشار، أليس كذلك؟ دَعها تحتج سرًّا كما تشاء، ولكن لا شأن للعامة بذلك! كأنّ المحاكمة لم تكن فضيحة كافية بالفعل!".

قال الدكتور زيونمان متأمّلًا: "ربما كانت الآنسة ابنتكم تعارض الأمر لهذا السبب بالذات أي لتدخّلكم فيه؟".

قالت البارونة: "لكن يا سيدي المستشار العزيز، لا يمكن أن تتوقع مني أن أصغي إلى اعتراضات طائشة من فتاة صغيرة، فهي في الحقيقة ما تزال طفلة، حين يتعلق الأمر بقرارات بهذه الأهمية! هل كنتَ لتفعل ذلك أنت؟".

- "على أية حال، لو كنتُ مكانكم، لبذلت جهدي في منع الآنسة ابنتكم من إثارة أي ضجة. يبدو أنها في حالة من الغضب والانفعال الشديد، ويرجع ذلك جزئيًا إلى أنها تعتقد، يا سيدتي، أنكم أنتم من دفع إلى إقامة الدعوى بزعم أنها في مصلحتها".

تنهدت البارونة: "آه، يا لجحود الأبناء! هل كنت لأتحمّل كل

هذا الرعب والفضائح لو لم أعتبره واجبي، أن أضمن لابنتي حقوقها المادية التي تستحقها؟ ولماذا أنت صامت تمامًا، بوتو؟". التفتت إلى زوجها: "آمل أن تمارس سلطتك تجاه مينغو".

قال البارون: "سأحاول أن أمنعها عن اتخاذ خطوات متهورة". وأضاف بهدوء: "على كل حال، تعلمين يا عزيزتي أنّ مينغو ليس من السهل التأثير عليها".

ردّت البارونة بتحدٍّ خفيف: "على العكس، هي سهل التأثير عليها جدًا، يكفي فقط أن تعرف كيف تُبهرها".

ابتسم البارون: "ربما هي معتادة علينا أكثر من اللازم، وأفرطنا في دلالها".

أكدت زوجته كلامه: "مُدللة بواسطتك أنت! الحمد لله أنها بعيدة بما يكفي كي لا تسبب لنا متاعب كبيرة".

قال الدكتور زيونمان: "الرسالة التي وصلَتني اليوم تحمل ختم أوستند".

صاحت البارونة وهي تنهض عن كرسيها: "أوستند! لقد غادرت إنجلترا دون أن تطلب منا الإذن! لا يمكنك أن تتغاضى عن ذلك، بوتو!".

قال الدكتور زيونمان: "إنها تنوي المجيء إلى هنا".

وقام البارون أيضًا، وقال: "أشكرك، سيدي المستشار، على تحذيرك لنا بهذه الطريقة اللطيفة. لن نأخذ من وقتك الثمين

أكثر من ذلك!".

وشكرت البارونة بدورها بكلمات ودّية، مضيفة طلبها ألا يُكشف عن أفكار ابنتها الغريبة والباروكية.

في البهو الكبير بالطابق الأرضي، كان الحشد لا يزال متجمّعًا، مما أعاق الزوجين عن السير بالسرعة التي يرغبان بها.

نصف غاضبة من زوجها الذي لم يمهّد لها الطريق، ونصف مستاءة من الناس الذين لم يفسحوا لها المجال، توقفت البارونة فجأة، حين جذبتها نظرة جانبية لتلتفت، فوجدت وجه رجل قريب منها، بدا وكأنه يحدّق بها بازدراء مستفز. وعندما التفتت غاضبة، لمحت دبوسًا بارزًا في ربطة عنقه، وفجأة أدركت أنّ الرجل هو ديروجا.

انتابها شعور بالضعف والغثيان. قالت بغضب لزوجها، وهي تدفعه بذراعها إلى الأمام: "لماذا لا نواصل السير؟". لاحظ زوجها توترها، فضاعف جهده ليشقّ طريقه بين الحشد، ووصل بها خلال دقائق قليلة إلى السيارة المنتظرة.

طرحت نفسها على المقعد الخلفي في أقصى زاوية، وقد بدا عليها التعب الشديد.

وقالت لزوجها، الذي كان يسأل عن حالتها بقلق: "هل رأيت ديروجا؟ وكيف كان يحدق بي بتحدٍّ ووقاحة؟ من المستحيل أن يُسمح لهذا الرجل بالتجول بين الناس بحرية! لم أتخيله

بهذه الرهبة الشديدة".

قال البارون متعجبًا: "لكنّكِ لم تريه اليوم للمرة الأولى!".

فأجابته بحدّة: "أنا لا أُميز أحدًا من دون نظّارتي، وأنت تعرف ذلك.

لا أدري كيف سأتجاوز هذا الأثر. أليس من غير المعقول أن أُترك بلا حماية أمام انتقام هذا الرجل؟ لن أشعر بالأمان لحظة واحدة بعد اليوم".

فقال البارون مطمئنًا: "من هذه الناحية يمكنك أن تكوني هادئة؛ فالمتهم أو المشتبه به يكون دائمًا حذرًا".

فأضافت بمرارة: "وهناك دائمًا أناس يصدقون ما يوافق راحتهم فقط".

فقال البارون بلطفٍ ناصحًا: "ستفكرين بهدوءٍ أكبر بعد أن تتناولي شيئًا من الطعام. أنتِ جائعة جدًا، ومتعبة للغاية، والجوّ الخانق قد أضعفكِ، ثم جاءكِ أيضًا الخوف الذي سبّبته مينغو. ينبغي أن تستريحي بعد الظهر، بدلًا من أن تحبسي نفسك من جديد لساعات في قاعة المحكمة المظلمة الخانقة، وتعرّضي نفسك لتلك الانفعالات المزعجة المرهقة. أنا مستعد أن أذهب بنفسي وأطلعكِ على كل ما يحدث بالتفصيل؛ فمهما يكن، لن تأتي التحقيقات القادمة بشيء جديد".

وكان الأمر بالفعل كذلك.

أعلنت السيدة فون ليبنبرج، صاحبة دار الضيافة في المبنى

الثاني، برقي ورفضٍ محترم، أنها تتعامل فقط مع جمهور راقٍ، وأنه لم يحدث أبدًا أي شيء مع نزلائها، وأنها لا تستطيع الإدلاء بأي تصريح يخص القضية.

وأضافت أنها بالطبع لا يمكنها أن تتحمل مسؤولية كل شخص يطلب منها غرفة، وأنها لا تستطيع أيضًا أن تدون سجلًا لكل من يزور دارها، لكنها ترفض تمامًا أن تقول أي شيء عن الشخصيات التي تتردد على دارها.

وطلبت بلهجة ملحة ألا يُزعج الضيوف الراقيون المقيمون لديها بأسئلة أو تحقيقات قد لا تؤدي إلى أي نتيجة.

وبعد هذه السيدة الحساسة، ظهرت السيدة روبسامن، زوجة الملحن وكاتب الموسيقى في الطابق الثاني من المبنى الثالث، واعتذرت عن زوجها، قائلة إنه مريض يتألم، وبشكل عام متوتر للغاية بحيث لا يستطيع أن يمثل كشاهد، إذ أن مجرد فكرة تورطه في مثل هذه القضية تثير فيه قلقًا شديدًا يصل إلى حد المرض.

بعد مرور ساعة، حضر رجل، لكنها لم تعتبره رجلًا راقيًا حقًا. طلب اختبار صوت السيد روبسامن ليتأكد مما إذا كان يستحق التدريب. قادته إلى الصالون وأخبرت زوجها، فسألها عن هويته، فأجابت بأنها تراه كسائق عربة أو على الأكثر مصلّح أثاث. غالبًا ما يظن هؤلاء الأشخاص، بعد سماعهم عن فقراء حققوا نجاحهم بفضل صوتهم الجميل، أنهم خُلقوا للفن إذا تمكنوا من رفع صوتهم حتى اهتزت الجدران.

على أثر ذلك، لم يكن لدى زوجها أي رغبة في متابعة الأمر، فاختبار الأصوات كان مهمة غير مجزية، وأي محاولة لمنعهم غالبًا ما يصبح تعاملهم فظًا، وهو ما كان بمثابة السم لرجل عصبي مثل السيد روبسامن.

ومهمتها في مثل هذه الحالات أن تعتذر للشخص بأسلوب لبق، وقد قامت بذلك هذه المرة، قائلة إن زوجها ليس في المنزل وعليه العودة في وقت لاحق. "لكن عليّ أن أذكر أني لم أره بعد ذلك اليوم مرة أخرى".

سألها الدكتور زيونمان عمّا إذا كانت قد سألت الرجل عن اسمه.

قالت السيدة روبسامن: "كلا، كلا، كنت أحرص قدر الإمكان على ألّا يتسع الأمر. على أي حال، بعد بضع سنوات، ربما يُصبح اسمه ميرابِليو أو بيربانتي على سبيل المثال".

قال الدكتور زيونمان بصوت خافت لجاره الذي كان يتثاءب خلف يده: "لن نصل إلى شيء، كنت أعلم ذلك مسبقًا".

فأجابه المساعد بنفس الهدوء: "انتهى الأمر، انتهى".

ثم سأل الدكتور زيونمان ما إذا كان قد قرع بابها عند الظهيرة متسوّل أو بائع متجول، لكنه قاطع الشاهدة عندما شرعت في ذكر سلسلة من الاحتمالات، طالبًا منها أن تقتصر على ما تعرفه على وجه اليقين.

غير أنّ السيدة روبسامن نفت تمامًا أنها تعرف شيئًا محددًا

بهذا الأمر، وهكذا انتهى التحقيق مؤقتًا حول الزائرين المشتبه بهم الذين دخلوا المنزل في ذلك اليوم المشؤوم.

الفصل الثامن

قال ديروجا لبيتر هازه وهو يصافحه: "كان لطف منك أن تتكفّل بالكفالة عني، تمامًا كما عهدناك دائمًا رجل نبيل بكل ما للكلمة من معنى. أنا في خدمتك دائمًا".

ارتسمت حمرة خفيفة على وجه الكاتب الشاحب، وقال وهو يعقد حاجبيه: "لقد أُعطوني وعدًا قاطعًا بألّا يُذكر اسمي، ولا أفهم كيف نُقض هذا الاتفاق".

ضحك ديروجا وقال: "لقد نصبتُ لك فخًا لا أكثر، وها أنت وقعتَ فيه. أعترف الآن بأنني أعرف الناس جيدًا! لو كنت أستطيع الجلوس ساكنًا مثلَكم أيها الألمان، لربما كنتُ أنا أيضًا شاعرًا".

فقال بيتر هازه بجدية: "بل شاعرًا أفضل مني، فأنت على الأقل تُجيد أن تنسج حياتك كما تُنظَم القصيدة".

قال ديروجا: "يبدو أن الأمر عندكم سيكون جافًا بعض الشيء، أسد المجتمع، سيدة ثرية، محبوب الجمهور، مستشار الدولة، وربما الشخصيات النبيلة بعد ذلك. قليل التنظيم، لكنه مريح تمامًا. أليس كذلك؟ دائمًا في جو معطر قليلًا".

قال بيتر هازه محاولًا تغيير الموضوع: "أود أن أقضي المساء معك. إذا لم يكن لديك خطط أفضل؟".

قال ديروجا: "سيكون ذلك السرير والنوم. كلاهما رائع، لكن

يمكنني الحصول عليهما دائمًا، بينما ربما أنت متاح اليوم فقط. هل تشاركنا، سيدي المستشار؟" موجهًا حديثه إلى محاميه.

قال الأخير إنه بحاجة للاطمئنان على أسرته، لكنه ما زال لديه نصف ساعة. وأضاف أنه سعيد بالتعرف على بيتر هازه، حين جلسوا في غرفة منعزلة بمطعم لتناول الطعام، وأوضح أنه، رغم كونه مجرد خبير بسيط، ليس لديه وقت للأدب الجميل، لكن صيت هازه قد وصل إليه، في شبابه كان يظن نفسه خبيرًا وذوّاقًا في الفنون، لكن ذلك لم يكن سوى غرور شبابي عابر.

قال ديروجا مبتسمًا: "أوافقك الرأي. شريحة لحم ممتازة، نصف ناضجة ومشوية على الفحم، هذا ما تفهم فيه أكثر".

ابتسم المستشار القضائي بلطف، وقال: "حسنًا، دراسة ذلك متاحة يوميًا، أما الكتب الجيدة فهي نادرة كاللآلئ. والقصص الواقعية، فهذه أقرأها دائمًا، فهي تعلّم المرء. أما أن أُقاد وراء خيالات الآخرين، فهذا وقتي ثمين جدًا ليُهدر عبثًا".

قال بيتر هازه: "للأسف، الحياة عامةً رتيبة ومملة، والشعر ينبغي أن يكون سجادةً مزخرفةً بألوان الحياة".

قال ديروجا، وعيناه تتلألآن بالخيال: "نعم، بحر أرجواني تتماوج فيه الوحوش والعجائب، تتلألأ الكنوز والنفائس. أخضر كالزجاج، حلو كاللؤلؤ، أسود كالزوابع، لا ينضب،

غامض، دائمًا يغلي بمخترعات ساحرة، وجائع لكل ما هو حي. لكن، هكذا هي الحياة، مدهشة وعنيفة، ساحرة ووحشية، كلها في آن واحد".

نظر بيتر هازه إلى ديروجا بانتباه، وكأن الأفكار تتجسد في عينيه الضيقتين قائلًا: "أنت شاعر بمشاعرك، فمشاعرك هي التي تحركك".

قال ديروجا بنبرة متغيرة: "وفي الحقيقة، كل هذا في جوهره مجرد هراء الشارع".

قال المستشار القضائي: "ها، لقد ذهبت بعيدًا جدًا هذه المرة. دعنا نركز على محاكمتنا! أنت تبدو لي متميزًا بما فيه الكفاية، والبارونة تروشكوفيتس أيضًا ليست من النوع المعتاد".

تدخل ديروجا سريعًا: "أكره هذا النوع من النساء: أنانيات، جشعات، ضيقات الأفق، باردات، ودائمًا شغوفات بالمستجدات والمغامرات. بدون المال، لكانت من العاهرات".

قال المستشار القضائي بلطف وهو يوبّخه قليلًا: "لكن، أيها المحترم، يبدو لي أنك متحيز بعض الشيء".

قال ديروجا متأجّجًا: "إذن، هل ترى أنه من اللائق أن يُتّهَم إنسانًا غريبًا بالقتل بدافع الطمع في المال؟ شخصًا لم يؤذها في شيء؟ يا لها من أخلاق! هل يمكن أن أقتل امرأةً مسنّة كانت زوجتي، وأمّ طفلتي الوحيدة، العزيزة والمقدسة، فقط

لأنها لم تُعطني المال، أو لم تُعطني ما يكفي، لأحصل على ثروتها قبل أوانها ببضعة أشهر؟ أقسم لك، ما خطر هذا في بالي يومًا".

قال المستشار القضائي: "يا إلهي، لكن مثل هذه الأمور تحدث أحيانًا. لا يمكننا أن نرى الحياة دائمًا من خلال نظارات وردية. لقد قُتِل أشخاص من أجل بضعة تالرات. ثم إنك شئت أم أبيت تتناسى أن البارونة لم تنسب لك هذا الدافع صراحة، وإذا كان الناس يرونك سريع الغضب ومتهوّرًا وحادّ الطبع، فهم لا يظلمونك تمامًا".

أسند ديروجا رأسه إلى يده ولم يُجب بشيء، ثم قال بيتر هازه بعد لحظة صمت: "أشعر أن عليّ أن أخبرك أنني زرت البارونة بناءً على طلبها. وبصراحة، بدت لي سيدة محترمة".

قال ديروجا بحدّة: "وأيّ انطباعٍ كان من المفترض أن تتركه غير ذلك؟ هل كنتَ تتوقّع أن تبدو كمنظّفة شوارع أو خادمة إسطبل؟ على أي حال، لا فرق. الأرجح أنها أرادت فقط أن تغازل الكاتب الشهير".

قال بيتر هازه بهدوء: "هي لا تفعل أكثر مما تفعل أيّ سيدة أخرى، بل بطريقة أنيقة ومتلائمة مع سنّها. في الحقيقة، خُيّل إليّ أنها ترغب في أن أتزوّج ابنتها، فقد كانت تذكرها لي مرارًا وتكرارًا".

ضحك ديروجا بسخرية وقال: "امرأة فاسدة وسمسارة، لا

فرق كبير بينهما. لكن أن تروّج لابنتها بنفسها، فذلك غير لائق بالمرة. امرأة كهذه لا بدّ أنها تعرف الرجال جيدًا. لا تنكران يا سادة، كلّنا تورطنا بالوحل بدرجات مختلفة".

قال بيتر هازه، محافظًا على هدوئه وأدبه: "صحيح أننا لسنا أنقياء كنقاء فتاة من عائلة محترمة، لكنّي لا أعلم إن كان من الحكمة التفكير في ذلك أصلًا، ويبدو أن النساء أنفسهن لا يجدن فيه ما يستحق الاهتمام".

قال ديروجا: "لا، يبدو أنهن يحببن القذارة. كفى. ما رأيك بالبارونة الصغيرة؟".

قال بيتر هازه: "قبل أن أراها وأتحدث معها، أمتنع عن إصدار أي حكم. بما أن ثروتها ليست استثنائية، فلا بد أن تمتلك صفات غير عادية لتكون مناسبة للزواج".

قال ديروجا: "إذن أنت لا تراهن على ثروتي. هذا أمر لائق وعاقل أيضًا. الألمان قد يكونون كلابًا جيدة، لكن الغزال الإيطالي، حتى لو لم يكن سريعًا، أذكى وأكثر مراوغة، ولا يمكن الإمساك به".

قال المستشار القضائي وهو ينهض مودّعًا: "أنت لست في أفضل حالاتك اليوم، ديروجا، لو كنت مكانك، ربما كنت سأكون كذلك أيضًا. أما عن الكلاب الألمانية، فلست سريعًا في الجري، لكني أجيد النباح والعض بدرجة لا بأس بها، ويمكنك الاعتماد عليّ في هذا إن شئت. إلى اللقاء!".

حاول ديروجا أن يرسم ابتسامة ودّية، لكن محاولته باءت بالفشل، وقال: "الحمد لله، سيكون اللقاء بعد الغد فقط. فغدًا الأحد".

قال فاين إنه ربما يزوره لإجراء حديث قصير.

أجاب ديروجا: "لا بأس، فالأحد هو عربة الانتحار في قطار الحياة، والاثنين يوم حفر القبور".

الفصل التاسع

في يوم الأحد، شاءت الصدفة أن يكون اليوم خيرًا على ديروجا على نحوٍ غير متوقَّع، إذ وصل صديق طفولته وشبابه، الطبيب كارلو جابوسي، وهو طبيب ريفي في قرية تقع على مرتفعات بلّونو.

كانت التقارير الصحفية عن المحاكمة قد دفعت جابوسي إلى المجيء إلى ميونخ، رغبةً في مساعدة ديروجا إن كان في حاجة لذلك.

عانق الصديقان بعضهما وقبّلا بعضهما مرارًا وتكرارًا، واستغرق الأمر بعض الوقت قبل أن يتمكنا من البدء في حديث مترابط.

قال ديروجا: "أأنت حقًا أتيت من أجلي، يا كارلو، يا صديقي العزيز؟ لم يكن الأمر يستحق كل هذا العناء: السفر، والتكاليف، وكل ذلك!".

أجابه جابوسي: "يا للهراء! كنت سعيدًا لمجرد أن أتيحت لي فرصة للسفر. لم أغادر قريتي المباركة منذ عشر سنوات. لكن إن استطعت أن أقدّم لك أي مساعدة، فذلك سيسعدني حقًا. تخيّل، بعد كل ما ضحّيتَ به من أجلي، أستطيع الآن أن أردّ لك بعض الجميل!".

ضحك ديروجا، وقال: "أنا من ضحّى لأجلك؟ أتقصد تلك الشهور التي قضيتها تجلس إلى جواري كل يوم حين كنت

مريضًا في المستشفى؟".

قال جابوسي: "حسنًا، صحيح أنّك لم تُصب بالمرض بسببي، لكنّي استطعت أن آتي إليك، ولم أضطر إلى البقاء دومًا في البيت، حيث لم أجد فيه ما يؤنسني. كنتَ تستمع إليّ عندما أحكي عن معشوقتي، وكنت تنظم لي أشعارًا من أجلها".

سأل ديروجا عن حالها، وما إذا قد تزوجوا أخيرًا. قال جابوسي، وقد ارتسم على وجهه لمحة من الحزن: "لا، ذلك لم يحدث بعد. فبسبب أنّ والدتي تسكن معي، وأختي المسكينة قعيدة، لا أستطيع توفير منزل لامرأة أخرى بسهولة. كما أنّها لن تتمكن من العمل في قريتي، إذ لا يتم توظيف المعلمات المتزوجات. لكنّي سعيد جدًا بأن والدتي ما زالت معي! لقد أصبحت الآن خفيفة، أستطيع أن أحملها على ذراعي، وأضعها في سريرها كل مساء، رغم خوفها. لكنّي لا أستطيع التوقف عن التفكير فيها، وفي الحقيقة، هي تحب ذلك أيضًا. بالطبع، يا ليزا، ظهرت الآن بعض الخصلات البيضاء في شعرك الأسود الجميل، تتلألأ كشعاع فضّي نقشته يد الله الحنونة بين خصلات شعرك. هل يمكنك أن تتخيلي ذلك؟ وعندما أراها سعيدة ومبتهجة بين أطفال مدرستها، يضيق صدري وأفكر قائلًا: (لو كانت تمسك بأيد أطفالنا هكذا!)، لكن هذا أنانية وظلم، إذا فكرت في مدى حظي، مقارنة بك، يا دودو، يا صديقي القديم والعزيز! لا، لا تتحدث عن الأمر الآن إن لم يكن لديك رغبة! لدينا وقت، سأبقى معك طوال مدّة

احتياجي إليك".

قال ديروجا: "لتكن هذه الفوضى نافعة لي؛ لأنه بدونها لم أكن لأراك بهذه السرعة، جابوسي! لقد أصبحت نحيفًا قليلًا، لكن بخلاف ذلك، ما زلت تحتفظ بوجهك القديم، المحبوب، الوقور المذهول! "لكنك لم تعد دافيد البرونزي(5) الخاص بي".

رد جابوسي:"تبدو شاحبًا ، وهذا بسبب نقص الهواء والحركة .هيا لنخرج في نزهة - أو، الأفضل، نأخذ عربة، وأنت تريني المدينة وما حولها».

كان اليوم رماديًا وهادئًا، وكانت العربة المفتوحة تسير ببطء في الشوارع المبتلة بالندى، مصحوبة بصوت قطرات المطر كأنها موكب موسيقي. جلس ديروجا مسترخيًا، وهو يجيب عن أسئلة جابوسي، الذي أبهجته الساحات والمباني الرائعة.

في شارع هادئ، التفت السائق، الذي تركوا له حرية اختيار الطريق، إلى بوابة من حديد مطاوع، فتعرف ديروجا عليها فجأة. كان الطريق المرصوف الذي يمتد بمحاذاة المنازل خاليًا، وكانت شجيرات الليلك لا تزال بلا أوراق، بينما امتدت شجرة صفصاف بأغصانها النامية في قوسٍ دقيق ورقيق.

سأل جابوسي الذي وضع ذراعه على ذراع صديقه الذي استقام فجأة:

- "ما خطبك؟".

قال ديروجا: "لقد مررنا لتوّ عند المنزل الذي كانت تسكن فيه المسكينة مارموت".

صمت جابوسي. وبعد فترة طويلة قال: "لقد كنت سعيدًا يومًا ما، أليس كذلك يا دودو؟".

أجاب ديروجا: "لا، آنذاك لم أكن كذلك، كان مزاجي قلقًا، وقلبي مفرط الحساسية، وعقلي حادًا أكثر مما ينبغي. أظنّ أن عليّ أن أكون إلهًا لأتمكّن من أن أسعد بقدراتي".

قال جابوسي: "لكن من الجميل أيضًا أن تكون موهوبًا كما أنت. هل تذكر كم مرة قال لك معلّم الدين: (سيجيسموندو، لديك عقل، بل ما يكفي من الفطنة. لكنّ العقل نار جهنمية، أما الحكمة فهي نورٌ إلهي. وكثير من صانعي المكانس العجائز أوفر منك عقلًا وحكمة)؟".

ضحك ديروجا وقال: "نعم، كان سيّئ الظنّ بعقلي. وأتذكر أيضًا كيف حذّرك مني، وتنبأ بأنني سأصبح ماسونيًا وملحدًا، إن لم أكن قد أصبحت قدّيسًا".

في تلك اللحظة، كانت العربة قد بلغت أطراف المدينة؛ حيث تمتد المنتزهات العامة، ورأيا نهرًا قويّ الجريان يشق طريقه بين جذوع الصفصاف والحور العتيقة عبر المروج الفسيحة. عندها تداخلت في نفس ديروجا ذكرى مؤلمة من الماضي القريب، مع ذكريات الطفولة، فغمره شعور بالصفاء

والحلم.

قال جابوسي: "في تلك الأيام، عندما كنّا صبيّين، كنتَ سعيدًا آنذاك، أليس كذلك؟".

أجاب ديروجا: "لو لم أكن أشعر، في عمق السعادة هذه، بمدى ما كان يحيط بي من قبحٍ وبؤسٍ وزيفٍ وظلم، لربما كنت سعيدًا حقًا".

قال جابوسي متعجبًا: "أنت، الذي كانت لك أمّ كالملاك! وهل تذكر كم كنت تحب المجيء إلى بيتنا، وكيف كنت تلتزم الصمت حين كانت أمي تُقبّلك على جبينك وتناديك (أيها الغريب الصغير)؟ وهل تذكر كيف كنّا نجلس تحت السقف نراجع واجباتنا ونرتعد خوفًا من كل ظلٍّ يمرّ؟".

وحين عاد الصديقان من جولتهما، كان الارتياح قد سرى في نفس ديروجا، فقال وهو يلتفت إلى جابوسي: "عندما تنتهي هذه القصة الغبية، سأبدأ حياة جديدة. ما رأيك لو جئت لأعيش معك في الجبال؟".

قال جابوسي، غارقًا في الفرح: "إذن، يا دودو، ستصبح حياتي جنة. وتخيّل فرحة والدتي وأختي! وكم ستفرح ليزا من أجلي! أعظم سعادة لليزا هي عندما يحدث لي شيء سعيد. تخيّل أنّك ترافقني أحيانًا في جولاتي، ونتحدث وندردش ونتبادل الذكريات كما نفعل اليوم!".

قاطعهم طرق خفيف على الباب، كان قد سُمِع مرات قليلة

وسط حديثهم الصاخب. وعندما ذهب جابوسي ليفتح الباب، رأى فتاة صغيرة، رقيقة، شعرها أشقر، وعيناها الكبيرتان الداكنتان تنظران إليه بخوف، لكن مع وهج من الحماس أيضًا.

قالت الفتاة بصوتٍ صافٍ، متأثر قليلًا بالتوتر والارتجاف: "أودّ التحدث مع الدكتور ديروجا. هل هو أنت؟".

هزّ جابوسي رأسه وأشار إلى صديقه بعينيه، مستفسرًا عمّا إذا كان عليه أن يذهب.

قال ديروجا، واضعًا يده على ذراع جابوسي: "لا، ابقَ"، ثم سأل الآنسة الصغيرة عن اسمها الذي يشرفه معرفته.

قالت الآنسة الصغيرة: "أنا مينغو، من عائلة تروشكوفيتس، وقد أتيت لأخبرك أنّه يؤسفني جدًا أن والدتي شرعت في القضية ضدك، وأنّي لا علاقة لي بذلك، لا شيء على الإطلاق. وبما أنّ عمّتي قد خصّتك بالثروة، فهي تعود إليك. وبصراحة، والدتي لا تملك أي حق فيها، لأنها لم تهتم يومًا بالسيدة سويتر".

قال ديروجا: "يا لها من طفلة مسكينة! لا بدّ أنّه كان صعبًا عليكِ أن تأتي إليّ بمفردك. الآن، لو كبُرت مينغو الصغيرة، لكانت في مثل عمرك تقريبًا"، وأضاف بعد لحظة صمت، وعيناه متطلعتان إليها بمحبة: "كنت أنظر إليك بهذه المشاعر الحنونة".

قالت مينغو مترددة للحظة: "لقد قالت لي الشيء نفسه زوجتك الراحلة عندما رأتني".

سأل ديروجا: "هل سبق لك زيارة زوجتي؟ متى كان ذلك؟ احكي لي عن الأمر".

قالت مينغو: "كان ذلك قبل ثماني سنوات. زرتها لأنني سمعت عنها كثيرًا، وكل ما سمعته جذب اهتمامي. عندنا وجدت كل شيء اعتياديًا وعاديًا وغير مهم. أحببت أن أتخيل أن هناك رابطًا ما بيني وبينها، لأن اسمي يشبه اسمها. أعجبتني كثيرًا، وكانت بالنسبة لي أسطورة سرية غامضة؛ لكنها قالت لي ألا أعود إذا اضطررت للقدوم دون علم والديّ. ربما أحزنتها زيارتي أيضًا، لأنني ذكّرتها بطفلتها الراحلة".

قال ديروجا بحرارة: "على الأقل، هكذا يعيش جزء صغير من مينغو". ثم سأل بعد لحظة صمت: "برأيك، هل تتهمني بالظلم؟".

قالت مينغو بحزم: "استنادًا إلى ما أخبرتني به زوجتك عنك آنذاك، أنا مقتنعة تمامًا بأنك لم تؤذِها عمدًا أبدًا".

قال ديروجا: "لقد سببت لها الكثير من الأذى، لكن بدافع الحب".

قالت مينغو بحزم: "هذا لا يُحسب"، ثم أضافت مترددة: "زوجتك أظهرت لي أيضًا صورة لك".

قال ديروجا ضاحكًا: "لكن يبدو أن هناك اختلافًا، أو ربما

تغيّرتْ كثيرًا منذ ذلك الحين".

فأجابته مينغو: "ليس كثيرًا، فأنت لست كما تخيّلتك في البداية".

تدخّل جابوسي مؤكدًا أنّ صديقه تغيّر إلى الأفضل فقط، وألحّ على الآنسة الصغيرة أن تؤيّد رأيه.

فقالت، وقد احمرّ وجهها خجلًا: "لا أعلم، لكنّ السيد ديروجا لا تبدو عليه ملامح الشيخوخة".

ابتسم ديروجا بلطف، وقال: "بالنسبة لكِ أنا رجلٌ مسنٌ وحكيم، وبهذه الحكمة أقدّم لك نصيحة صادقة: لا تجعلي ما بيني وبين والدتك سببًا للخلاف بينكما، حتى وإن ظلمتني. فالطفل مدينٌ لأمه بدَينٍ عظيم، لا يستطيع أن يردّه يومًا من الأيام. لكِ أن تعبّري عن رأيك المخالف لرأيها، ولكن قولي ذلك دائمًا بنبرةٍ يملؤها الحنان. هل تعديني بذلك؟".

مدّ ديروجا يده نحوها، فوضعَت مينغو يدها الصغيرة فيها، وغمرها شعور صادق بالتأثر.

وحين غادرت الآنسة الصغيرة، التفت جابوسي إلى صديقه واحتضنه بحماس، ممتدحًا شجاعة الفتاة وبراءتها، ثم بدأ يسأل عن أمها، واصفًا إيّاها بالشيطانة.

قال ديروجا بهدوء: "لو كانت كذلك بعدُ، لكان الأمر مختلفًا. أما اليوم، فهي امرأة رقيقة الملامح، فارغة الروح، لا يشغلها سوى المتعة، سطحية إلى حدّ يجعلها عاجزة عن الانغماس

حتى في الرذيلة. إنها صورة صادقة لمجتمعنا، الذي يكرّم كبار اللصوص ويعلّق الصغار على حبال المشنقة. ومع ذلك، مظهرها لا يبدو منفر".

تساءل جابوسي بدهشة: "ولماذا إذن تكرهك؟".

أجاب ديروجا مبتسمًا: "لأنني استحوذت على المال الذي كانت تعتبره ملكها منذ زمن. ومع ذلك، يبدو أنّني لا أثير فيها أي نفور".

حدّق جابوسي بدهشة أكبر: "ماذا تقصد؟ هل تحدثتَ معها؟".

ابتسم ديروجا، وقال بثقة: "حتى الآن، اقتصر تواصلنا على النظرات فقط. لكنني أفهم النساء جيدًا... ولو رغبتُ، لكانت مستعدة بلا تردد لبدء علاقة غرامية معي".

صاح جابوسي مستنكرًا: "لكن يا دودو، هذا انحراف فاضح! أن تُغازل امرأة رجلًا على وشك أن يُرسل إلى السجن أو ربما إلى المشنقة! لا أفهم مثل هذه الأمور. لو استطعت إخراجك من متاهة قصص النساء التي هي السبب الرئيسي لمصائبك! يجب أن تتزوج مرة أخرى، امرأة بسيطة، صالحة، محبة، ثم تأتي لتعيش معي في الجبال. ما فائدة هذه الفوضى المدمرة؟ الهواء، الضوء، النظافة، هذه أهم أسس الصحة الحديثة".

قال ديروجا مبتسمًا: "ممتازة للأرواح السليمة، لكن المرضى

يحتاجون إلى الطين الدافئ والبيئة المتعفنة والرطبة".

قال جابوسي، غاضبًا: "هراء! هذه العبارة هراء، وفرضية كونك مريضًا أيضًا هراء. أنت فقط كسول وطيب القلب. وعدني ألا تبتكر شيئًا جديدًا! ولا حتى بدافع الشفقة، فالحب، يغرق النساء أكثر فأكثر في الوحل. أعدني أيضًا، إذا كانت هذه البارونة حقًا تنوي مغازلتك، أن تمنحَها الجزاءَ المستحق!".

أراد ديروجا أن ينفجرَ ضاحكًا من صديقه، الذي وقف أمامه ملوّحًا بذراعيه الطويلتين، كواعظٍ متشدّد. قال أخيرًا بعدما استطاع الكلام مرةً أخرى: "إنما أرغب في استفزازها أكثر، لأتمكّن بعد ذلك من إيذائها وإحراجها بأقصى درجة ممكنة. أنا أحتقر هذه المرأة."

تنهد جابوسي، وقال: "يا دودو! هذا تصرّفٌ خادعٌ وخطير. دَعها تفعل ما تشاء إن كنتَ تحتقرها! افعل ذلك من أجل الصغيرة الرائعة، إن لم تفعل بدافع احترامك لذاتك!".

ارتسم على وجه ديروجا تعبيرٌ رقيق. وقال: "الصغيرة مينغو... لا أريد أن أؤذيها حقًا".

قال جابوسي بحماسة: "أترى؟ لقد كان فقدان ابنتك حادثًا مؤسفًا. لو كنتَ معها لكانت خطاها دومًا على دروبٍ نقيةٍ وجميلة".

قال ديروجا، وقد عبس وجهه فجأة: "أو لقد كنتُ لأجرفها

معي في الوحل".

وبّخه جابوسي: "يا رجل، لا تتفوه بكلامٍ يائسٍ كهذا! وإلا فقد أضلّ أنا أيضًا من جراءك".

عانق ديروجا صديقه وقبّله: "ما زلت أنت كما كنت دائمًا"، ثم قال ضاحكًا: "هل نسيت أنّه لا ينبغي أخذ كلامي على محمل الجد بهذا الشكل؟ لستُ خوخًا رقيقًا مزروعًا على تعريشة يُعامل بلطف. لا تُؤخذ أقوالي مباشرةً؛ يجب أولًا أن يُصفّى منها بعض الوسخ وتُزال عنها الرغوة. أنسيت ذلك؟".

ضحك جابوسي بدوره: "أنت محق، أنا أحمق بطيء الفهم، لا عجب إذا اجتاحتك أحيانًا نزوات غريبة في وضعك التعسّ، ويجب فوق كل شيء وضع حدّ لتلك النزوات".

المستشار القضائي، الذي طُلب رأيه، عبّر عن موقف يتسم بالتفاؤل إلى حدّ ما، فقد ذكر أنّ ديروجا وإن لم يترك انطباعًا حسنًا تمامًا، وبقيت أمورٌ كثيرة غامضة في طيّ الظلام، بحيث لا يمكن إسقاط جميع الشبهات، لكن الأدلة المتوفّرة، في رأيه، لم تكن كافية إطلاقًا لأن يُصدر المحلّفون أصحاب الضمائر الحيّة حكمًا بالإدانة استنادًا إليها.

أما مشاعر جابوسي الودّية فلم تكن راضية بذلك؛ فقد أصرّ على أن يمثل كشاهد، كي يرى الناس ديروجا بعينيه هو – أي كما هو في حقيقته – ويبرّئوه، لا لأنه لم تُثبت إدانته، بل لأنهم سيقتنعون ببراءته حقًا.

قال له: "لقد تعرفوا عليك من خلال أحكامهم المسبقة، ولم يعرفوا عنك سوى جزءٍ صغيرٍ فقط. وهل يمكن الحكم على لوحةٍ فنية إذا لم يُرَ منها سوى جزءٍ لا يتجاوز المليمتر؟ سأحدّثهم عن طفولتك وشبابك كما أنت، من دون مبالغةٍ أو تزييفٍ بإضاءةٍ مصطنعة. إنها طريقةٌ استقرائية، لا بدّ أن تروق للعلماء الألمان".

أعطت ملامح جابوسي انطباعًا حسنًا؛ فقد بدت عيناه البنيتان الصادقتان، وتصرفه البسيط وحديثه الصريح، لائقة بالألمان. وبما أنه درس بعض الفصول في فيينا، كان يتقن الألمانية جيدًا، مع ضرورة التحدث ببطء وحذر. روى أنه يعرف المتهم منذ الطفولة، فقد درسا معًا في المدرسة نفسها، ثم في الثانوية نفسها. وكان دودو، كما يُلقب، مرحبًا به دائمًا في بيت جابوسي العائلي، وقد أُعجب الجميع بما حققه وبكفاحه الكبير في ظل ظروف صعبة.

سأل رئيس المحكمة: "ما هي تلك الظروف الصعبة".

أجاب جابوسي: "ظروف أسرته لم تكن سهلة. كان مشغولًا كثيرًا في المنزل، حتى اضطر غالبًا للسهر لإتمام واجباته المدرسية".

سأل الرئيس: "وماذا كان يعمل والده؟".

قال جابوسي: "كان والده بائع فواكه، ويمتلك محل صغير لبيع الفاكهة خلف مبنى البلدية القديم".

قال الرئيس، وهو يقلب في الملفات: "حسب أقوال ديروجا، كان والده تاجرًا".

قال جابوسي: "حسنًا، بائع الفواكه يُعتبر تاجرًا بالفعل".

وأضاف، وهو يلقي نظرة قلقة على صديقه: "على أي حال، لم يكن يثبت على وظيفة واحدة بشكل دائم. كان رجلًا صالحًا، لكنه مضطرب المزاج".

وطلب الرئيس من الشاهد أن يصف والده بمزيد من التفصيل.

أجاب جابوسي: "لم أره وأتحدث معه إلا قليلًا، لذلك لا يمكنني إصدار حكم قاطع عليه. وعندما كنت أراه، كان في أغلب الأحيان جالسًا في زاوية حزينًا ومنعزلًا، ونادرًا ما كان مزاجه مرحًا، حينها كان يضحك بصوت عالٍ ويداعب الناس".

سأل الدكتور زيونمان: "إذن، لم يكن موجودًا دائمًا؟".

أجاب جابوسي: "لا، أحيانًا كان يمر بنوبة تجبره على مغادرة العائلة والتجوّل بلا هدف محدد. وكان يختفي أحيانًا لأسابيع، بل لشهور".

سأل الرئيس: "هل كان يشرب؟".

أجاب جابوسي: "أوه، ليس كثيرًا، لم يكن سكيرًا، لكنه كان غريب الأطوار للغاية. كانت تنتابه بين الحين والآخر رغبة لا تُقاوم في أن يعيش تجارب جديدة، دافع داخلي نحو المغامرة. لم يكن مهيأً لحياةٍ أسرية، وكان ذلك نقمة على

زوجته وأطفاله. ولحسن الحظ، كانت زوجته ملاكًا، حقًا ملاكًا، وكذلك دودو، الابن الأكبر، لم يكن أقل منها طيبةً؛ كان صورة مطابقة لها، في المظهر والجوهر معًا".

تدخّل الرئيس قائلًا: "إذن، كان له إخوة آخرون؟ وماذا كان حالهم؟".

أجاب جابوسي مترددًا: "لا شيء مميز. لقد ورثوا من أبيهم ذلك الشغف المؤسف بالمغامرات".

فسأل الدكتور زيونمان: "والابن الأكبر؟ ألم يرث شيئًا من ذلك؟".

قال جابوسي بحماس: "على العكس تمامًا. لقد كان، وهو طفل، سندًا لأمه. كان يعتني بإخوته الصغار، ويساعد في المطبخ، وفي شؤون البيت، وفي الدكان أيضًا، وكان يفعل كل ذلك وهو يغنّي كالعصفور. وكانت أمه دائمًا مبتهجة، ممتنّة لله لأنه منحها مثل هذا الابن. كانت تقول دائمًا: (لقد أرسل إليّ أرقّ ملائكته، حتى إنني أعيش على هذه الأرض في نعيمٍ من نعيم السماء). وإذا أحزنها أنه يعمل بجدٍّ شديد، كانت تواسي نفسها بأن الله سيمنح ابنها المحبوب القوة. وبينما كان يسهر ليلًا لينجز واجباته المدرسية، أو عندما كرّس نفسه للدراسة فيما بعد، كانت تجلس بجواره تخيط أو ترفو الثياب. لقد عاشا حقًا في جنةٍ صغيرة، ما دام الأب غائبًا".

سأل الرئيس: "هل كان يسيء معاملة زوجته وأطفاله؟".

أجاب جابوسي، وهو يلقي مرةً أخرى نظرة قلقة نحو صديقه: "لا أستطيع أن أقول الكثير حول ذلك، فدودو ولا حتى أمه تحدّثا يومًا في هذا الشأن. لكن بعد وفاتها، كانت تقع أحيانًا مشادات بين الأب والابن؛ فقد كانت المسكينة دائمًا تضبطه وتحدّ من تصرفاته".

سأل الرئيس: "هل كان يشارك في شؤون المنزل والعمل التجاري؟".

أجاب جابوسي: "صديقي كان يقوم بما يستطيع. لقد كان بمثابة الأب والأم لإخوته القاصرين، رغم أنه كان آنذاك فتًى رقيقًا. وأحيانًا، عند حلول الظلام، كان يذهب لتوزيع البضائع على البيوت بعربته. أما الأب فكان يزداد تهورًا وعدم تحمل المسؤولية، وكان هو ذاته يشجع الأطفال الأصغر على السلوك السيئ والمقالب. لكان ذلك ليؤدي إلى كوارث لا تُحصى لو لم يكن يخاف من دودو".

سأل الرئيس: "هل أصبح ضعيفًا وهشًا؟".

أجاب جابوسي بحيوية: "على الإطلاق لا، لقد كان رجلًا كبيرًا وعضليًا، أقوى بكثير من دودو. لكن عند الغضب، تتضاعف قوة دودو مئات المرات. وكانت والدته المسكينة ترى أن الله قد منح دودو قوة استثنائية، ليكون درعًا يحميها ويصونها من كل مكروه. لقد رأيت والده يهرب أمامه وكأنه كلب يعلم أنه يستحق الضر".

استقام المستشار القضائي ببطء بكامل قامته، وقال: "سادتي، أعتقد أنني أعرف ما يفكر فيه كثير منكم الآن: ها نحن نرى مجددًا هذا الطبع المندفع والخطير لدى هذا الرجل! فمن يجرؤ على الاعتداء على أبيه، لماذا لا يعتدي على زوجته وهكذا.. أما أنا فقد رأيت الأمر بالعكس: فهذه الحِدّة الشديدة، التي تكاد تكون مرضية، لا تظهر إلا عندما يتعلق الأمر بمنع شر أو معاقبته. لدينا في ديروجا رجلًا شديد الانفعال، لكن ما يثير انفعاله هو الشرّ والقبح وانعدام الانسجام. وحتى الآن، لا يوجد أي مثال يثبت أنه اعتدى على أحد أو ظلم شخصًا بدافع أناني".

فأجابه المدعي العام: "لكن الغيرة في النهاية شكل من أشكال الأنانية، خاصة إذا لم يوجد سبب لها. كما أنه لا يجوز – خصوصًا لدى الأشخاص ذوي الميول المرضية، أو لنقل بدقة: غير المتوازنين نفسيًا – أن نُساوي بين سنّ الطفولة والشباب من جهة، وسنّ النضج والكبر من جهة أخرى. ونحن نرى في والد المتهم كيف ازدادت ميوله المدمّرة ظهورًا مع تقدّمه في العمر، وكيف كان اختفاء الضبط الذي كان يمثله له وجود زوجته المتديّنة أمرًا كارثيًا عليه. والشيء نفسه نجده عند المتهم: فمنذ انفصاله عن زوجته الجيدة والمحترمة بدأ انحداره".

استدار المستشار القضائي بهدوء، وقال: "انحداره؟ هنا يجب أن أعترض، أو على الأقل أطالب بتحديد التعبير بدقّة؛

فالأمر لا يتعلّق بسقوط، بل بانحرافٍ عن الطريق المألوف والمتّبع عادة. صحيح أنّ لدى ديروجا قد حدث نوع من الإهمال للمكانة الخارجية، وللألقاب، وللمظاهر الاجتماعية. لكن هذا لا يعني بالضرورة أنّ انهيارًا في الجانب الأخلاقي قد رافق ذلك. بل قد يكون العكس صحيحًا؛ فقد يرتبط الأمر بدرجة أكبر من التوجّه الداخلي الروحي. وبصفتي مواطنًا، فأنا بالطبع مؤيّد للنظام المدني. ولكن يجب ألا ننسى أن الدولة – وكلّ شكلٍ آخر ابتكره الإنسان – تتغذي كذلك من قوى تأتيها من الخارج، لنقل إن شئتم: من الفوضى".

فارتسمت ابتسامة ساخرة على وجه المدّعي العام، وقال: "هذه فلسفة، وبالفلسفة يمكن للمرء أيضًا أن يبرهن ضرورة وجود قتلة جماعيين أو مُسمَّمين".

قال جابوسي: "أما نحن، فنتعامل مع الجرائم ببساطة ودون تعقيد. المسيح كان له الحق أن يحب العشارين والخاطئين، أما نحن فمهمتنا تنحصر في معاقبة المخطئين".

ثم حرك الرئيس يده كما لو يمسح الطباشير عن اللوح، وقال: "هذا سيأخذنا بعيدًا"، ثم التفت إلى الشاهد: "هل حدث بينك وبين صديقك أي مشاحنات يومًا؟".

ابتسم جابوسي بحيوية، وقال: "أنا؟ أبدًا، أبدًا! ومع ذلك، لم يكن التعامل معي سهلًا دومًا. طباعي البطيئة كانت لتثير غضب شخص ناري الطبع مثل صديقي. أحيانًا ينفد صبره بسبب بطئي في الفهم، ومع ذلك، كان دائمًا متعاونًا ومستعدًا

للتضحية".

علق المدعي العام، وقال مبتسمًا: "إنه ملاك".

ثم سأله الدكتور زيونمان: "هل كان للمتهم أصدقاء كثيرون غيرك؟".

قال جابوسي: "لقد كان على علاقة طيبة تقريبًا مع الجميع، لكنه كان صديقًا حميمًا لي وحدي. وأنا مقتنع بأنه لا أحد يعرف أعماقه كما أعرف أنا".

علق الرئيس قائلًا: "هذا غريب حقًا، خاصة مع شخص تبرز طباعه النارية والاجتماعية".

أجاب جابوسي: "نعم، هكذا يظن المرء. وعندما رأيته بين زملائه في المدرسة ولاحقًا بين رفاق دراسته، قد يظن المرء أنه صديق للجميع. أتذكر أنني في البداية لم أتجرأ على التقرب منه، إذ اعتقدت أنني، ببطئي وصعوبة فهمي، لا أستطيع أن أكون له شيئًا، بينما كان محاطًا بكثيرين وكأنهم عائلة واحدة. لكن تلك الصحبة والود التي كان يظهرها، والتي جذبت الجميع، لم تكن سوى ستار يخفي روحه ليجعلها بعيدة المنال. لا أحد أصعب في معرفة أعماقه من شخص يبدو قلبه على لسانه. هناك أشخاص متحفظون يبعدون الآخرين عن أنفسهم بالصمت أو بالغموض، وهذا لم يكن أسلوبه. بل كان يبني حول نفسه جدارًا من خلال اجتماعيته وألفة حديثه".

كلما ازداد حماس جابوسي في شرح خصائص صديقه للرئيس، ازداد اهتمام الرئيس وتفهّمه لكلامه، فقال: "أنا أفهمك، أفهمك جيدًا. هذا يحدث عند أصحاب الطبائع الشغوفة والمفرطة الحساسية. عليهم دائمًا أن يكونوا حذرين كي لا يستنزفوا أنفسهم أكثر مما ينبغي، ومع ذلك يحتاجون إلى مَنفَذ يفرّغون فيه تلك الحيوية".

أكّد جابوسي قائلًا: "نعم، نعم، هذا صحيح. كان في أعماقه رقيقًا وسهل الانكسار، وكان يخجل من إظهار ذلك للآخرين الذين كانوا أشد قسوة ولا مبالاة منه، فكان يحجب نفسه بطريقته الخاصة. لم يكن كالحيوان الذي يُخرج أشواكًا أو حراشف ليحمي نفسه، بل لم يكن يستطيع إلا أن ينسج خيوطًا ملوّنة، ويختبئ خلف هذا البريق ليجعل نفسه غير قابلة للفهم. هذا ربما حماه من الاقتراب الشديد لأشخاص تختلف طبائعهم عنه، لكنه لم يحمه من الاصطدامات المؤلمة مع العالم الخارجي التي جعلت قلبه ينزف. يا لها من مأساة أنه اتُّهم مرارًا بأنه سبّب الألم للآخرين، وهو الذي كان يتألم باستمرار بسبب الآخرين!".

قال الدكتور زيونمان: "مثير للاهتمام جدًا. ولكن مهْ كان يعاني إلى هذا الحد؟ حسنًا... من والده. ومع ذلك، كانت لديه أم صالحة ومحبّة، وكان لديه أنت وعلاقته بأسرتك".

أجاب جابوسي: "لقد أحبّ أمّه حبًا لا حدود له، هذا صحيح، ولم يكن يعاني بسببها، بل بسبب الظروف التي كانت تحيط

بها. لم تشعر روحه يومًا بالانتماء إلى البيئة التي نشأت فيها. وكان يمتلك حسًا جماليًا راقيًا؛ فكل ما هو غير جميل أو عديم الذوق - سواء في الأشياء أو الناس - كان ينفّره بشدة. وبما أنه وُلد ونشأ في ظروف فقيرة أو على الأقل محدودة جدًا، فقد أدهشني دومًا مدى حساسيته المفرطة تجاه كل ما هو صغير أو قبيح وما يصاحبه من ابتذال. أما أنا، فلم أفهم هذا إلا تدريجيًا؛ ففي البداية كانت شكاواه تصل إلى أذني كأنها أشعار بالعربية أو الفارسية. كان هذا موضوعًا دائمًا لنقاشاتنا، ونقطة لم نلتقِ فيها أبدًا. ولأنني لم أكن أفهمه، فقد كنت كثيرًا ما أكون ظالمًا له - مثلًا عندما كان يقدّم الثراء كأسمى ما ينبغي السعي إليه. عندها كنت أبدأ في إلقاء المواعظ عليه كمعلّم للأخلاق... بل في الحقيقة كنت أتكلم أمامه دون أن أصل إلى عقله. فلم أكن أدرك الاحتياجات العميقة التي جعلته يتوق إلى الثراء بهذا القدر. طبيعتي الأبسط والأكثر خشونة كانت تتأقلم في أي بيئة؛ فهي أشبه بصوتٍ فطريّ، وما دمتُ لا أُوضَع في صالونٍ متألّق، فإنها تستطيع أن تنسجم بانسجامٍ تام. أمّا مع سيمفونيةٍ غنية فالأمر مختلف. صديقي كان يحتاج إلى الجمال من حوله، ذلك الجمال الذي تذوب فيه النغمات الكثيرة التي لا نهاية لها، والتي تكون متعارضة في بعض الأحيان".

فقال الدكتور زيونمان:

- "إذن هناك نقطة اختلاف بينكما".

فأجاب جابوسي:

- "بالتأكيد، لكن ذلك لم يتجاوز يومًا حدود اختلافٍ بين صديقين. كنا نقبل بعضنا كما نحن، بل كان أحيانًا يتمنى لو كان مثلي في سهولة شعوري بالرضا".

فقال الدكتور زيونمان بارتياح:

- "يعجبني أن صديقك - مع حساسيته الشديدة تجاه الجمال - اختار دراسة الطب، مع أن فيها الكثير مما هو منفّر ويتطلّب تجاوزه".

قال جابوسي:

- "أوه، لقد ساعده في ذلك ميله الطبيعي لمساعدة الآخرين، وحبه لتخفيف آلام كل مريض ومتألم. كان موهوبًا جدًا في عمله، حتى يمكن أن نسميه عبقريًا في مهنته. كما أنه رأى أن هذه المهنة أفضل وسيلة لكسب المال، وهذا كان مهمًا لعائلته، وكان يسعى لذلك أيضًا لأسباب شخصية".

سأله الرئيس:

- "وبرأيك، لماذا لم ينجح رغم كل هذا؟".

أجاب جابوسي:

- "ليس لأنه كان ضعيفًا أو غير كفء. قلت سابقًا إن روحه كانت غنية ومتعددة الطبقات. كان يتوق للمال بشدة، لكنه في الوقت نفسه كان يحتقره؛ فقد كان ينفق الكثير ليحصل

على القليل فقط. كان يعمل بسرعة وبإتقان، لكنه كان يقضي وقتًا أطول في الحلم والتفكير بالثراء أكثر من العمل الفعلي لكسبه. لقد وُلد مزودًا بكل الفضائل التي تجعل الإنسان يستمتع بالثراء بطريقة نبيلة، لكنه لم يمتلك الفضائل التي تجعل الإنسان ثريًا أصلًا. للوصول إلى الثراء، لا يكفي أن يعرف المرء كيف يكسب المال، بل يجب أن يعرف أيضًا كيف يحافظ عليه، وهذه القدرة لم تكن لديه. كان هذا التناقض المأساوي بداخله، وما أرى أنه يمكن التوازن معه إلا إذا فهم الإنسان أن المال وأشياءه ليست مهمة حقًا، وأن ما يقدمه المال لا يساوي شيئًا حقيقيًا. حتى أفقر الناس يمكنه أن يستمتع بالجمال بلا حدود إذا تأمل الطبيعة بعمق. وكان الخطأ الوحيد الذي ارتكبه ديروجا أنه لم يفعل ذلك منذ البداية. في العالم الكبير، لم تتمكن صراعات روحه من إيجاد حل".

قال الدكتور زيونمان مبتسمًا: "نحن مدينون لك بصورة دقيقة جدًا عن صديقك، وهي مفيدة بنفس القدر لأنها صُممت بواسطة صديق له". ثم أنهى التحقيق بعد أن طرح بعض الأسئلة التافهة الأخيرة.

عندما غادر المستشار القضائي المنزل برفقة الصديقين، كان وقت انتهاء الدوام، وامتلأت الشوارع بالناس، لكن في الحدائق خلف مبنى المحكمة كان الهدوء كما هو دائمًا. ومع الضوء بدا أن الأشياء قد خلعت ثوبها الملون واحتفلت بعريها

الرقيق على ضفاف الليل الذي لا حد لنهايته، قبل أن تنسجم مع ظلام الليل الداكن.

لم يكن جابوسي راضيًا تمامًا عن نتيجة ما صرح به. قال إن الأمور خرجت كلها مختلفة عما كان يقصد. وكأن التيار يجرف الإنسان بعيدًا عن المسار الذي خطه، دون أن يدرك كيف حدث ذلك.

قال ديروجا مواسيًا: "كل ما قلتَه كان جميلًا ومناسبًا. بدا لي فقط زائدًا بعض الشيء، كما لو قدمت لألماني طبق ريزوتو ميلاني فاخر، فيستنشق أنفه ويطلب البطاطس بدلًا منه. لكن وماذا في ذلك؟ بالنسبة لي كان جميلًا أن أحلم معك بالماضي".

قال المستشار القضائي: "نعم، فكما قال شكسبير: إن الألم بعد أن يمضي لا يبقى منه إلا حديثٌ لطيف".

فأضاف جابوسي: "لكن على العكس - كما يقول دانتي - لا شيء يُوجِع أكثر من تذكُّر السعادة الماضية وقت الشقاء".

عند المنحدر، حيث كانت أول زهرة جرس الثلج تُخرج رأسها ذات اللون الأصفر من الأرض، توقّف ديروجا.

- "ها هي إحدى المخلوقات الصغيرة"، قال ديروجا، "تطل مثل فأر من جحره".

"انظر"، قال المستشار القضائي منتصرًا، "لقد سخرتم مني حين كنت أزيل الأوراق الجافة من رأسه".

"وكنتم مخطئين"، رد ديروجا، "فربما الآن ستأتي القطة لتأخذها".

"هل تقصد الصقيع الليلي؟" سأل المستشار القضائي. "هذه النباتات المبكرة تتحمل الكثير، فهي مهيأة لذلك. اسمع، يا صديقي"، أضاف وهو يشده بعيدًا، "أنت تبالغ في مشاعرك، وهذا لا يعجبني".

لم يتحرك ديروجا من مكانه، وظل محدقًا في الأرض الرطبة. خطرت له بيت من شعر قديم، ورده بعد أن استحضر معناه:

- “La doglia mia cresce coll' ombra”.

"يبدو وكأنه نغمة من آلة أماتي"(6)، قال المستشار القضائي، مستمتعًا بموسيقى البيت شعوريًا. "وماذا يعني هذا؟".

ترجم ديروجا: "ألمي يكبر مع الظلال".

"إذن مع شروق الشمس يزول، ولا يعني أكثر من مجرد إحساس مسائي". هز جسده كما لو كان يتخلص من مزاجه الكئيب، وتحول سريعًا نحو المخرج.

قال جابوسي: "حين تصل إلى قريتي الجبلية، ستتلاشى عنك هذه المشاعر تمامًا. هذا غبار الفحم من المدينة الكبيرة، تلتهمه سماء المرتفعات النقية".

سأل ديروجا: "هل سيؤثر عليّ هذا الهواء النقي حقًا كما تقول؟ أنا لست فلاحًا بطبيعتي".

صرخ جابوسي بحيوية: "ستصبح فلاحًا! حين تتعلم ألا تهتم إلا ببضع أبقار وماعز صغيرة، ستقوى بنيتك". وطلب من المستشار القضائي أن يؤيده في الرأي.

قال الأخير بحذر: "قليل من حياة الفلاحين سينفعك بالتأكيد".

قال ديروجا: "تقصد أنه لو أمكن تفكيك هذا الرجل المعقّد إلى مكوّناته، ثم صنع رجلٍ جديد منه، لكان بالإمكان مساعدته".

ضحك المستشار القضائي وقال:

- "لكن ماذا لو لم يعد أحد يعرف ديروجا القديم؟ ألن يكون ذلك مؤسفًا؟".

وعندما أصبح جابوسي مع ديروجا بمفردهما في غرفته، واصل رسم صورة الحياة له في قريته الجبلية. قال إن ديروجا يمكنه مرافقته في جولاته، فهو يجيد التعامل مع البسطاء، وسيصبح محبوبًا في المنطقة كلها. وأضاف أن نساء القرية سيكون لديهن الكثير من الأحاديث معه، وإن احتاج إلى عمل يشغله، فيمكنه معالجة بعض المسائل الطبية. فهناك أيضًا فرص للعمل اليدوي؛ فالناس هناك متأخرون أكثر من مئة عام، ويستخدمون أدوات تعود إلى العصور الأولى،

مما يفتح مجالًا واسعًا لمهارته ولموهبته في الابتكار.

فقال ديروجا:

- "آه... كم أنك لا تعرفني جيدًا! ألا تدرك أنني بعد ثمانية أيام سأشعر بالملل، وبعد أربعة عشر يومًا سأقتلك... أو أقتل نفسي؟".

سأل جابوسي بدهشة وهو يفتح عينيه أكثر:

- "ستسأم؟ وكيف ستسأم؟ أتشعر بالملل هنا في المدينة؟".

فأجاب ديروجا:

- "لا... هنا أستطيع الاحتمال. هذا الزحام من الديدان التي تزحف فوق العفن يسلّيني. أنا أكره هذا كله... لكنني أستخدمه. إنه شكل الحياة الوحيد الذي أستطيع استيعابه. أما جبالك تلك فترتكِب معدتي كعجين رطب".

فقال جابوسي مستنكرًا:

- "لا أفهمك! من المستحيل أن تكون جادًا. الروح الطيبة لا بد أن تجد راحتها في عظمة الطبيعة وبساطتها".

فردّ ديروجا بنفاد صبر:

- "آه يا جابوسي... الإنسان ليس مثلثًا لنطبّق عليه نظرية فيثاغورس! صدّقني... في النهاية سأغوي أختك الطيبة فقط لأعكّر قليلًا من صفاء جوّكم النقي!".

قال جابوسي متألمًا:

- "دودو... لو أن أمك المسكينة سمعتك تتحدث هكذا!".

ثم أضاف: "هي مجرد كلمات... مجرد كلام، لكن هذه الكلمات وحدها تمزّق قلبي".

واستمرت المحادثة بينهما حتى ساعة متأخرة من الليل دون أن يتوصلا إلى أي تفاهم. فقد أصرّ جابوسي على البقاء في ميونخ حتى تنتهي التحقيقات، ثم - إن جرت الأمور كما يتمنى - أن يأخذ ديروجا معه فورًا إلى القرية.

لكن ديروجا عبّر عن رفضٍ قاطع للفكرة.

بل على العكس، حاول إقناع جابوسي بأن يسافر دون إضاعة وقت، مؤكدًا أن والدته وأخته ومرضاه ينتظرونه هناك بفارغ الصبر، وأنه لن يستطيع تقديم أي نفع هنا في الوقت الحالي.

وفي النهاية استسلم جابوسي لرأيه، لكنّ الحزن وخيبة الأمل أثقلا قلبه.

في لحظة الوداع، عانقه ديروجا بالحرارة القديمة نفسها، والدموع تلمع في عينيه.

وقال له:

- "انسَ كل الكلام اليائس الذي تفوّهتُ به، وصدق شيئًا واحدًا فقط: أن قلبي ما زال كما هو، لم يتغير. وإن قسا عليك القدَر غدًا وجعلك أحمقًا مرتعشًا لا يعرف حتى أين

فمه، فسآخذك معي، وأطعمك بيدي ما حييت. ودعني أصدّق أنك ستفعل الشيء نفسه من أجلي! أيّ مستنقع قذر ستكونه الحياة لو لم يكن فيها قلوب ثابتة لا تتبدل!".

فقال جابوسي، وعيناه البنيتان الكبيرتان تلمعان:

- "الحمد لله... أظنني كنت سأشك حتى في السماء فوق رأسي لو اضطررت يومًا أن أفقد إيماني بك!".

الفصل العاشر

جلست البارونة مع ابنتها أمام المِدفأة التي يتم تسخينها بالغاز، تتأمل قدميها النحيلتين المستندتين إلى الشبكة الحديدية، حينها قالت:

- "ما رأيكِ يا مينغو... لو منحتُك الإذن بالدراسة؟".

كانت مينغو تقف خلف والدتها عند حافة النافذة، تحدّق في بلاط الطريق الذي أصبح لامعًا وداكنًا بعد أن هطلت عليه زخات مطر ربيعية غزيرة، وانعكست عليه الأضواء التي أُضيئت للتو. كانت نبرتها ضعيفة متعبة وهي تُلقي سؤالًا مضادًا على أمها:

- وهل تنوين حقًا أن تسمحي لي؟".

أجابت البارونة:

- "لقد فكرت... بأني لن أستطيع يومًا أن أجبرك على زواج لا ترغبين فيه، وأنه لا بد من التفكير في ما سيؤول إليه مستقبلك إن تزوجتِ متأخرًا... أو لم تتزوجي أبدًا. فهل تعتقدين أن الدراسة ستكون شيئًا مرضيًا لك وسيمنحك السعادة؟".

قالت نبرة الصوت الضعيفة القادمة من النافذة:

- "سعيدة؟ آه يا أمي! لكن على أي حال ستشغلني بطريقة مفيدة وممتعة".

قالت البارونة بدهشة، وربما بشيء من الاستياء:

- في السابق، حين كنتِ تزعجينني بهذه الرغبة كثيرًا، كنتِ تتصرفين كما لو أن سعادتك تعتمد عليها بالكامل".

ابتعدت مينغو عن النافذة، وجلست على كرسي بجانب والدتها.

وقالت: "هل تتلاشى كل الرغبات حين تصبح على وشك أن تتحقق؟ لكن يا أمي، ربما لا أستطيع أن أشعر بالسعادة الليلة لأني متعبة. وإذا منحتِني الإذن الآن، فسأستيقظ غدًا وأنا سعيدة به تمامًا".

نظرت البارونة بعينين ودودتين وذهنًا متفكرًا.

"لا، لا تذهبي إلى الفراش الآن، يا صغيرتي"، قالت. "أجد من الجميل جدًا أن أتحدث معك بمفردي. تعلمين، الزواج ما زال خيارك، لكنه ليس ممتعًا كما تتصورينه الآن، خصوصًا إذا كان بدافع المال فقط".

سألت مينغو: "هل تزوجتِ من أبي فقط بدافع المال؟".

"حسنًا، ليس بالمعنى الحرفي، لم يكن مقبولًا لدي لو لم يكن ثريًا"، قالت البارونة. "على العكس، لقد أعجبني وجذبني إليه. لكن ربما لم نكن لنصل إلى الزواج لو لم يكن يملك المال".

سألت مينغو مترددة: "ألم يعجبك بعد ذلك بنفس القدر؟".

قالت البارونة: "أوه، بالطبع كان يجب أن يعجبني. إنه نبيل

للغاية، لا يتطفل أبدًا، ذو ذوق رفيع. لكن ممل، فقط ممل... يمكنك أن تتخيلي ذلك!".

أومأت مينغو برأسها وقالت:

- "نعم، أستطيع أن أتخيل ذلك. لكنّي كنت أظن أن هناك حبًا بينكما!".

ضحكت البارونة وقالت:

- "آه، يا لصغر هذه الحماقة! الحب وحده لا يكفي لتجاوز كل صعوبات الزواج".

حدقت مينغو بعينيها الكبيرتين الداكنتين في صفيحة النحاس المشتعلة في المدفأة، وقالت:

- "آه... على الأقل وجود الأطفال يجعل الأمر مجديًا، أليس كذلك؟".

ضحكت البارونة ضحكتها الشابة الرقيقة:

- "أنت يا طفلتي، سرعان ما تهربين مني!".

فجأة شعرت مينغو بموجة كبيرة من الحب والعاطفة تجاه والدتها، فقفزت إلى حضنها، ولفّت ذراعيها حولها وقبلتها.

"أنتِ، شعري وتسريحتي!" صاحت البارونة بدهشة، ومع ذلك بدا أنها لم تمانع الاستسلام لهذا الانفعال العاطفي.

قالت مينغو بمرح أكثر من ذي قبل:

- "أترين؟ الدراسة أفضل فعلًا! ليست مملة... ولا يمكن أن تهرب منّي".

فقالت البارونة:

- "أمّا أنا فقد فاتني الوقت، لكن ربما يكون هذا مناسبًا لك".

بادرتها مينغو مطمئنة:

- "لكنّك ذكية يا أمي... وإذا أردتِ، ستقدرين على ذلك حتمًا".

هزّت البارونة رأسها، قائلةً:

- عقلي لم يُدرب يومًا على مثل هذه الأمور. يمكنه أن يقفز برشاقة فوق جدول ماء، أو يقطف زهرة، أو يقوم بأشياء لطيفة كهذه... لكنه لا يحتمل أي مجهود يحتاج إلى (عضلات). لم أعد أطيق بذل أي جهد على الإطلاق. ربما كنت سأستطيع ذلك في شبابي... لو وجدت ضرورة تُجبرني عليه أو دافعًا قويًا يحركني".

وبينما ما تزال مينغو جالسة في حضنها، سألتها برقة:

- "أمي... هل أحببتِ أحدًا يومًا؟ قبل زواجك؟ أو بعده؟".

أجابت البارونة:

- لا... لم أعِش حبًا حقيقيًا قط، في الواقع. تعلمين... حين كنتُ في مثل عمرك، كنت أحسب أنّ الحب هو ذلك الشعور اللطيف الذي ينتاب المرء عندما يكون موضع إعجابٍ

واهتمام. وكلما كان الشخص الذي يُظهر لك هذا الإعجاب أقرب إلى ذوقك، كان الشعور أجمل. أمّا أن أحبّ أنا... فلم يكن لدي لا الموهبة ولا الحاجة لذلك. وعندما تزوجت... وضعت في بالي ألا أسمح لنفسي بأي علاقة جدية خارج زواجي، وهذا وحده كان دائمًا يقف حاجزًا في طريقي".

كانت مينغو قد جلست على الأرض عند قدمي والدتها، تحدّق من جديد في وهج النحاس المتلألئ داخل موقد النار.

فسألتها:

- "إذن... أنتِ لا تعرفين مطلقًا شعور أن تستحوذ عليك عاطفة جياشة؟".

أجابت البارونة بلهجة تحمل لمسة حدة:

"يبدو أنك توجّهين إليّ شبه لوم"، لكنها هدأت بعد لحظة وأضافت بنبرة ألطف: "قد يكون هذا سببًا ألا أكون أسوأ. على أي حال، لم أفعل ذلك من أجل والدك فحسب، بل كان ذلك نابعًا من طبعي. لم تجذبني المواقف المثيرة أو الاضطرابات الكبرى، وما اخترته يومًا كنت حريصة على تنفيذه، وأرى في ذلك تعبيرًا عن الذوق الرفيع".

اقتربت مينغو، ووضعَت قبلة على يد والدتها المهندمة والمثقلة بالعديد من الخواتم الثمينة، وقالت:

- "نعم، أمي...".

قالت مينغو:

- "وأنا وأبي لدينا ما يجعلنا ممتنان لكِ... لكن من أجلك أنتِ تحديدًا أشعر ببعض الحزن".

فأجابتها البارونة برفق:

- "لا تشغلي بالك بهذا يا صغيرتي. ما لا يناسب الإنسان... لن يجلب له السعادة. لقد اخترتُ لنفسي طريقًا مختلفًا لأكون سعيدة".

سألتها مينغو بقلق:

- "وماذا تقصدين يا أمي؟".

احمرّ وجه البارونة، لكن وهج النار الأحمر في الموقد أخفى ذلك، وقالت:

- "سأخبرك في وقت آخر يا حبيبتي. أسمع سيارة تتوقف أمام الباب الآن... لا بدّ أنه والدك".

تعلّقت بها مينغو بسرعة، قائلةً:

- "أمي... لم تعديني بعد أنك ستتخلّين عن القضية. بدون هذا – لا شيء، لا شيء يمكن أن يسعدني. أنا مستعدة للتخلي عن الدراسة كلها، وأن أبقى معك دائمًا طوال حياتي كي لا تشعري بالوحدة... فقط افعلي ذلك من أجلي".

قالت البارونة وهي تصدّها بلطف:

- "لا تنفعلي يا مينغو... أنت تعلمين أنني لا أحب الانفعال. لا شيء في الدنيا يستحق أن يثير أعصاب المرء. وقد قلتُ لك

إنني سأناقِش الأمر مع المحامي".

فقالت مينغو بضيق:

- آه، محاميك هذا... هو الذي دفعك أصلًا للدخول في هذه القضية! إنه إنسان بغيض... فيه شيء زاحف، لزج، ماصّ، كأنه وُلد ليكون جاسوسًا. لا أفهم كيف يمكنك التعامل مع شخص مثله".

فأجابتها البارونة:

- "هذا لا يُسمّى تعاملًا. أنا فقط أستفيد من قدراته التي تجعله مناسبًا لهذا النوع من العمل. ولو كان رجلًا نبيلًا، لما استطاع أن يساعدني بالقدر نفسه. وربما يستغلني هو أيضًا، لكنه ما كان ليقدر على ذلك لولا أنه يعتقد أنني على حق، وأن قضيتي يمكن أن تنجح. أنتِ تتصرفين كأنها مسألة شخصية، بينما هي في الحقيقة جريمة تهمّ الرأي العام".

قالت مينغو بإصرار:

- "لا يجب أن يكون لكِ يد فيها! لقد اعترفتِ لي بنفسك أنك بدأتِ تشكّين في اقتناعك بأنه مذنب".

قالت البارونة:

- "قناعتي الشخصية ليست الفيصل. هيئة المحلّفين موجودة لتحديد ما هو الحق. الأمر كله متعلق بالعدالة، ولا أرغب في أن أفرض على نفسي شيئًا لا يوافق مقتضى العدالة".

صرخت مينغو:

- "أوه، أمي... لكن الانطباع العام عنكِ أنكِ تريدين انتزاع ثروة لم تكن مقررة لكِ من الأساس".

ظهر الألم بوضوح على وجه البارونة، وقالت:

- "الطفل الذي نشأ في رخاء لا يفكر عادةً في مصدر تلك الثروة. من السهل عليكِ أن تستخفّي بالمال، أمّا أنا... فإذا كان لي حق فيه، فسيكون من غير المنطقي أن أتنازل عنه".

قالت البارونة:

- "الأمر يعتمد على ما إذا كان لي الحق في ذلك - أي إذا لم يكن ديروجا له الحق، وكان بإمكاني المطالبة بما أستحقه مع بعض الأمل في النجاح. سيبيّن القضاء ذلك، وحينها يمكنني أن أفكر فيما إذا كان ينبغي لي متابعة القضية للحصول على الثروة".

قالت مينغو: "ولكن في الوقت الحالي، يمكنك المطالبة من محاميك بالتوقف عن مواصلة تحقيقاته؟".

أجابت البارونة مبتسمة بخفّة:

- "سأتشاور معه أولًا وأستمع إلى رأيه. وإذا اعتبر ديروجا بريئًا الآن، فسأكون أول من يفرح بذلك. الرغبات الشخصية هنا لا تخصك ولا تخصني".

الفصل الحادي عشر

في اليوم التالي بعد مغادرة جابوسي، زار المستشار القضائي موكله، الذي كان يجلس وحيدًا في الغرفة الباردة. لقد فتح النافذة لأن المدفأة الحديدية الصغيرة سخنت كثيرًا، ونسِي إغلاقها بعد أن أصبح الجو باردًا.

أحيانًا كان الريح يدفع زخّات مطر إلى الداخل، دون أن يلاحظ ذلك الرجل الوحيد، الذي كان يحدق أمامه بنظرة متعبة وكئيبة.

قال المستشار القضائي: "إذن صديقك قد سافر. هذا مؤسف... لا بد أنك تشعر بالحزن!".

أجاب ديروجا: "أنا سعيد بأنه ذهب. جابوسي أعز شخص لي على وجه الأرض، لكن هناك أوقات يكون فيها عائقًا بالنسبة لي. يمكنه أن يظل رصينًا وواقعيًا طوال حياته، لكنني أحتاج أحيانًا لأن أترك الواقع جانبًا".

قال المستشار القضائي، بعد أن أغلق النافذة وجلس: "حقًا؟ وهل هذا يعني أنه قد حان وقتك للاستمتاع بحريتك الخاصة؟ اختيار موفق!".

هزّ ديروجا كتفيه، وقال:

- "أنا أتبع التقويم الذي يحمله كل إنسان بداخله... كل واحد يعرف مواعيده الخاصة".

ابتسم المستشار القضائي، وقال:

- كما تريد... لكن سبب زيارتي مختلف قليلًا. هل تعرف سيدة تُدعى فاليسكا دوريش من براغ؟".

أجاب ديروجا:

- "نعم... مزيج من الغباء والعشق. صيغة D2V بالتمام والكمال".

قال المستشار القضائي بدهشة:

- "لا بدّ أنك تعرف ذلك، فهي تبدو مغرمة بك!".

ابتسم ديروجا بسخرية:

- "حقًا؟ أنا لا أتحمّل مسؤولية أي شيء. لو جلست معها نصف ساعة وربما عاملتها بخشونة بسيطة، لوجدت نفسها معجبة بك أيضًا!".

"حسنًا، سنرى"، قال المستشار القضائي. "فهي تُصرّ على المجيء".

ضحك ديروجا، ثم بدا عليه الانزعاج. ما الذي تريده تلك الحمقاء؟ على المستشار أن يخبرها أنه، أي ديروجا، في الحجز التحقيقي، ولا يستطيع -ولا يرغب - في أن تكون له أي صلة بها.

قال المستشار القضائي: "ربما يكون ذلك قد فات الأوان. فهي تريد بالفعل أن تشهد بأنك كنت عندها من مساء الأول

من أكتوبر حتى ظُهر الثالث. حينها سيكون لدينا براءة مؤكدة".

ارتفع صوت ديروجا بدهشة: "حقًا؟ هذا ما تريده تلك الحمقاء؟ حسنًا... هذا في الواقع أمر سار جدًا. لا يمكن أن تُحلّ العقدة بشكل أفضل من ذلك".

قال المستشار القضائي بتأنٍّ: "لا أستطيع الجزم بذلك تمامًا. فالأمر ليس بسيطًا حين يقدم شخص على أداء شهادة زور".

قال ديروجا بغضب:

- هذا شأنها وحدها! يا إلهي... هذا التمسك المبالغ فيه بالكلمات! هناك أكاذيب أرق وأنبل في جوهرها من بعض الحقائق. على أي حال، القرار يعود لها بالكامل. لقد تحملتُ منها الكثير من الإزعاج، فلماذا لا أستفيد من الموقف الآن؟".

أجاب المستشار القضائي بهدوء:

- "بالطبع... ما دمت تستطيع القيام بذلك دون أن يلحقها ضرر حقيقي".

ردّ ديروجا بحدة:

- "من الغريب أنك أصبحت حذرًا فجأة! أنت من وضعني في هذا الموقف أصلًا. لو اتبعت ميولي، لكانت الأمور قد حُلت منذ زمن - بطريقة أو بأخرى. والآن، عندما يظهر حل قد يخلّصني من القضية كما تريد، تبدأ في التذرّع بالأخلاق!".

احمرّ وجهه من الغضب، وألقى على المستشار نظرة حادة، بينما كان الأخير يراقبه بتأنٍ وتفكير.

ثم قال المستشار:

- "كان عليّ أولًا أن أفهم الوضع بدقة، وأعرف موقفك من هذا التطوّر الجديد. حسنًا... بما أنك موافق الآن، أريد فقط أن أسأل: هل كانت هناك أي علاقة فعلية بينك وبين تلك السيدة؟".

قال ديروجا:

- "أنا معها؟! لقد كانت هي من تتشبث بي. إنها أرهقتني بعشقها المتواصل. ثم إنك مخطئ تمامًا إن ظننتها امرأة مضحية. إنها ساذجة إلى حدٍّ يعميها عن نتائج أفعالها، ومغرمة لدرجة أن تلجأ إلى أي وسيلة تظن أنها قد تجعلني أحبّها".

سأل المستشار القضائي:

- "وأين يقع خطؤها في تقدير الأمور؟".

فأجابه ديروجا بحدّة:

- "طبعًا... هل كنت تتوقع أن أتزوجها من باب الامتنان؟".

فقال المستشار القضائي:

- "أبدًا... فأنت الآن تطمح إلى ما هو أعلى بكثير".

كرر ديروجا بدهشة واستياء:

- "الآن؟! ماذا تقصد بذلك؟ كيف تسمح لنفسك أن تخاطبني بهذا الأسلوب؟ أتظن أنك قادر على معاملتي كصبي غبي لمجرد أنني متهم ومهدد بلا حماية؟ على كل حال، أرى نفسي أسمى من أن أهدر حياتي مع امرأة ساذجة وجاهلة مثلها. النساء - في معظمهن - يثرن نفوري".

فردّ المستشار القضائي ببرود:

- "هناك بعض الاستثناءات".

قال ديروجا بنبرة حادة ومتحمّسة:

- "صحيح... مع استثناء البارونة تروشكوفيتس. إنها جشعة، مغرورة، أنانية؛ لكنها ذكية وأنيقة تمامًا، لا يهمها شيء من الأخلاق. هكذا يجب أن تكون النساء لتستمتع بالمحادثة معهن".

قال المستشار القضائي: "أمرٌ يخص الذوق، على كل حال... هي لن تشهد زورًا من أجلك".

ردّ ديروجا: "لا، فهي ليست ساذجة ولا خاضعة للآخرين... وأنا لا أحب الكلاب. وما شأنك بفاليسكا؟ دَعها تهلك إذا أرادت! أنت مسؤول عن أمري أنا".

قال المستشار: "وأنا أفعل ذلك، لكني أتساءل عما إذا كان من الشرف لك قبول مثل هذة التضحية".

ضحك ديروجا بسخرية: "إحدى هذه الكلمات الرنانة مألوفة

في مجتمعكم: الشرف، الأخلاق، المثل العليا، الإلة، الخلود.. كلها أعمدة مرسومة على قماش رديء. المرء لا يحتاج إلى ثلاثين قطعة فضة ليعصِ ربه".

قال ديروجا:

- "وبالمناسبة، من قال إن فاليسكا ستشهد زورًا؟ وكيف تجزم بأنني لم أكن عندها من الأول حتى الثالث من أكتوبر؟".

وقف المستشار القضائي مغادرًا، وقال:

- "هذا يكفي لليوم، لكنني أفترض أنّ هذا لن يكون رأيك الأخير".

فقال ديروجا:

- "وأرجوك... لا تفتح هذا الموضوع معي مرة أخرى إذا كنت تريد أن نظل على وفاق! لا أنت ولا أنا أوصياء على فاليسكا. ومن الأفضل أن تتقبّل حقيقة أنها كانت طائشة بما يكفي لتستضيفني عندها من الأول إلى الثالث من أكتوبر من العام الماضي".

الفصل الثاني عشر

دعت البارونة بيتر هازه إلى الغداء لتعرّفه على ابنتها. وأقيمت المأدبة في صالون صغير مريح داخل فندقها، وكانت جدرانه المزيّنة بالأبيض والأسود والذهب تتلألأ برسوم زهورٍ فائقة البهاء كأنها شجيرات مزهرة.

وأخبرت البارونةُ ضيفَها بابتسامة أنه لا يزال مجهولًا تمامًا لابنتها من كل النواحي.

وقالت:

- "لقد ورثت ابنتي عن والدها نوعًا من اللامبالاة تجاه الأدب؛ وربما يمكنني أن أقول، بالمعنى نفسه، إنها تفتقر شيئًا ما إلى الخيال".

قال بيتر هازه: "أنا أسمّي ذلك ذوقًا حسنًا؛ لأن الشباب والكتب لا يجتمعان عادة. وربما يقف البارون على رأي القدماء الذين كانوا يزدَرون الشعراء ويعدّونهم كاذبين".

فقال البارون: "لست مطّلعًا بما يكفي لأحكم في ذلك، لكن ما أعرفه حقًا هو أنني أحب قراءة الصحف، لأنها تروي الحقائق".

"آه يا أبي، الصحف تكذب أكثر شيء"، ضحكت مينغو.

قال بيتر هازه: "ربما تكون الصحف أعظم ملحمة حديثة، وعلى أي حال، فإن الحياة هي أجمل شعر".

هزّت البارونة رأسها بريبة، وقالت: "أعتقد أنه حتى فيما يتعلق بالحياة، فإن المواهب العظيمة بين البشر نادرة. قليلون يعيشون حياة عظيمة، متناغمة وجميلة، بينما حياة معظم الناس متفرقة، محدودة الأفق، يومية، ومملة جدًا".

قال بيتر هازه: "للقارئ السطحي فقط، يجب أن يغوص في التفاصيل".

قالت البارونة: "آه، لا يستحق العناء، وأينما قد يكون هناك جدوى، فهو مثير للاشمئزاز. ربما تكونون قد اختبرتم ذلك أيضًا مع السيدة الغامضة، التي يبدو أنها فجأة أعطت لمحاكمتنا منعطفًا جديدًا".

قال بيتر هازه:

- "في الحقيقة، ظهرت السيدة في البداية أقلّ غموضًا مما تصورنا، بل بدت عادية جدًا. كانت شخصية بسيطة، طيبة، ضعيفة، كسولة، ولكن لديها ميلٌ فطريّ للبطولة، كما تمتلك بعض النساء البدائيات أحيانًا".

كانت مينغو، التي جلست حتى تلك اللحظة بقدرٍ من اللامبالاة يكاد يصل إلى حدّ عدم الأدب.. ترفع رأسها وقد احمرّ وجهها بشدة، وقالت بسرعة:

- "من هي هذه السيدة؟ ولماذا جاءت؟".

فأوضح بيتر هازه:

- "إنها سيدة شهدت بأن السيد ديروجا كان عندها خلال

الأيام المشؤومة من أكتوبر، وبالتالي لم يكن من الممكن أن يرتكب الجريمة التي يُشتبه فيه بسببها".

وتحدّث بتحفّظ، إذ لم يجد الموضوع مناسبًا للحديث الاجتماعي، ولا ملائمًا بالأخص أمام شابة صغيرة.

فصاحت مينغو بانتصار:

- "أرأيتِ يا أمي؟! ولكن من تكون هذه السيدة حتى يمكث عندها كل هذا الوقت؟ هل كان صديقًا لها؟".

قالت البارونة:

- "حسنًا، الرجال غير المتزوجين كثيرًا ما يقيمون علاقات مع بعض النساء، غالبًا من الطبقات الدنيا"، وأضافت مبتسمة: "ذلك يملأ فراغ حياتهم الأسرية. وهم يفضلون النساء البسيطات أو غير المتعلمات؛ لأنهم يشعرون بالحرية التامة في التعامل معهن، فالتحرر أمر أساسي بالنسبة للرجال".

فقال بيتر هازه:

- "يمكن اعتبار هذا وسيلة حماية من الطبيعة، يحتاجها الإنسان المثقف تحديدًا ليخفف من توتر قواه المشدودة دومًا. لكن المأساة أن المثقف ينسى تدريجيًا كيف يطلق العنان لنفسه، حتى تنفجر الدوافع المكبوتة في النهاية بشكل جنوني".

بدت مينغو مذهولة، عيناها تتسعان، إذ لم تفهم التحليل تمامًا ولم يكن يثير اهتمامها الكبير. وجهت مينغو اهتمامها

إلى بيتر هزه بجدية، وسألته:

- "وكيف كانت تلك المرأة؟ هل كانت جاهلة تمامًا؟ هل كانت فقيرة؟".

أجاب بيتر هازه، محافظًا على لطفه في التعبير:

- "لا، ليس إلى هذا الحد. إنها ابنة ناظر مدرسة للأولاد، ويبدو أنها تعرضت منذ صغرها لتأثيرات مقلقة، وتبذل جهدًا مؤثرًا للتمسك بما ترى فيه قيمة تعليمية؛ كانت دائمًا تؤكد على حبها للطبيعة، ولكل ما هو جيد وجميل وصحيح، وكانت تتحدث بعناية عن الصداقة التي كانت تربطها بديروجا. أما كلمة الحب أو العلاقة العاطفية فلم تكن تقبلها بسهولة. ولديّ الانطباع بأنها كانت بحاجة لإضفاء خلفية من الجمال والتميز على حياتها، بقدر ما تفهم ذلك".

هزت البارونة كتفيها بتململ، وحاول البارون توجيه الحديث في مسار آخر قائلًا إن مثل هذه الصفات تتكرر كثيرًا لدى النساء السطحيات في معظم الشعوب، ثم بدأ يروي أحاديث متنوعة عن اليابان والصين والهند ودول أخرى زارها. وأضاف أنه كان قد سافر كثيرًا في شبابه، لكنه وجد في النهاية أن العيش في باريس هو الأفضل.

قالت البارونة، مع تنهيدة مكبوتة وتعبير ماكر أضفى عليها جمالًا خاصًا:

- "آه، نعم، باريس دائمًا تقدّم شيئًا ما لكل شخص، قليلًا أو

كثيرًا، بحسب ظروفه".

قال بيتر هازه إنه يحب باريس أيضًا، وكان على وشك التوجّه للإقامة لعدة أسابيع هناك، لولا أن محاكمة ديروجا حالت دون ذلك.

قالت البارونة:

- "يبدو أن هذا الرجل يمتلك جاذبية استثنائية".

ألقي بيتر هازه نظرة خفية نحو مينغو ليرى مدى تأثير ما سمعته عليها. كانت عيناها الكبيرتان معلّقتين بفضول وترقّب على وجهه.

قال:

- "نادرًا ما يلتقي المرء داخل عالم الثقافة بشخص طبيعي تمامًا مثل ديروجا؛ طفل بطبيعته وفي ظروف رجل".

سخرت البارونة، قائلة:

- "ربما تريد استغلاله في رواية".

أجاب بيتر هازه بجدية:

- "على الأرجح لا، فهو فريد جدًا لدرجة أنه لا يمكن إدماجه في بناء العمل الأدبي؛ حيث يجب أن يكون لكل عنصر هدف محدد، وإلا ظهرت فجوات".

قالت البارونة متابعة:

- "أُدين ظلمًا... ألن يكون هذا عنوانًا يجذب القرّاء؟".

فقال بيتر هازه بنبرة هادئة حاسمة:

- "لن يصل الأمر إلى ذلك. فالقضية ستتلاشى بطريقة أو بأخرى دون أن تثير ضجة. أستنتج من شخصية ديروجا أنه قد يمرّ بتجارب غريبة متعددة الألوان، لكن لا يبدو أنه سيواجه أحداثًا عظيمة أو مأساوية أو مزلزلة".

صاحت مينغو:

- "هل سمعتِ يا ماما؟ حتى السيد هازه مقتنع ببراءته! الجميع مقتنع بذلك. عليكِ أن تتوقفي عن اتخاذ أي خطوة ضده، فهذا واجب تجاه نفسك".

قاطعتها البارونة، قائلةً:

- "قلتُ لكِ بالفعل إنني سأتحدث مع المحامي. فهذه القضية ليست قضيتي في الأساس. وأنا في الحقيقة أندم الآن على أنني كنت ضعيفة بما يكفي لأسمح له بأن يجرّني إلى هذا الأمر. لم يخطر ببالي أن هدفه الأول كان أن يصنع لنفسه شهرة من خلال محاكمة مثيرة. لقد أوهمني بأنني مكلّفة بكشف جريمة، واستغلني كوسيلة ليصبح معروفًا".

ما إن أنهت البارونة كلامها حتى أعلن النادل وصول الدكتور برنبورجر، الذي كانت قد دعته إلى الفندق لإجراء مناقشة.

قالت البارونة بتردد:

- "هذا توقيت غير مناسب".

ونهض بيتر هازه حتى لا يسبب حرجًا، غير أنها سارعت تقول إنه لا يجوز له المغادرة الآن، فهم لم يشربوا القهوة بعد. وأضافت أنه في الواقع يسعدها ألّا تضطر إلى خوض الحديث وحدها؛ فهي تنفر من كل ما يتعلق بالأمور الرسمية، أما هذه القضية تحديدًا فهي تثير اشمئزازها تمامًا.

رحّبت البارونة بالمحامي الذي دخل للتو بإيماءة متعالية من رأسها، لكنها سرعان ما خففت من حدة تعاليها وأضافت لمسة من المجاملة عندما لاحظ ابتسامته الساخرة وفطنته لغرورها. وأوضحت له أن جميع الحاضرين على علم بكل التفاصيل، وأن وجودهم لن يسبب أي إزعاج. ثم قالت له بنظرة باردة:

- "الأمور تتطور الآن بطريقة مختلفة، يا دكتور، عمّا حاولت في البداية أن تقنعني به".

قال الدكتور برنبورجر ردًا:

- "أنا أقدّر استقلال شخصية السيدة البارونة تقديرًا كبيرًا، بحيث لا أجرؤ على أن أفرض عليها أي رأي".

فقالت البارونة بضيق:

- "حسنًا، لكنك - على أي حال - عرضتَ لي الوقائع آنذاك بطريقة مقنعة للغاية، إلى حدّ أنّ...".

فقاطعها الدكتور برنبورجر مبتسمًا:

- "إلى حدّ أنكِ اقتنعتِ بها تمامًا، كما كنتِ تتمنّين. وما زلتُ اليوم مقتنعًا تمامًا بأن الاحتمال الذي عرضتُه عليكِ آنذاك هو الأرجح".

فسألته البارونة:

- "وماذا عن الشاهدة الجديدة؟".

فأجاب الدكتور برنبورجر باستخفاف:

- "مجرد امرأة واقعة في الحب، تسعى لتكسب رضا معشوقها. لا أهمية حقيقية لها، ولم تُؤدِّ اليمين أصلًا، لأن المحكمة رأت منذ البداية أن علاقتها بالمتهم تجعل شهادتها غير موثوقة. وعلى أي حال، يمكن العثور بسهولة على شهودٍ يدحضون أقوالها ويُثبتون زيفها".

قفزت مينغو من مكانها، وعيناها تتوهجان بالغضب:

- "لا يا أمي، لا شأن لكِ بهذا! هذا التجسّس والمطاردة أمر غير لائق، ولن أسمح لكِ بأن تنغمسي فيه!".

ابتسم الدكتور برنبورجر للفتاة من خلف نظارته بهدوء:

- "لو لم يسلك المجرم طرقًا مظلمة، لما اضطررتِ لملاحقته في طرق مظلمة. طريقة المجرم تحدد طريقة من يكشفه. فإذا سرق لصّ ما محفظتك، وأردت استعادتها، فعليك أن تلحقي به بنفسك، أو تكلفي من يقوم بذلك نيابةً عنك".

ردت مينغو بغضب:

- "أنا لا أطلب من أحد أن يقوم بما أستطيع أنا فعله. وعلى أي حال، لم يسرق منا أحد محفظتنا!".

حذرت البارونة الفتاة بغضب:

"لا تتدخلي في أمور لا تعرفين عنها ما يكفي لتقيميها، يا طفلة. ومع ذلك"، قالت وهي تتوجه للدكتور برنبورجر: "أشعر أن الأمور ليست في صالحنا في هذا الشأن".

قال الدكتور برنبورجر:

- "العِبرة بالخواتيم. وكما قلتُ لكِ من قبل، فقد ازداد اقتناعي بما حدث منذ ذلك الحين، حتى صار يخيل إليّ أنني شهدتُ الواقعة بنفسي. بل يمكنني أن أقدّمها في عملٍ درامي".

فصاحت البارونة بانزعاج:

- ولماذا لا تفعل ذلك إذن؟ يبدو لي أن المزاج العام بدأ يميل لصالح المتهم".

فقال الدكتور برنبورجر:

- "السيد ديروجا - على ما يبدو - يتمتع بحظ كبير لدى النساء، اللواتي يمِلن في العادة إلى الإعجاب برجل يكفي أن تحوم حوله شبهة جريمة. ثم إن كثيرين يقعون في خطأ الاعتقاد بأن المجرم لا بد أن يكون موسومًا بعلامة واضحة من الطبيعة: خشنًا، همجيًا، دنيئًا، مشوّهًا. ويغفلون أن معظم الجرائم تنبع في الحقيقة من ضعف لدى مرتكبها؛ لأنه لم

يستطع مقاومة دافعٍ ما بشكل كافٍ - وأن الصدفة تلعب دورًا كبيرًا في ذلك كلّه. وليس من قبيل المصادفة أن كثيرًا من المجرمين في الأزمنة الماضية كانوا يعتقدون حقًا أن الشيطان هو الذي دفعهم إلى ارتكاب جرائمهم".

نظرت مينغو إلى الدكتور برنبورجر بازدراءٍ واضح.

"هذا ليس من أجلك، يا أمي"، قالت بنبرة توجيهية متوسّلة، "ليس بأمرك أنتِ".

قالت البارونة بنفاد صبر: "أرجوكِ، لا تتدخلي، ومن الأفضل أن تبتعدي إذا لم تتمكني من التحكم في نفسك! لا أنا ولا أنت لدينا أي مصلحة شخصية في الأمر، بل الأمر مرتبط فقط بالحقيقة. ولا يضرّنا، بل يسرّنا، أن تُكشف الحقيقة".

صرخت مينغو بحماس: "لكن لديّ مصلحة شخصية!". أنا أعلم أنّه بريء. رغم كل الأدلة التي قد يتم التجسّس عليها، فهو بريء وأفضل منا جميعًا". ارتجفت صوتها، وكانت الدموع على وشك الانهمار.

نهض كلّ من البارون وبيتر هازه في الوقت نفسه، كما لو أرادا حماية الصغيرة. وقف البارون بجانبها واقترح عليها القيام بنزهة: النهار على وشك الانتهاء، فلنستفِد من ضوءه قبل حلول الظلام.

أما الدكتور برنبورجر، فشعر وكأنه مطرودًا غاضبًا، مثقل بالازدراء. وتحولت مرارته الداخلية شيئًا فشيئًا إلى كراهيةٍ

انتقامية تجاه ديروجا، بينما كان كل ما يشغله تجاه البارونة هو الرغبة الملحّة في إثبات أنه كان على صواب.

الفصل الثالث عشر

روى البروفيسور فوندرميل:

- "تعرفنا على ديروجا لأننا كنا نسكن في نفس المنزل. وبعد فترة قصيرة من انتقالهم، أصيبت زوجتي بتشنّج في المعدة خلال الليل، ولأساعدها بأقصى سرعة ممكنة، صعدت وطلبت من ديروجا أن يأتي. أبدى استعدادًا بالغ اللطف، وشاركت زوجته في تقديم المساعدة أيضًا. منذ ذلك الحين، أصبحنا نلتقي كثيرًا، وتوطدت بيننا صداقة حميمة، إلى أن فقدت زوجة ديروجا طفلتها، وبعدها بفترة قصيرة، انفصل الزوجان".

سأل الرئيس:

- "هل لاحظتم يومًا أي خلافات بين الزوجين؟".

أجاب البروفيسور:

- "كان لدى زوجتي الانطباع أنّهما يحبان بعضهما، لكنهما غير متوافقين. فديروجا، رغم طباعه الهادئة، كان متقلب المزاج وغير متوقع، وكان بحاجة إلى توجيه صارم. أما زوجته، فلم تكن قادرة على ذلك، بل كانت حنونة وودودة، تشبه نباتًا يحتاج إلى حائط حماية لينمو".

روى البروفيسور:

- "لقد ظهرت الاختلافات بينهما بشكل أوضح بعد وفاة

الطفلة، التي كانت تشكّل الرابط بينهما".

سأل الرئيس: "هل كان يحدث بينهما أحيانًا اندفاعات غضب شديدة؟".

أجاب البروفيسور:

-"ذات مساء، كنا أنا وزوجتي جالسين بعد العشاء على شرفتنا الصغيرة، المطلة من غرفة المعيشة على الحديقة. في غرفة معيشة ديروجا، التي تقع أعلى غرفتنا، كان لا بد أن يكون الباب مفتوحًا، إذ استطعنا سماع أصواتهم، وكيف تحوّل حديثهم تدريجيًا إلى جدال حادّ. ضحكنا من ذلك، وقالت زوجتي: (ذلك الرجل المزعج... شيطانه قد انطلق مجددًا)، وكان هذا تعبيرًا تستخدمه للإشارة إلى بعض تقلبات مزاج ديروجا. اقترحت زوجتي أن نتدخل لتهدئة الأمور من أجل زوجته، أما أنا فاعترضت، إذ بدا لي التدخل في تلك اللحظة تصرفًا متطفلًا. وربما أيضًا من باب الراحة أو بدافعٍ أنانيّ آخر. كنا ما نزال منهمكين في النقاش حول ذلك، حين سمعنا السيدة ديروجا تُطلق صرخة مكتومة، صرخة بدا عليها الذعر والألم والخوف. فقفزت زوجتي واقفة، وركضت إلى الطابق العلوي من دون انتظار موافقتي، حتى إنه كان من الصعب بالنسبة لي اللحاق بها. وعندما وصلتُ إلى الأعلى وانقطع نفسي، كانت أورسولا، الخادمة، قد فتحت الباب لزوجتي بالفعل، وكانت تستقبلنا بعينين متلألئتين فرحًا. ويبدو أنها كانت سعيدة لأن سيدها وسيدتها لن يبقوا وحدهم

في تلك اللحظة. استقبلنا ديروجا بمودته المعتادة، ولم يظهر عليه أي ارتباك أو انزعاج، سوى أنه كرر بعض العبارات مثل: (آه، الزواج! وعلى المرء أن يفكر في الزواج بجدية أكبر مما يفكر في الشنق!) وما شابه ذلك. فقالت زوجتي، وكانت امرأة شديدة الحماسة ولا تخشى أحدًا، موجهة إليه اللوم وهي تقف أمامه: (علينا نحن النساء حقًا أن نكون أكثر حذرًا، وزوجتك بصفة خاصة تصرفت بلا تفكير حين ائتمنت نفسها لمثل هذا المتوحش!). قال ديروجا بنبرة هادئة نسبيًا، بعد أن تلقى مواعظ زوجته بكل ارتياح:

- "أعترف بأن زوجتي لطيفة وودودة، لكني ألعن، وأسب، وأمقت هذه الوداعة. لو كانت تحبني كما ينبغي وكما تستطيع، لفاجئتني مرة كالأفعى وقالت لي إنني وحش، ولضمتني في حب أو كراهية حتى تخنقني! لو كنت امرأة عجوز مصابة بالجذام، أو كلبًا يحتضر، لكانت ستعاملني بنفس الحب والرقة الذين يثيران جنوني!".

نظرت إليه زوجته بعينين واسعتين، وقالت بغضب على طريقتها الخاصة:

- "لقد قلت لك للتو إنك وحش!".

"فانفجرنا جميعًا ضاحكين. عندها احتضنها، وأمسك بيدها وظل ممسكًا بها بينما كان يوضح لها أن ما قالته لم يكن هو ما يقصده حقًا". روى البروفيسور.

قال الرئيس متدخلًا: "ذكرت قبل قليل أنّ السيدة ديروجا أطلقت صرخة. هل علمتم إن كانت صرختها من الخوف فقط أم أنّ زوجها اعتدى عليها جسديًا؟".

أجاب البروفيسور: "لم يُذكر ذلك صراحة. على الأرجح أنه أمسك بها بخشونة. كانت تبدو شاحبة ومضطربة. وبعد ساعة، عندما قررنا المغادرة، سألتها زوجتي إن كان بإمكاننا تركها مع هذا الوحش بمفردها، فردّت ضاحكة: (انتهى ثوران البركان اليوم). قالت ذلك بصوت عالٍ وبلا تحفظ، وضحك ديروجا أيضًا. لم تستطع زوجتي النوم لوقت طويل بسبب شعورها بالقلق، لكنني استطعت تهدئتها بإخبارها أنّها تبالغ في الأمر، وأن حب ديروجا لزوجته قد ظهر بوضوح للتو".

سأل الرئيس: "هل ظهر لكم أي توضيح واضح بشأن سبب غضب المتهم على زوجته؟ أم أنّ الأمر، في رأيكم، كان فقط نتيجة نوباته الانفعالية واختلاف طباع الزوجين؟".

روى البروفيسور:

- "لقد كان ديروجا يلمّح أحيانًا إلى أنّ لديه ما يثير غيرته، وكان ذلك يتعلق برجلٍ كانت زوجته تكنّ له مودة قبل أن تتزوج ديروجا، لكنها لم تستطع الزواج منه لأنه كان مرتبطًا. ويبدو أن وفاة زوجة ذلك الرجل العجوزة زادت غيرته وشكه إلى حدٍّ جعل حياتها بجانبه غير مريحة. كان كثيرون يعتقدون أنها سعت إلى الطلاق لتتزوج ذلك الرجل، لكن ما حدث بعد ذلك لم يؤكد هذه الظنون، إذ بقيت - كما هو

معروف - دون زواج".

سأل الرئيس: "هل تعتقد أنه من الممكن أن الخوف من المتهم كان له الدور الحاسم في ذلك؟ ربما أطلق تهديدات ضدها وضد ذلك الرجل إن تزوجته؟".

أجاب البروفيسور بعد أن أخذ تمهل قليلًا في التفكير:

- "يجب أن أعتبر ذلك ممكنًا، لكن لا أستطيع أن أؤكد ذلك. زوجتي ستكون أدرى، لأنها كانت قريبة جدًا من السيدة ديروجا، وخاصة في تلك الفترة كانت تقضي معها وقتًا طويلًا. صحيح أنها كانت تخبرني بكل شيء بالتفصيل، لكنني لم أحتفظ بكل التفاصيل بدقة تسمح لي بإعادة روايتها في مثل هذا السياق. ما أعلمه يقينًا هو: بعد أن طُلقت السيدة ديروجا، فكّرت لفترة في الزواج من ذلك الرجل، لكنها عدلت عن الفكرة. أما الرجل المعني فتزوج امرأة أخرى، ويُقال إنه لم يكن سعيدًا، وتوفي قبل عدة سنوات".

لاحظ الدكتور زيونمان، من خلال ما رواه البروفيسور، أن زوجة البروفيسور كانت تُولي تلك العلاقة الاجتماعية اهتمامًا أكبر منه، فسأل ما إذا كان بينه وبين ديروجا شيء من التفاهم أو الانسجام.

فأجاب البروفيسور: "لا، لا، هذا ليس صحيحًا بالمعنى الدقيق. لم يكن يشاركني اهتمامي العلمي، ولم أكن أستطيع مجاراته في التحليق فوق الأعماق، ولا في اللعب بالفرضيات

والمفارقات، ولا في الخيالات المستحيلة. كانت أفكاره تبدو لي غالبًا غريبة، وربما تُسلّيني أحيانًا، لكنها في جوهرها لم تكن ذات نفع. ولهذا السبب، ومع كثرة انشغالاتي، كانت زوجتي هي التي تُعنى بهذه العلاقة أكثر، وهذا كان يلائم سنّها. فهي كانت أصغر مني بكثير، ومع ذلك كان قدرها أن تموت قبلي".

سأل الرئيس ما إذا كانت زوجة البروفيسور قد واصلت المراسلة مع السيدة ديروجا بعد رحيلها من المكان.

أجاب البروفيسور بأن رسائل من السيدة ديروجا كانت موجودة بالفعل، لكنه أحرقها بعد وفاة زوجته، حتى لا تقع لاحقًا في أيدٍ لا يحق لها الاطلاع عليها. وقد تصفّحها قبل أن يتلفها، ويتذكّر مقطعًا كتبت فيه:

"إن السلام والبهجة اللذين كنتُ أتوقع أن يأتيا مع انتهاء زواجي، لم يظهرا بعد.

أجد نفسي كثيرًا الآن - هكذا كتبت تقريبًا - أتوقف عن النظر إلى الأمام كما اعتدت، وألتفت إلى الخلف.

أترى... أهذا هو وعيُ التقدّم في العمر؟

آه لا... كيف كان يمكنني أن أتوقع أن أستطيع النظر إلى أي مكان آخر غير ذلك الموضع الذي كانت فيه طفلتي... إلى الماضي!

لم يعد لي أي مستقبل على هذه الأرض".

ثم قال البروفيسور:

- "هذا المقطع ترك أثرًا شديدًا في نفسي، لأنني أنا أيضًا، بعد وفاة زوجتي، بدأت أعيش إلى الخلف بدلًا من أن أنظر إلى الأمام، ولهذا ظلّ هذا الكلام راسخًا في ذهني".

قال الرئيس: "إن هذا المقتطف من الرسالة لا يَدُلّ على أن المتوفاة كانت تتمنى زواجًا ثانيًا، وأن ما يمنعها من ذلك هو خوفها من المتهم فقط".

فأجاب البروفيسور:

- "أودّ أن أبيّن ما يلي: من خلال أقوال أخرى - شفوية كانت أو مكتوبة - للمرحومة، يمكن الاستنتاج أن ذلك التمني والخوف ربما كان موجودًا. ولكن حتى لو توافرت أدلة كثيرة على انفعالات ديروجا الحادّة في تلك الفترة، فإني أرى أنه ما زال موضع شكّ ما إذا كان يمكن ربط ذلك بجريمة ارتُكبت بعد سنوات طويلة. صحيح أن أفعال البشر سلاسل متصلة إلى ما لا نهاية، ولا يمكن إلا للعين الإلهية تتبعها جميعًا، لكننا نحن البشر محكوم علينا بالضياع في متاهة هذه التشعُّبات".

نظر الرئيس صامتًا أمامه، بينما كان المدّعي العام يومئ برأسه بتعبير ناقد. ثم طرح الدكتور زيونمان السؤال الختامي على البروفيسور: "هل تعرف أي أسباب أخرى كان يمكن بها، آنذاك، تفسير طلاق آل ديروجا؟".

روى البروفيسور: "كانت زوجتي تعلم أنّ السيدة ديروجا

تلوم زوجها، إلى حدٍ ما، على وفاة طفلتهما، ولذلك كانت تحمل له كراهية مرضية. ويُفهم من ذلك أنّ ديروجا كان صارمًا وغير حنون في تربية الطفلة جسديًا، بينما كانت زوجته تدلّلها أكثر. هذا التناقض كان كثيرًا ما يثير خلافات بينهما. ومع ذلك، لم تستطع الزوجة العاقلة أن تتجاهل أنّ ديروجا أحب الطفلة، لكن بطريقته الخاصة، بنفس القدر الذي أحبته هي، وحزن على فقدانها كما حزنت هي، فحاولت تجاوز هذه النفور الظالم، وكانت زوجتي تشجعها على ذلك بكامل حيويتها وحماسها. لذلك لا أستطيع أن أصدق أنّ هذا الانحراف العاطفي، المبرر بالحزن الشديد، هو الذي دفع إلى قرار الطلاق، رغم أنّه ربما أضعف بعض الشيء من قوة العلاقة بينهما".

ثم دار بين أعضاء الهيئة القضائية نقاش حول طلب المدّعي العام استجواب الآنسة شفيرتفجر مرة أخرى، لمعرفة ما إذا كان بإمكانها الإدلاء بمعلومات توضّح نية السيدة سويتر للزواج الذي لم يتمّ.

لكن المستشار القضائي فاين رفض ذلك، معتبرًا الأمر مضيعةً للوقت وغير ضروري. ووافقه الدكتور زيونمان، قائلًا إن أي تفاصيل إضافية - مهما كانت - لن تُسهم في تقدم المحاكمة. أما عن طبيعة ديروجا، التي تتمثّل في كونه يعيش في حالة توازن نفسي غير مستقر، فربما يمكن تقديم أمثلة كثيرة عليها. لكن القضية هنا ليست استكشاف ما بداخله،

بل تحديد وقائع حياته بين الأول والثالث من أكتوبر. وبهذا الصدد، لم تعد الآنسة شفرتفيجر تملك ما تضيفه.

وقال المستشار القضائي:

- "أرجو من السادة بإلحاح أن نقتصر على الحقائق، حتى لا نُزيد الأمور تعقيدًا بدلًا من حلّها".

فقال المدّعي العام، منتصبًا فجأة من مقعده بحيث لم يكن لدى المستشار القضائي جواب جاهز:

- "وأيّ حقائق؟".

فأجاب بعد صمت قصير:

- "الحقائق المتعلّقة بجريمة القتل المزعومة. فعندما تغيب الحقائق، تُنتزع التفاصيل العادية من سياقها ويتم المبالغة فيها. العشاق، في لحظات الغيرة أو الخيانة، يطلقون تهديدات بالموت، ولا أحد يأخذ مثل هذا الكلام على محمل الجد. فهذه الأمور لا قيمة لها أكثر من مواثيق الحب".

فقال المدعي العام:

- "العبرة بما يعقبه من فعل. وعلى أي حال، لولا غياب الحقيقة الواضحة أمامنا، لفضّلنا جميعًا أن تكون الأمور بيّنة كالكفّ. وبما أنّ المتّهم - وهو قادر على ذلك - لم يزوّدنا بشيء، فليس أمامنا إلا البحث في الجذر الذي تنشأ منه الأفعال: النفس البشرية".

حاول المستشار القضائي الاعتراض قائلًا:

- "المتّهم لم يزوّدنا بها؟".

لكنّ الدكتور زيونمان تدخّل لإنهاء هذا الجدل العقيم، ثم طلب من الآنسة سفيرتفجر أن تستوفي في الإجابة على الأسئلة القليلة المتبقّية تحقيقًا لما طُلب منها.

بدت الآنسة سفيرتفجر أشدّ شحوبًا وبؤسًا مما كانت عليه في اليوم الأول، وكأنها أنزلت قناعًا غير مرئي على وجهها، ثم تقدّمت مترددةً تسأل:

- "هل أنا مُلزمة بأن أطرح مسائل شخصية بحتة على الملأ هنا؟ لا أستطيع أن أتصوّر ذلك".

فقال الدكتور زيونمان بنبرة تعليمية لطيفة:

- "في الدولة، يكون الشأن الخاص مرتبطًا دائمًا بالشأن العام. وبقدر ما تكون هناك مصلحة عامة في الأمر، أرجو منك تقديم بعض الإيضاحات حول ظروف صديقتك المتوفاة. فقبل زواج السيدة سويتر بالمتهم، كانت تربطها علاقة صداقة برجل، لكنها قطعتها لأنها لم يكن ممكنًا أن تنتهي بزواج. ومن المرجّح أنها لم تُستأنَف ما دام زواجها بالمتهم قائمًا".

فقالت الآنسة شفيرتفجر بتعالٍ:

- "طبعًا لا. لم يلتقيا مرة أخرى إلا بعدما انتقلت السيدة سويتر إلى هنا".

فسألها الدكتور زيونمان:

- "وعندها عادت المشاعر المتبادلة بينهما، وقرّر الاثنان، بعد أن التقيا مجددًا، أن يتزوجا. أليس كذلك؟".

فأجابت الآنسة بجفاف:

- "نعم".

فسأل الدكتور زيونمان متابعًا: "وما السبب في أن هذا القرار لم يُنفّذ؟ من المستحيل أن تكوني، وأنتِ أقرب صديقة للمتوفاة، غير مُطّلعة على ذلك".

قالت الآنسة شفيرتفجر:

- "لم تكن طبيعة صديقتي تسمح لها بأن تُفصح عمّا في داخلها حتى تصل الأمور إلى نهايتها، ولا تسمح لي طبيعتي بأن أستخرج منها ما أرادت كتمانه. كانت صديقتي في تلك الفترة شديدة الاضطراب، وكانت أقوالها متقلبة. ذات مرة قالت لي وهي تبكي إن حبها القديم لا يزال قويًا كما كان، لكنها كلما همّت أن تُلقي بنفسها على صدر الرجل الذي تحبه، كان زوجها يقف حاجزًا بينهما، ويمسك الطفلة بيده، وهذا الظلّ الذي تخلقه مخيلتها كان أشدّ صلابة من الجدار".

فسألها الدكتور زيونمان: "هل فهمتِ من كلامها أنها كانت تخشى انتقام زوجها؟ أم أنّ الذكرى - ذكرى زواجها وطفلتها - كانت تقف بينهما وتمنع سعادتها الجديدة؟".

فأجابت: "لقد فهمت وقتها أنّ الدكتور ديروجا هو السبب في أن صديقتي لم تتزوج الرجل الذي أحبّته. وقد حزنت لذلك كثيرًا جدًا. فقد كنت أعرف ذلك الرجل معرفة أفضل بكثير مما أعرف ديروجا، وكنت أشعر بتعاطف أكبر نحوه؛ لأنني كنت أعتقد أن صديقتي كانت ستجد السعادة معه".

سأل الدكتور زيونمان: "إذا كنتِ تعرفين ذلك الرجل معرفة جيدة، فربما تحدثتِ معه حول الأمر وتعرفين كيف كان يبدو الأمر بالنسبة له؟".

فأجابت الآنسة شفيرتفجر بوجه غاضب جدًا:

- "كان يفسّر الأمر على أنّ السيدة سويتر كانت تخشى أن يقوم ديروجا بقتله لو تزوجها. ومن المستحيل أن تكون قد قالت له ذلك صراحة، لأن هذا الاحتمال كان سيكون أقل ألمًا بالنسبة له مما لو عرف مقدار تأثير ديروجا على حالتها النفسية ومشاعرها. وقد يكون أيضًا أنه أراد أن يصدق هذا التفسير لأنه يجرح كبرياءه بدرجة أقل. فقد كان رجلًا متكبرًا ومستبدًا..".

فقال الدكتور زيونمان: "إذا كانت صديقتك تحبه بهذا القدر، فلا بدّ أن دافعًا قويًا جدًا هو ما منعها من الزواج به".

فأجابت الآنسة شفيرتفجر:

- "بالطبع. لقد عانت كثيرًا في ذلك الوقت. لكنها تجاوزت الأمر سريعًا نسبيًا، وكانت تقول دائمًا فيما بعد إنها تعتقد أنها

تصرفت بشكل صحيح".

الفصل الرابع عشر

كان المساء قد حلّ حين عاد الدكتور برنبورجر متعبًا إلى شقته. استلقى على الأريكة البالية التي اشتراها منذ زمن طويل، ونظر مرتجفًا حوله بحثًا عن شيء يغطي به نفسه. كان الجو داخل الشقة أبرد من الخارج، ولكن بخلاف أنه ربما لم يشعل المدفأة مساءً من باب التوفير، كان يشعر أيضًا بالإرهاق وعدم الرغبة في التحرك.

نظر بتذمر حول الغرفة الفارغة، التي ذكّرته بغرفة في فندق من الدرجة الثانية، وتأمل سبب وغاية تعلقه ببيئة جميلة ومريحة، وهو التعلق الذي ربما لن يستطيع إشباعه أبدًا. وللتخفيف عن شعوره بالضيق ولتدفئة نفسه، قرر الخروج إلى مقهى.

عند الباب الزجاجي الذي يفصل شقته عن الخارج، وجد امرأة صغيرة، بسيطة المظهر، تبحث منذ فترة عن الجرس، وسألته إذا كان هنا يسكن محامٍ. أجابها الدكتور برنبورجر بأنه هو المحامي، لكنه أضاف أنه انتهت ساعات العمل الآن وعليها الحضور في مكتبه في اليوم التالي.

لكن المرأة الصغيرة أوضحت أنها لا تستطيع ذلك، لأنها تعمل نهارًا لدى أحد الأسر للتنظيف، وأن زوجها تركها، وهي مضطرة لرعاية أطفالها بمفردها. وقالت إنها جاءت الآن من عملها لأن السيد تونيبول من الحي الأمامي هو من أرسلها.

عند سماعه لهذا الاسم، خطرت له فجأة فكرة اخترقت ذهنه بقوة، فاندفع الدم إلى وجهه، ودفعه ذلك إلى أن يعود مع المرأة الصغيرة إلى داخل الغرفة. وبينما كان يشعل المصباح، طلب منها أن تجلس وتروي ما جاء بها. ولما لاحظ أنها ما زالت واقفة عند الباب بخجل، أشار لها بالجلوس على الكرسي، وأخذ منها سلّة القش الكبيرة التي كانت تحملها بيدها. فابتسمت بخجل وامتنان، وبدأت قصّتها:

قالت إنه من قبل ذهبت إلى السيد تونيبول، تاجر الأدوات المستعملة في الحيّ الأمامي، لتشتري زوجًا من الأحذية لابنها الأكبر. وقد أعجبها زوج منها لأنه كان مناسبًا لمقاسه تقريبًا، لكن ثمنه كان أكبر من قدرتها. عندها قالت للسيد تونيبول إن لديها معطفَ عملٍ يعود لزوجها - وهي دائمًا تقول زوجها المرحوم منذ أن هجرها - وإن المعطف يبدو كالجديد، وسألته إن كان يقبل أن تأخذه بدلًا من الثمن.

قالت المرأة إن السيد تونيبول قال بحدة، كما كان يفعل عادة مع الفقراء، إنه لا يقبل مثل هذه الخردة، وليس لديه زبائن لها. عندها صاحت زوجته، وهي تفتش في حقيبة قديمة، قائلة له ألا يكون أحمقًا، فالمحامي وعده بالكثير من المال مقابل المعطف القديم، وأنه هو، السيد تونيبول، قد وعد المحامي بالنظر في الأمر، والآن يظهر مدى غروره.

أجاب السيد تونيبول، متهكمًا، أنها أغبى من سمك الرنجة، وأن المحامي سيلقي بالمعطف في وجهه لأنه يريد واحدًا غير

عليه في الشارع. وأوضحت المرأة أن المعطف القديم الذي قصدته لم يكن في الحقيقة لزوجها المرحوم، بل وجدته هي، لكنها لم تجرؤ على قول ذلك بسبب فظاظة السيد تونيبول، حتى لا يعظم الأمر ويدّعي أنها سرقته.

ثم غادرت، لكنها تحدثت عند الباب مع السيدة تونيبول، وسألتها عن المحامي وماهية الأمر، فأخبرتها بكل شيء، وأيضًا أن المسألة تتعلق بمحاكمة كبيرة، وأنه يمكن جني مبلغ جيد من المال إذا أحضرت المعطف المناسب.

قالت المرأة إنها فكرت أنها ستحضر المعطف إلى المحامي بمشيئة الله، فهو لن يؤذيها ولن يوقعها في أي مصيبة، فهي جاءت إليه فقط لأنه يهمّه الأمر كثيرًا.

قال الدكتور برنبورجر، بالطبع، إنه ممتن لها جدًا، وبغض النظر عمّا إذا كان سيحتاج المعطف أم لا، فهو يريد أن يعوّضها عن عنائها. وأضاف أنها امرأة صالحة، صغيرة ومجتهدة، ويجب أن تحكي بتفصيل كيف حصلت على هذا المعطف.

وروت المرأة أنها حصلت على المعطف في الثالث من أكتوبر. وتتذكر هذا اليوم جيدًا لأنها خرجت من البيت قبل الخامسة صباحًا. فقد طلبت منها السيدة مستشارة الأعمال ستاينهاجر أن تأتي قبل الموعد بساعة، وتبقى ساعة أو ساعتين إضافيتين، حتى تتمكن من إنجاز الغسيل في ذلك اليوم، إذ كان من المقرر أن يأتيها زائر من خارج المدينة في

اليوم التالي، وكان ذلك غير مناسب إذا كان الغسيل لم ينتهِ بعد.

لأن السيدة الصالحة مستشارة الأعمال ستاينهاجر، فقد وعدتها بالمجيء، ولهذا عبرت مرافق محطة القطار قبل الخامسة صباحًا، حين لم يكن هناك أحد في الطريق. كانت تهب ريح قوية، حتى أن الأشجار العالية انحنت، وكانت الأوراق اليابسة تدور حول رأسها كالخفافيش.

عند الجسر توقفت لحظة، إذ كانت الريح تهب عليها مباشرة، ورأت على الضفة، على بعد نحو مئة خطوة، شيئًا أسود. في البداية ظنّت أنه طفل أو كلب؛ لأنه بدا وكأن له أذرعًا أو أرجل ممدودة، فركضت نحوه، فإذا به بدلة مربوطة بخيط. يبدو أنها كانت ملفوفة في ورق، إلا أن الماء قد حلّ معظم الورق وجرفه بعيدًا.

أعصرت البدلة من الماء وقررت أخذها معها. فهي اعتقدت أن مالكها قد رماها، ولا يكون في ذلك ظلم، وربما يمكن لزوجها المرحوم الاستفادة منها إذا عاد، أو لابنها الأكبر عندما يكبر. وسألت ما إذا كان المحامي يظن أنها قد فعلت شيئًا خاطئًا.

نظرت إليه بقلق، وعيونها البنية كانت مشدودة إليه، تتلألأ كأضواء صغيرة متوهجة على وجهها المجهد.

قال الدكتور برنبورجر: "بالطبع لا، بعض الرجال الأثرياء

والنبلاء قد يكونون سعداء لو لم يكونوا مسؤولين عن شيء أكبر من هذا. فهذا المعطف كان بلا صاحب. أحسنتِ، أنتِ امرأة شجاعة. هل المعطف موجود في سلتك؟".

قالت المرأة الصغيرة بارتياح: "نعم، أحضرته معي الآن حتى لا أضطر للمجيء مرة أخرى، فالمسافة طويلة بالنسبة لي، وأطفالي عادةً ما ينتظرونني بفارغ الصبر مساءً".

أخرجت المرأة الحزمة من السلة، وقام الدكتور برنبورجر بفرد البدلة.

قال لها: "تعلمين، سأشتري منكِ البدلة، سواء كانت المطلوبة أم لا. هل ترضين إذا أعطيتك الآن عشرة ماركات مؤقتًا؟ لكنك ستحصلين على المزيد إذا تبين أنها البدلة التي أبحث عنها".

احمرّ وجه المرأة الصغيرة من فرط الفرحة الممزوجة بالخوف. وقالت إنها تستطيع الآن أن تشتري لابنها الأكبر الحذاء الجميل.

لكن الدكتور بيرنبورغ ناداها وهي تنزل السلم، وقال لها ألا تُخبر السيد تونيبول شيئًا عن الصفقة التي أبرماها معًا. فهو لا يحتاج أن يعرف شيئًا عنها. ودخل الدكتور برنبورجر الغرفة مرة أخرى وهو يشعر بحماس داخلي، يكاد من شدة انتصاره أن يعميه. فقد كان مسار تفكيره صحيحًا إذن! أخيرًا تقاطع طريق الحظ مع طريق عقله. كيف سيندهشون حين يحلّ

لهم اللغز ويعرض الدليل في الوقت نفسه! هل سيظل بإمكان أحدهم الشك بعد ذلك؟

ربما يوجد على البدلة شيء كالشارة أو العلامة يتيح معرفة المحل الذي اشتُريت منه. لكن فحصًا دقيقًا للبدلة لم يُظهر شيئًا من ذلك، غير أنه كان واضحًا تمامًا أن القطعة جديدة وجيدة، لكنها تبدو كملابس عامل فقير كثيرة الاستعمال بسبب رقعٍ خيطت فيها عمدًا.

بينما كان الدكتور برنبورجر يتفحص المعطف بعناية من كل جانب، اكتشف جيبًا جانبيًا مزوّدًا بأزرار، ففتحه، وأخرج منه ظرفًا مكتوبًا عليه عنوان بدا وكأنه قد تلطخ بالماء، لكنه كان مقروءًا: "السيد الدكتور س. إ. ديروجا"، ثم المدينة والشارع.

ورغم أن هذا الظرف أكّد له فقط ما كان يتوقعه، لم يقتصر شعوره على الدهشة، بل شعر بالذهول تقريبًا. حدّق فيه متجمدًا، كأن الظرف كان لعبة سحرية من خيالٍ مشوش لكنه واقع، المفتاح السحري الذي سيفتح له أبواب الشهرة والغنى.

لقد شعر سابقًا بأن الظرف يحتوي على رسالة، لكنه تردّد قبل أن يخرجها ويقرأها. حتى قلبه كان يخفق من شدة الترقب. لماذا كل هذا التوتر؟

وأخيرًا، أجبر نفسه على كسر هذه الترقب المرهق وبدأ بالقراءة. وكانت الرسالة تقول:

- "دودو... يا دودو العزيز،أنا مريضة بمرضٍ فتاك،

وسأموت... لكن قبل ذلك عليّ أن أتحمّل آلامًا فظيعة، وليس لدي أحدٌ يعينني.

أنت وحدك الذي أحبّني بما يكفي لتنهي معاناتي.

تعال وخلّص مرموطتك المسكينة، أنت الذي تعرف كم ترتعب من الألم

هذه أول كلمة أكتبها لك بعد سبعة عشر عامًا، وهي رجاء... آه يا دودو، ما كنت لأجرؤ على أن أوجّه مثل هذا الرجاء إلى قلبٍ غير قلبك.

تعال سريعًا، وستعرف كيف يمكن أن يتم الأمر.

ولن يعلم أحد أنني كتبت إليك.

مرموطتك".

قرأ الدكتور بيرنبورجر الرسالة مرارًا وتكرارًا. شعر بالخيبة والتعب. تُراه هل كانت هذه الرسالة خدعة؟ عملًا دُبّر بعد ذلك، صنعه ديروجا أو أحد أصدقائه، وسلّموها إليه؟ وبعد أن فحصها بدقة واستبعد تمامًا أي خداع، أعادها إلى الظرف ووضعها في جيب صدره. ثم أخذ قبعته ومعطفه ليذهب إلى المقهى.

لكن ما إن ابتعد بضع خطوات عن المطعم الذي اعتاد تناول العشاء فيه، حتى عاد واختار مكانًا آخر، حتى لا يخاطبه أحد من معارفه؛ فقد كان مشتت الذهن ولا يريد أن يلفت الانتباه.

وبينما كان يأكل، لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير بأنه لا شيء يمنعه من إلقاء الرسالة في الفرن الحديدي الصغير المشتعل على بُعد خطوات منه. ففي لحظة واحدة كانت اللهب السريعة ستقضي على تلك الشهادة المشؤومة.

لم يكن ينوي القيام بذلك، لكن الفكرة كانت حية جدًا في ذهنه لدرجة أنه شعر بالخوف، كما يشعر المرء بالدوار عند احتمال سقوطه عن غير قصد من علو إلى هاوية.

فكر قائلًا في نفسه: يا له من غباء أنني أعطيت المرأة العجوز، التي وضعتني في موقف محرج كهذا، عشرة ماركات! هل سأتمكن من الاستفادة من المعطف وإخفاء الرسالة؟ إذا فعلت، فسأكسب إعجاب وامتنان البارونة.

كم سيكون ممتعًا أن أقنعها بدهائي وصحة استنتاجي الذي امتلكته منذ البداية! وماذا ستقول لو أريتها الرسالة؟ لا شك أنها ستتفاجأ وتقول: "لقد وعدتني بكشف ديروجا كمجرم، وها أنت تمنحه الآن هالةً من القداسة! أنتم حقًا تعرفون كيف تفي بالوعود!".

على الأرجح كانت ستمنعه من استخدام الرسالة، وكان ذلك في الحقيقة أسعد الحلول بالنسبة له؛ فهي بذلك تفرض عليه ما لم يكن ليجرؤ على فعله بمحض إرادته.

ثم تساءل: وكيف سيكون موقف ديروجا؟ لم يستطع الدكتور بيرنبورجر أن يفهم سبب إخفائه للحقيقة. وهل لم

يُخبر محاميه أيضًا؟

وفجأة شعر برغبة قوية في الذهاب إلى المكان الذي قالت غسالة الملابس إنها وجدت فيه البدلة. لم يعد راغبًا في البقاء داخل المطعم، ولم يكن بوسعه النوم.

كان عليه أن يمشي نحو قرابة ساعة حتى بلغ الجسر الممتد فوق القناة.

كان الثلج الذي تساقط الليلة الماضية قد ذاب وتحول إلى طين، وكان يسمع صوت الأرض تحت قدميه في الظلام. كان الجسر الخشبي زلقًا، والمياه مرتفعة للغاية؛ تنساب تحته سوداء، سريعة، كأنها تتخفى في الليل.

وبعد فترة، استطاع أن يميز أسفل منه جذور شجرة قديمة تتلوّى وتتعلق بضفة النهر؛ وهناك، على الأرجح، علقت حزمة الثياب التي جرفها التيار.

ظلّ الرجل ينظر طويلًا إلى المكان، ثم واصل المسير حتى وصل إلى مقعد حجري على شكل نصف دائرة. وفي أجمل أيام السنة يمكن رؤية المروج من هناك في منظر مبهج وجذاب.

تخيّل الدكتور بيرنبورجر أنّ ديروجا ربما جلس هنا في تلك الليلة العاصفة من أكتوبر، وبعد أن غيّر ملابسه، ظلّ ينتظر موعد القطار الذي سيعود به إلى منزله. وربما كان ديروجا متعبًا ومضطربًا، فاختار هذا المكان ليستريح بعيدًا عن أعين

الناس.

ومثلما تخيّل، خاض الدكتور الأرض المبللة وجلس على المقعد دون أن يهتم بمدى بلله. وبدأ يتساءل: ماذا شعر ديروجا بعدما رأى المرأة التي أحبها وكرهها يومًا، ثم فارقها إلى الأبد؟ وما الذكريات التي كانت تدور في رأسه بينما كانت أوراق الأشجار تهمس حوله؟

وبينما كان الدكتور غارقًا في تفكيره، بدأت قطرات ماء باردة تتساقط عليه، فشعر بقشعريرة، ونهض بسرعة، واتجه نحو المدينة دون أن ينظر خلفه.

الفصل الخامس عشر

في صباح اليوم التالي، شعر الدكتور بيرنبورجر بتعب شديد، لدرجة أنه اعتقد أنه من حقه أن يعتذر عن عدم الحضور بحجة المرض، وبعد أن أجرى ذلك هاتفيًا، عاد إلى سريره على أمل أن يواصل نومه.

لكن رنين الهاتف أيقظه، ولشعوره بالانزعاج قرر في البداية أن يتظاهر بعدم الاهتمام. ومع ذلك، عندما رن الهاتف من جديد، نهض متنهّدًا ليستمع لما يريده المتصل. تعرف على الفور على صوت البارونة، الذي منحه الهاتف نبرتة الحادة.

قالت: "أنت مريض؟ هذا بالفعل غير مناسب على الإطلاق. أنا على وشك السفر، ولهذا من الضروري أن تكون حاضرًا شخصيًا".

أجاب بيرنبورجر أنه لم يمرض حبًا في ذلك، فقالت البارونة: "لا يبدو أن المرض شديدًا إلى درجة تمنعك من الحضور إلى الفندق لمدة ربع ساعة على الأقل. يجب عليّ أن أتحدث إليك قبل مغادرتي".

أعرب بيرنبورجر عن أسفه، فهو مستلقٍ في السرير.

ضحكت البارونة، وقد أدرك كيف يكون صوت ضحكتها مغريًا حين ترغب في ذلك: "ولكنك على الهاتف يا سيدي الدكتور!".

رد عليها غاضبًا: "حسنًا، سأحضر إذن بمشيئة الله!".

أجابته بصوت هادئ: "حسنًا، دكتور، يمكنك أن تأخذ عربة".

استقبلته البارونة بعدها قائلة: "لا تبدو مريضًا على الإطلاق، دكتور".

ثم أضافت: "لقد قررنا، أنا وزوجي، فجأة السفر إلى باريس، بعد أن تركت في داخلي تلك المحاكمة المروعة أثرًا بالغًا، كما أخبرتك سابقًا".

قال الدكتور بيرنبورجر بدهاء متعمد: "لا بد أن سلوك ابنتكم الصغيرة صعبًا عليكم جدًا".

احمرت وجنتا البارونة، وقالت: "أنت تعلم أن حكم الشابة لا يحدد أفعالي. ابنتي سترافقنا".

قال الدكتور بيرنبورجر: "حقًا، لا يسعني إلا أن أحسدكم على تغيير مكان الإقامة".

أجابت البارونة: "نعم، فالربيع في ألمانيا لا يُطاق". وأضافت: "ربما لهذا السبب يتغنى به الشعراء الألمان كثيرًا؛ فنحن عادةً نمدح ما لا نعرفه".

قال الدكتور بيرنبورجر: "إذن، عدم التعارف أبدًا قد يكون سر الزواج السعيد". وأضاف، وهو يلوم نفسه: "أرى أن ضعفي يجعلني مشتتًا وكثير الكلام. فما الذي تودون قوله لي، يا سيدتي البارونة؟".

قالت البارونة: "كنت أرغب في أن أضع هذه القضية بين يدي ضميرك وقلبك. عندما التقينا آخر مرة، شعرت بالحيرة؛ وكان ذلك نتيجة تهوري وسوء تقديري حين حضرتُ شخصيًا، كما أدركت الآن. كل تلك التفاصيل الكثيرة، والشهادات المتغيّرة، والانطباعات القوية، تُربك المرء إذا لم يكن معتادًا على مثل هذه الأمور. والآن، لا أريد أن أتدخل بنفسي، بل سأترك المحاكمة تأخذ مجراها وأنتظر النتيجة. أما تحقيق العدالة، فذلك شأن المحامين والقضاة".

أجاب الدكتور بيرنبورجر: "بالطبع".

ثم سألت البارونة: "أيمكنني الاعتماد عليك؟ لن يستمر مرضك طويلًا، أليس كذلك؟ سأكون ممتنة جدًا إذا أطلعتني من حين لآخر على ما يستجد. لقد قلت في المرة الأخيرة إنك تأمل في الوصول إلى اكتشاف حاسم".

حدّق الدكتور بيرنبورجر في البارونة طويلًا، وارتجف قليلًا عند سماع كلماتها الأخيرة، ثم قال بنبرة يغلب عليها التوتر:

- "للأسف، يجب أن أخبرك أنني مضطر للتخلي عن تولّي قضيتكم".

كانت أول ردّة فعل للبارونة على هذه الكلمات غير المتوقعة شعورًا جارحًا بالاستياء الممزوج بالغضب، سيطر عليها إلى حدّ أنها لم تستطع في البداية أن تملك نفسها للتعبير عن رأيها.

وأخيرًا صاحت: "هذا أمر لا يُصدّق، هذا مستحيل!".

وبينما كانت تتكلم، كانت عيناها الرماديتان تلمعان ببريق بارد وحاد.

وأضافت: "أنت تريد أن تتخلّص من الورطة التي وضعتني فيها، لكنني لن أسمح لك بذلك. أما هذا المرض فهو مجرد حجة، أرى ذلك بوضوح تام. إنها خطوتك الأولى لتركنا... لتتخلّى عنا بطريقة مخزية".

شحب وجه الدكتور بيرنبورجر، لكنه ظلّ هادئًا، بل ازدادت عزيمته تحت هذا الهدوء.

وقال: "أنا بالفعل أشعر بالمرض، ولم أعد قادرًا على القيام بالمهمة. وإنني أتنحّى لأجلكم أنتم تحديدًا".

فقالت البارونة بسخرية لاذعة: "شكرًا لك على هذه التضحية المراعية لمشاعري... لكنني لا أقبلها. سأظل أثق بك، رغم مرضك".

في تلك الأثناء، استوقفت نبرة الأم المتوترة والحادّة انتباه مينغو، التي كانت في الغرفة المجاورة. دخلت الغرفة ونظرت إلى المتجادلين بعينين متسائلتين مفعمتين بالدهشة. ومن حيث لا يدري، منح حضورها المحاميَ الشاب جرأةً إضافية.

قال: "إذا كشفت لكم اسم مرضي وطبيعته، سيدتي البارونة، فستفهمونني أكثر. إنّ علّتي أنني بدّلت قناعاتي".

فسألت البارونة: "بهذه السرعة؟ منذ يومين أو ثلاثة فقط

كنت تدافع عن رأي نقيض!".

فأجاب الدكتور بيرنبورجر: "فقد يحدث أن تنفتح بصيرة المرء على الحقيقة فجأة".

ولم يكد يُتمّ عبارته حتى قبضت مينغو على يده الساخنة الرطبة، تلك اليد التي اعتادت أن تتحاشى لمسها، وقالت: "آه، سيدي الدكتور، حدّثنا بكل شيء! أشكرك، ستسعد أمي كما سأسعد أنا، حتى إن أنكرت ذلك أول الأمر! كم هو طيب أن تعترف بخطئك".

لم تُفلِت يده، بل أمسكت بها بحرارة وانفعال، فيما امتلأت عيناها بالدموع وارتجفت شفتاها.

حتى ملامح البارونة المشدودة بدأت تسترخي، رغم محاولتها الحفاظ على رباطة جأشها وهيبتها.

قالت بنبرة معتدلة صارمة:

- "كن صادقًا معي، سيدي الدكتور. هذا أبسط ما يمكنني طلبه منك. هل تغيّر رأيك نتيجة انطباعات نفسية، أم بسبب معلومات جديدة تلقيتها؟".

وعندها فقط أشارت له بيدها ليجلس، ولما همّ بأخذ كرسي، قدّمت له مقعدًا مريحًا مبتسمة، في تلميح آخر إلى (مرضه). وأضافت:

"ويجب عليك أيضًا أن تشرب كأسًا من النبيذ"، ثم أومأت لمينغو بعينيها لتقرع الجرس.

ثم تابعت البارونة:

- "يبدو أنك متعب بالفعل. أظن أنني كنت قاسية معك قليلًا قبل قليل، لكنك أنت من دفعني إلى ذلك بسبب عدم صراحتك، وبخاصة بسبب شكوكك. وأعتقد أنه إذا أخذت بعين الاعتبار الانطباعات السيئة التي كوّنتها عني، فلست مدينة لك بشيء بعد الآن".

عند انتهاء الدكتور بيرنبورجر من سرد قصته، امتلأ وجه مينغو الشاحب بالدموع، ولم تحاول إخفاءها؛ ولم تكن قادرة على الكلام. أما والدتها فلم يظهر عليها أي أثر تأثر.

قالت البارونة: "اشرح لي الآن، سيدي الدكتور، كيف غيّر اكتشافك الأوضاع؟ وما هي النتائج المتوقعة؟".

أجاب الدكتور بيرنبورجر: "الوضع يتغير فقط إذا أردتم ذلك. وإذا طلبتم مني الصمت حول اكتشافي، فسيكون من واجبي ألا أفشيه".

صاحت البارونة سريعًا: "هذا بالطبع مستحيل! لم أرغب يومًا إلا في أن يأخذ الجاني جزاء فعله. ما فعله السيد ديروجا أراه عملًا كريمًا إلى حدّ ما، لكني لا أعلم كيف تراه العدالة".

وأوضح المحامي: "من خلال الرسالة، يتضح بشكل قاطع أن الدكتور ديروجا قتل زوجته السابقة بناءً على طلبها، وبالتالي يندرج عمله تحت فئة تُسمى: (القتل بناءً على

الطلب)".

الفصل السادس عشر

افتتح الدكتور زيونمان الجلسة التالية بإعلان مفاجئ: فقد قام الدكتور بيرنبورجر، الذي كلفته البارونة تروشكوفيتس بالتحقيق في وفاة ابنة عمها، بجمع بعض الحقائق التي قد تُحدث تحولًا في مجريات المحاكمة. وبعد أن حصل على إذن البارونة، طلب تقديم هذه المعلومات أمام المحكمة.

لقد فاجأ هذا الحدث غير المتوقع حتى ديروجا، الذي بدا سابقًا غارقًا في النعاس. فتشنجت عضلاته تلقائيًا، كما لو كان يستعد لمواجهة، إذ توقع من الدكتور بيرنبورجر هجومًا مباغتًا.

قال الدكتور بيرنبورجر: "أيها السادة القضاة وأعضاء هيئة المحلفين، لقد توصلت إلى اكتشاف مهم لا أستطيع كتمه عنكم ساعة أخرى، إذ يسلط الضوء مباشرة على القضية الغامضة التي تنظرون فيها. انطلاقًا من قناعتي، كنت أعتقد أن ديروجا هو من ارتكب جريمة قتل السيدة سويتر، وذلك لأنه، أولًا، كان الشخص الوحيد الذي له مصلحة في وفاتها، وثانيًا، الشخص الوحيد الذي كان مصيره مرتبطًا بمصيرها ارتباطًا وثيقًا وبأكثر الطرق مأساوية. بدا لي أنه لم يكن بإمكان أي شخص دخول شقتها بدون موافقة السيدة سويتر أو خادمتها أو كليهما معًا. وقد دعمت شهادات الشهود هذا الرأي، مع تعديل بسيط إذ استُبعدت خادمة السيدة سويتر واعتُبرت الأخيرة وحدها المسؤولة عن دخول القاتل.

وتخيلت الحادثة على النحو التالي: إما أن السيدة سويتر استدعت زوجها السابق لتوديعها، أو، وهو ما بدا لي أكثر احتمالًا، أنه جاء إليها طالبًا المال، وأن أي تطور غير متوقع في الحوار هو ما دفعه إلى ارتكاب الجريمة. وفي كلتا الحالتين، يمكن تفسير ما حدث بالعلاقة الخاصة التي كانت تربطهما، وبطباع ديروجا الجامحة التي لا تُقهر. افترضت أنه أعلن عن نفسه أو أشار إلى وجوده بعلامة كانا يعرفانها منذ زمن مضى؛ فلم يكن عليه سوى أن ينادي باسمها تحت نافذتها، أو يغني لحنًا، أو يصفر، لتتعرف عليه. عندما روت الشجاعة أورسولا عن السلوفاكي الذي طرق الباب وقت الظهيرة ثم اختفى لاحقًا، تأكدت في نفسي أنه كان ديروجا. تخيلت أنه كان ينتظر في مكان ما داخل المنزل، ربما في القبو، حتى حانت اللحظة التي تخرج فيها أورسولا، ثم دعته السيدة سويتر ودخل المنزل، ليخرج منه قبل عودة أورسولا. وفي طريقه إلى باب الحديقة صادف الحارس الذي نظر إليه بفضول، وما إن فعل ذلك، أو ربما لمجرد وجوده، حتى ازداد وعيه بالخطيئة التي ارتكبها وخطر انكشافه. حاول أن يتصرف بشكل طبيعي، فلم يجد أفضل من أن يخرج سيجارة من جيبه ويسأل: (هل عندكم قداحة، صاحب الفضيلة؟)، لكنه لم يكن في مزاج للتدخين، وكان متوترًا جدًا بحيث لم يستطع التصرف بعقلانية، فارتكب خطأً وألقى السيجارة المشتعلة في الشجيرات قرب باب الحديقة".

تابع المستمعون السرد بتشوق، كما لو كانوا يسمعون هذه

الأحداث لأول مرة.

كان الانتباه مقسمًا بين الدكتور بيرنبورجر وديروجا، الذي لم يفكر في إخفاء وجهه عن الأنظار بوضعه في يده كما يفعل عادة.

تابع الدكتور بيرنبورجر، قائلًا: "كانت قناعتي قوية جدًا بأن السلوفاكي لا بد أنه ديروجا، لدرجة أنني كنت أعلم ذلك. لقد تتبعت جميع خطواته منذ اللحظة التي اشترى فيها تذكرة القطار في براغ، كما تم التأكيد على ذلك. كان حينها يرتدي بدلة عادية، وربما مع معطف، لأنه لو خرج من شقته مرتديًا الرداء لكان ذلك لافتًا للنظر ولافتًا للانتباه؛ وكان الرداء موجودًا معه في الحزمة. السؤال الآن: أين غيّر ملابسه؟ هل في القطار؟ أم في أحد أركان المحطة؟ أم ربما في الخارج ليلًا؟ كان عليه اختيار مكان يمكنه فيه تغيير ملابسه وترك البدلة العادية، ثم استعادتها لاحقًا واستبدالها بالرداء. لقد أخذ الرداء إما معه في الحزمة إلى المنزل، أو – والأرجح – ألقاه أو أخفاه في الطريق".

وإذا كان الأمر على هذا النحو، فكان يمكن العثور عليه وبيعه لتاجر بضائع قديمة، ورغم ضآلة فرصة النجاح التي كان يمكن أن يحققها البحث في هذا الاتجاه، بذلك جهدًا للإستعلام في سلسلة كبيرة من هذه المتاجر.

لم أتلق أي معلومة مفيدة، وكنت قد فقدت الأمل في العثور على أي أثر في هذا الجانب، إلى أن اتصلت بي امرأة مسنّة،

إذ صادف أنها سمعت برغبتي في متجر أحد تجار البضائع المستعملة. كانت هذه المرأة، وهي غسّالة، قد مرّت صباح يوم 3 أكتوبر، بعد الساعة الخامسة بقليل، عبر مرافق المحطة، ورأت من فوق الجسر الذي يعبر القناة شيئًا داكنًا في الماء، فظنّته في البداية شيئًا حيًا. وعندما اقتربت منه، تبيّن لها أنه بدلة من بدلات العمال، وقد علقت عند جذع شجرة. وبعد أن أخرجتها وعصرتها، أخذتها باعتبارها غنيمة بلا صاحب".

وبينما كان الدكتور بيرنبورجر يروي ذلك، تقدّم إلى الطاولة، ووضع الحزمة التي كان كان يحملها تحت ذراعه فوقها، ثم فكّها وبسط البدلة، فنهض القضاة والمحامي من مقاعدهم وانحنوا ليتفحصوها عن قرب.

تابع الدكتور بيرنبورجر، قائلًا: "لم تكن هذه البدلة سوى خيط يمكن تتبعه. أمّا الدليل على أنّها تعود للمتهم، فقد وجدته في رسالة كانت داخل جيب جانبي مُزرّر من الرداء. ورغم أن بعض الكتابة قد تلطّخ، فإننا ما نزال قادرين على قراءة الرسالة كاملة. وأطلب الإذن بقراءتها أمام المحكمة".

وخلال سرده، بدا الاضطراب على الدكتور بيرنبورجر يتزايد شيئًا فشيئًا، وأخذت انفعالاته تفضحه رويدًا رويدًا. وعندما شرع في قراءة الرسالة، تعثّر صوته مراتٍ عدّة، وحين وضعها أخيرًا على الطاولة كانت يده ترتجف. "يا للعجب!" بهذه العبارة المفعمة بالدهشة قطع المستشار القانوني فاين الصمت الذي خيّم على القاعة.

وفي تلك الأثناء، كان الدكتور زيونمان قد تناول الرسالة، ورفعها إلى مستوى عينيه، وفحص الخط وختم البريد والورق بعناية، ثم تساءل: "كيف وصلت الرسالة إلى هنا؟".

أجاب الدكتور بيرنبورجر: "ربما تتمكن الآن الآنسة شفيرتفِجر من توضيح الأمر لنا".

وبعد توقف قصير، التفت رئيس الجلسة ببطء نحو ديروجا وسأله إن كان يريد أن يبدي أي ملاحظات حول إفادة الدكتور بيرنبورجر.

هزّ ديروجا رأسه بصمت، دون أن يرفع نظره.

استأنف الدكتور زيونمان، قائلًا: "نود أن نسمع منك تأكيدًا بأن سرد الدكتور بيرنبورجر دقيق، أو أي تصحيح إذا لزم الأمر".

لكن قبل أن يُكمل الجملة، قاطعه المدعي العام، مشيرًا بأذرعه الطويلة إلى ديروجا: "ألا ترى، يا زميلي، أن الرجل قد أصيب بوعكة؟ دعوه الآن، فهذا كفيل بأن يعصف حتى بأقوى معدة! كوب ماء! بسرعة!"، وأشار إلى موظف المحكمة القريب، يحثه على الإسراع بنظراتٍ حادة.

كان المستشارُ القانوني فاين قد وضع ذراعه حول كتف ديروجا، يحدّثه بصوتٍ خافتٍ محاولًا تهدئته. ثم استدار نحو منصة القضاة وقال بثبات:

- "موكّلي يمرّ بوعكة صحية، ويطلب الإذن بالمغادرة.

وسيقدّم غدًا جميع الإيضاحات المطلوبة".

وما إن غادرا القاعة معًا حتى قال المستشار، وقد بدا عليه شيءٌ من الانكسار:

- "اسمع يا دكتور... هذه أول مرة في حياتي أشعر فيها بأنني رجل لئيم".

ابتسم ديروجا ابتسامته الآسرة، وأجابه بنبرةٍ خفيفة:

"احمد الله إذن. ففي سنّك قد يكون من السهل أن تكون هذه هي المرة العاشرة... أو حتى المئة. ثم إنك كنت مُحقًا تمامًا: الناس مخلوقات ضعيفة وحمقاء. ولماذا كان ينبغي لك أن تصدّقني أصلًا؟".

هزّ المستشار رأسه، وقال وقد خفّ صوته:

- "رجلٌ مخضرم مثلي... كان ينبغي أن يفرّق بين الأمور. لكن... لقد راقت لي صحبتك منذ البداية يا ديروجا، وأرجو أنك لاحظت ذلك".

"نعم، رغم أنك - بين السطور - كنتَ تراني رجلًا لئيمًا"، قال ديروجا.

نظر إليه المستشار القانوني بعينين مفعمتين بالمودّة، وقال:

- "تبدو منهكًا. لِنشرب زجاجة نبيذ معًا!".

لكن ديروجا اعتذر، موضحًا أنه يعاني من صداع شديد:

"لا أدري ما الذي أنهكني بهذا الشكل"، قال. "أظن أنّ ما

ثقل عليّ هو إحساسي بأن ذلك الرجل كان يتعقّبني خطوة بخطوة".

تأمّل المستشار قليلًا، ثم قال:

- "في الواقع... أنت أسأتَ الظنّ به، لقد تصرّف تصرّفَ رجلٍ نبيل".

ابتسم ديروجا بخفة وقال:

- "مؤسف، أليس كذلك؟".

ثم افترقا.

وفي داخل مبنى المحكمة، كان المحامون وأهل الاختصاص لا يزالون متحلقين حول الدكتور بيرنبورجر، يسألونه عن تفاصيل شتى. أما المدّعي العام فصافحه للمرة الثالثة بكلتا يديه، مشيدًا بحماسه. كانت خصلات شعره الرقيقة قد تناثرت، وعيناه الفاحصتان تلمعان تحت حاجبيه الكثيفين المشتبهين بذيول الثعالب.

"يُقال عنّي إنّي حادّ الملاحظة"، قال، "وذلك صحيح، وسأظل كذلك. لكن أمام هذا الإيطالي يدرك المرء أحيانًا معنى أن يكون إنسانًا حقيقيًا. إنه إنسان كامل، من دون أن يكون حقيرًا، وهذا ما أسر قلبي إليه".

قال الدكتور زيونمان: "وأنت أيضًا، بصفتك مدعٍ عام، إنسان كامل من دون أن تكون حقيرًا. وربما يكون هذا أعظم تحدٍ على الإطلاق".

تأمل المدعي العام قليلًا قبل أن يقول: "ما هو الأقل شيوعًا، الجمال مع الثياب أم الجمال في العري الكامل؟ على أي حال، لا أرغب في كشف كل شيء، بل أن أبقى على الصعيد القانوني والإنساني، متجاهلًا كل الوقائع التي قدمها الدكتور بيرنبورجر، ومتمسكًا بالاتهام بالقتل العمد كما لو لم يحدث شيء".

قال الدكتور بيرنبورجر: "ممتاز، ممتاز. وإلا لكان مصيره في النهاية سيئًا".

قال الدكتور زيونمان: "بهذه الطريقة ينجح مخطط فاين، لكن بالنسبة للظروف الحالية، أراه نوعًا ما تعسفيًا".

- "ولمَ يا عزيزي؟ كيف هي حقيقة الوضع؟ صحيح أننا نعلم الآن أن السيدة سويتر كانت ترغب في اختصار آلامها بالموت، وأنها طلبت من زوجها السابق أن يسديَ لها هذه الخدمة، وأن ديروجا نفّذ ذلك. لكن... هل نعلم حقًّا أنه فعل ذلك بدافع الشفقة؟ وهل يمكننا استبعاد أن تكون له دوافع أنانية خفية؟ وهل نعلم أنه لم يكن يتمنى موتها منذ زمن؟ أو أنه لم يفرح بالرسالة التي قدّمت له الحجّة المناسبة؟ مثل هذا لم يحدث لأول مرة. تذكّر فقط السرعة التي تولّى بها تلك المهمة الدقيقة! فالسمّ، كما يبدو، كان جاهزًا لديه سلفًا".

فضحك الدكتور زيونمان مقاطعًا: "كفى! إن استمر حديثك هكذا فستتهمه بالقتل العمد!".

فقال المدعي العام مفكّرًا: "ربما كان ذلك أدقّ من الناحية القانونية... لكنني عقدتُ العزم على الحكم بمنطق إنساني هذه المرة. ثم إنني أخشى، على ما أظن، أن تمزّقني أولئك السيدات إربًا لو هاجمتُ محبوبهن!".

فقال الدكتور زيونمان ساخرًا: "وفي المقابل سيمزّقنك بدافع الامتنان! يبدو أن نصيبك أن تكون على الدوام ضحية النساء".

الفصل السابع عشر

في فترة بعد الظهيرة، طلبت البارونة أن تتواصل مع ديروجا. فنهض من فوق الأريكة غير المريحة التي كان مضطجعًا عليها ونائمًا، وغمز بعينيه منزعجًا من الضوء.

وقالت وهي تمد له يدها: "أيها الدكتور العزيز، جئتُ لأطلب منك أن تسامحني. الله يغفر للعبد التائب، فلن تكون أنت أشد قسوة منه".

فقال ديروجا: "لا أدّعي أنني أقارَن بالله، ولكن هذا لا يغيّر شيئًا، لأني في الحقيقة لا أملك ما أسامحك عليه. فأنتِ لم تطارديني أنا، بل كنتِ تدافعين عمّا اعتقدتِ أنه الحق".

قالت البارونة: "أنتَ تتجنب المصالحة". ثم أضافت: "أنا أفهمك جيدًا، لكني لست ممن يُضدّون بسهولة. فمن رجل يستطيع أن يحب كما تحب أنت، يمكن للمرء أن يتحمّل منه الكراهية، بل وما هو أسوأ من ذلك أيضًا. أي امرأة لا تُضحي بكل ما تملك كي تُحب مرة واحدة في حياتها بهذا الحب الذي أحببتَ به؟".

صاح ديروجا :"حقًا ! منكِ أنتِ، أظنّ أن لهذا الكلام دلالة خاصة".

قالت البارونة: "كلامك قد يبدو لاذعًا، لكنني لا أشعر بالأذى لأنه واضح أنك لا تقصد سوءًا. لا أعرف كيف كنت سأعيش بدون مال، وحتى بدون الكثير منه. لكل شخص عاداته،

لكنني لست جشعة، فالمال بحد ذاته لا يعني لي الكثير. أما سبب غضبي الشديد حين فقدت الإرث، فهو أنني كنت شغوفة بالمال، وهذا لا أنكره. وأريد أن أخبرك وحدك بالسبب: شعرت بالملل الشديد في زواجي".

قال ديروجا: "نعم، الملل هو أعظم وأخطر مشكلات الحياة".

أجابت البارونة: "بالطبع، لا يمكن تخيل رجل ألطف منه، فهو كالهواء النقي، لا تشعر به تقريبًا. كنت أظن أنني أحبه قليلًا عندما تزوجته، لكن شعرت بالملل الشديد في صحبته، وربما كنت سأخونه لو كان ذلك متوافقًا مع مبادئي. ومع ذلك، تمسكت بهذا المبدأ لأنه الشيء الوحيد الذي أعترف به".

قال ديروجا: "لكن لديك ابنة".

أجابت البارونة: "ربما شعرت بالملل معنا كما شعرت أنا، فمنذ كبرت وأمكن أن تكون رفيقة لي، كانت تنتهز كل فرصة لمغادرة المنزل. وفي الوقت نفسه، كنت أملأ وقتي بوضع خطط للمستقبل: أن أتخلص من زوجي بمجرد أن تتيسر أمورها وتُزوَّج".

ارتسمت الدهشة الصادقة على وجه ديروجا.

قال: "هل تفكرين حقًا في الطلاق الآن؟".

ارتسمت ابتسامة جذابة على وجه البارونة جعلتها تبدو شابة.

ردّت: "في هذا العمر، تقصد؟ طالما أشعر بالرغبة، فأنا على ما يبدو ما زلت شابة بما يكفي".

- "هل تفكرين في الزواج برجل يضيف إلى حياتك حيوية ومتعة أكبر؟".

كرّرت: "آه، الزواج! ليس هذا ما يشغلني، ولا حتى الطلاق بشكل رسمي، بل الأهم أن أكون حرة وأتخلص من أجواء الملل".

هزّ ديروجا كتفيه، وقال: "في الحقيقة، لا يختلف الحال كثيرًا في أي مكان من العالم".

صاحت بحيوية: "لا، لا! لا أستطيع على سبيل المثال أن أتخيل كيف يمكن للمرء أن يشعر بالملل في صحبتك!".

كانت صريحة بطريقة طفولية وعفوية في التعبير، حتى إنّ ديروجا، الذي كان يعدّ نفسه خبيرًا بالنساء، لم يستطع أن يميّز ما إذا كانت هذه العفوية طبيعية أم مصطنعة.

أجاب مبتسمًا بلطف: "ولهذا أيضًا وجهٌ آخر. ألا تتذكرين البيت الذي كتبته لي المارموت المسكينة في كتاب:

ديروجا، أنت غريب..

كما أنت جميل؛ لا يمكن العيش بدونك ولا العيش معك أيضًا".

احمرت وجنتا البارونة قليلًا، لكنها استطاعت رغم ذلك أن

تتحدث بعفوية مقبولة:

- "حسنًا، الاحتكاك اليومي بين الزوجين الذي تجلبه الحياة الزوجية، لا أظن أنني سأتحمله مرة أخرى، وأراه أمرًا مضرًا وقاسيًا. ولكن الآن"، أضافت وهي تنهض، "صافحني لتكن دعوةً للتصالح!".

"بكل سرور، سيدتي البارونة"، قال ديروجا وهو يمسك بيدها. "لقد نلتِ عقابكِ بالفعل بفقدان المال".

"نعم، المال"، قالت بحسرة، "الذي كان من المفترض أن يفتح لي القفص. وقد تحدثنا عن هذا من قبل: السبب الوحيد الذي حال دون تحقيق رغبتي هو أنني لم أكن أملك مالًا خاصًا بي، ولم أكن أعلم كيف سأعيش إذا تركت زوجي. كان من المفترض أن تمنحني ميراث ابنة عمّي المريضة الفقيرة حياة جديدة! حسنًا، لننتهِ من الحديث عني، فهذا يكفي. هل تسمح لي بأن أزين لك هذه الغرفة قليلًا، للوقت الذي ستبقى فيه هنا؟ محلًا بالزهور؟".

قال ديروجا: "افعلي ما يسعدكِ".

وبينما كانت واقفة مترددة عند العتبة، استقرت عيناها على يده السمراء المتناسقة الشكل، اليد التي كانت ما تزال تمسك بها، ثم غادرت وهي تبتسم.

وعندما سارت في الشارع الجانبي الكئيب قليلًا، أحسّت كأنها لم تختبر في حياتها كلها شعورًا مشتعلًا يعصف بكل

كيانها كهذا الشعور. كان إحساسًا لاذعًا، ممزوجًا في الوقت نفسه بالخوف واللذة، وكأن كل قواها ترتفع وتتصفى وتزداد نقاءً. ومع ذلك، شعرت أنه لو ازداد هذا الشعور قليلًا، لأصبح مزعجًا وغير مريح. بل إن مسحة خفيفة من الخوف كانت تسري في داخلها، لكنها لم تكن تكفي لتغطي على النشوة التي أثارها هذا الاضطراب العارم.

قررت البارونة أن تقوم بنزهة قصيرة. لم يكن الوقت متأخرًا بعد، وكانت الأضواء في الشوارع وواجهات المتاجر تُضاء تدريجيًا، فتتوهّج كنقاط صفراء نارية وسط خليط الألوان الشاحبة في ضوء الغسق. سارت ببطء، مبتسمة، بلا هدف محدد. ما أجمل أن يشعر المرء كأنه عاد فتى أو فتاة، وأن يسلك دروبًا محظورة كما تفعل الفتاة التي يخفق قلبها لأول حب! نعم... كان الأمر أشبه بذهابها إلى موعد غرامي.

وعندما مرّت بمحلٍّ للزهور بدا كأنه غابة استوائية فخمة، خطرت لها فكرة شراء شيء لغرفة ديروجا. أمضت وقتًا طويلًا في الاختيار، ولم تسأل عن الأسعار تقريبًا، رغم أنها عادةً لا تهملها، ولا سيما حين يتعلق الأمر بالهدايا.

وبالصدفة، التقطت عيناها انعكاسَ صورتها في مرآة: قوام رشيق، متناسق، يفيض بالأناقة الطبيعية. فاجتاحها شعور دافئ من الفرح والفخر. ورغم أنها لم تكن زهرة ندية تتلألأ في ضوء الصباح، فإن ما تفتقر إليه من ألوان صارخة كان يعوّضه صفاءُ ملامحها وعطرٌ لا يتفتح إلا عند الغسق. شعرت

أنها لا تزال قادرة على أن تكون جذابة، ساحرة. ولِمَ لا تحب نفسها؟ فهي لم تحب أحدًا يومًا. كانت البارونة في صراع مع نفسها بشأن ما إذا كان عليها حضور الجلسة في صباح اليوم التالي؛ إذ شعرت أن وجودها قد لا يروق لديروجا، بل وربما بدا في الأمر شيء من قلّة الذوق ومنافاة الشعور، إذا ظهرت الآن في المقعد الذي كانت تشغله في القاعة سابقًا بدافع الفضول والرغبة المتلهّفة في رؤية قضيتها تنتصر. ومع ذلك، لم تستطع مقاومة الدافع الذي يجذبها إلى الاقتراب من ديروجا، ولو لمجرد الاطمئنان على حاله.

وقالت أثناء الفطور لزوجها وابنتها:

- "إذا أخطأ المرء، وجب عليه أن يصلح خطأه بالاعتراف به. ولا أريد السفر إلى باريس قبل أن أعرف ما سيؤول إليه أمر ديروجا، وما يمكننا فعله من أجله".

وكان البارون على الرأي نفسه، بينما احمرّ وجه مينغو فرحًا. فقالت الابنة: "ماما العزيزة، أنا سعيدة لأنكِ ما زلتِ طيبة القلب".

فردّت البارونة، موبّخة إياها بخفة، من غير أن تستطيع كتم ضحكتها:

- "لكن يا مينغو!".

سألت مينغو: "هل يمكنني أن أذهب معكم، يا أمي؟"، وهي تقفز وتحتضن والدتها. "أنتِ تعلمين كم عانيت، والآن أريد

أن أكون موجودة أيضًا بعد أن تغيّرت الأمور إلى الأفضل. ألن تؤكّد براءته؟".

قال البارون: "لا شك في ذلك على الإطلاق"، بينما حاولت البارونة تحرير نفسها من احتضان مينغو وقد انتابها شعور مفاجئ بالغيرة. سرعان ما مرّت نظراتها على مينغو بفحص دقيق، إذ شعرت فجأة بأن وجودها يمثل نوعًا من القيود والإعاقة. لكنها تذكرت أنها تريد متابعة دراستها، وكان ذلك شعورًا طيبًا وصحيحًا منها بأنها ما زالت ترغب في تطوير نفسها والعمل على شخصيتها.

كانت لمسة الشفاه الندية على وجهها الصغير محببة للغاية. مدت البارونة يدها بحنان تحت وجه ابنتها المستدير الطفولي وقالت:

-"سأخبر ديروجا في أول فرصة أنّك كنتِ منذ البداية فارسه الصغير الشجاع".

تلألأت عينا مينغو فخرًا، وقالت: "ولن أضع سيفي جانبًا حتى يصبح حرًا".

الفصل الثامن عشر

اشتدّت لهفة الجمهور المتعطّش لسماع شهادة ديروجا، لكن رغبتهم لم تُشبَع على الفور، إذ تم استدعاء الآنسة جوندل شفيرتفِجر لتكون أول شاهدة أمام المحكمة. قدّم لها رئيس الجلسة رسالة السيدة سويتر المتوفاة إلى ديروجا وسألها إن كانت تعرفها.

فأجابت الآنسة شفيرتفِجر، بعد أن ألقت نظرة عابرة بالكاد عليها:

- "نعم، إنها الرسالة نفسها التي أرسلتُها بالبريد قبل وفاة مينغو بأيام قليلة".

تنحنح الدكتور زيونمان قليلًا وحدّق في الطاولة أمامه، وقال:

- "لقد أُخفيتِ هذا عنّا في بداية المحاكمة".

فأجابت الآنسة شفيرتفِجر بثبات متحدٍّ، وقد غلب الحزن عينَيها الرماديتَين الكبيرتَين:

- لا، بل كذبت. إنها المرة الأولى في حياتي التي أفعل فيها ذلك، وكان لا بدّ لي منه، لأنني لو قلت الحقيقة لأُخلف وعدي تجاه صديقتي الراحلة. ولم أستطع أن أفعل ذلك... خصوصًا لأنها ماتت".

أجابت:

- "سألتني صديقتي إن كنتُ مستعدة لأفعل شيئًا من أجلها. قلت لها إنني سأبذل ما بوسعي، رغم أن قدرتي محدودة للأسف. فقبلتني وقالت إن الأمر في ذاته ليس كبيرًا، لكنه قد يعني لي الكثير: أرادت مني أن أوصل رسالة إلى ديروجا، من دون أن يعلم أحد بذلك، لا الآن ولا لاحقًا. وعدتها أن أفعل ما تشاء، وسألتها إن كانت تستطيع أن تخبرني بما تكتبه له، ولماذا يجب أن يبقى الأمر سرًا. فقالت إنها تشعر بالحاجة لأن تودّعه، في حال لم يطُل بها العمر، وأن رغبتها في إبقاء الأمر سرّيًا تعود فقط إلى خوف - قد يكون بلا مبرر - من أن يُساء فهمها أو يُسخر منها".

ثم سألها رئيس الجلسة:

"أفلم يطرأ لك قطّ"، سألها، "احتمال وجود هذا الارتباط كما بدا لنا الآن؟ ألم تقولي إن صديقتك أخبرتك - أكثر من مرّة - أنها ستكون ممتنّة لمن يضع حدًا لآلامها بأن يقتلها؟".

فأجابت الآنسة شفيرتفِغر:

"ظننتُ ذلك مجرّد انفعال عابر"، قالت. "ولم أدرك إلا الآن كم كانت صديقتي تُحكم السيطرة على نفسها في حضوري. هذا فضلًا عن أنني لم أكن أحسب ديروجا أهلًا لخيرٍ قط، بل قادرًا على الشرّ وحده. لقد أسأتُ إليه كثيرًا".

فقال الدكتور زيونمان بنبرة عتاب خفيفة:

- "أوَ ما خطر لكِ أن في ذلك مساسًا بالعدالة، لو أنّ ديروجا

قتل زوجته السابقة ثم أفلت من العقاب؟".

فأجابت الآنسة شفيرتفِجر بحدّة متماسكة:

- "كنتُ أريد أن أصنع ما يمليه عليّ ضميري... وأدع الباقي لله".

قال الدكتور زيونمان بعد صمتٍ وجيز:

- "بصفتي إنسانًا، لا أستطيع أن أوبّخ تصرّفك، رغم أنّه لا ينبغي أن يُقدّم نموذجًا يُحتذى به في حالاتٍ أخرى".

بعد انتهاء استجواب الآنسة شفيرتفِجر، جاء الدور على ديروجا للتحقيق معه.

ولكي يكون واضحًا أكثر أمام هيئة المحلفين، طُلب منه مغادرة مقعد الاتهام والجلوس في المكان المخصص للشهود.

بدى شاحبًا، كأنّ الدم غادر وجهه، غير مبالٍ، متضايقًا، مغلقًا على نفسه، وكأنّه يريد أن يترك أثرًا مقلقًا في نفوس من حوله، وربما يجد في ذلك متعة غريبة وسادية.

قال رئيس الجلسة بجدّية:

- "لقد اعترفت، أليس كذلك، بقتل زوجتك السابقة، بعد أن كنت تنكر ذلك حتى الآن؟ وهل سافرت لهذا الغرض وبنية تحقيقه من براغ؟".

أجاب ديروجا بغضبٍ خافت:

- "لا أعلم... لماذا تُرهقونني بأسئلةٍ متكرّرة؟ أنتم تعلمون،

كما أعلم أنا، أنّ زوجتي كانت تتوق إلى التحرّر من آلامٍ لا تُحتمل، وأنها لجأت إليّ لأنها وثقت بي. شعرت بأنني إنسان بحق حين استجبت لطلبها. فالأطباء عمومًا يفتقرون إلى الجرأة للقيام بفعل منطقي كهذا. سافرت فورًا، وفعلت ما طلبت، وكان ذلك كافيًا بالنسبة لي".

قال الدكتور زيونمان: "الأمر لا يقتصر على معرفة الفعل فقط، بل نريد أيضًا أن نفهم النوايا التي حركت الفاعل".

اندفع ديروجا بغضب: "ماذا تعنون بذلك؟ ما هي النوايا التي يمكن أن تكون لدي، سوى مساعدة هذه المرأة المسكينة؟ إن جهلي بالميراث يتضح تمامًا من رسالتها!".

أجاب رئيس الجلسة بهدوء وجلال: "نعم، يظهر من الرسالة أنك لم تكن على اتصال بزوجتك السابقة منذ الطلاق، وأنك لم تكن على علم بالميراث حينها".

صاح ديروجا محتدمًا: "حينها! هل تقولون إنني سافرت لأعرض على زوجتي أن أساعدها مقابل أن تدفع لي مالًا؟ وهل كنت سأشترى بثمن ممتلكاتها؟ لا أعلم بأي مقياس يُحكم على البشر. يا له من عالم مقزز، حيث يُحكم على الناس من قبل من لا يعرفون سوى الدوافع الدنيئة!".

قال رئيس الجلسة بلهجة تجمع بين الصرامة وضبط النفس:

- أرجو أن تنتقي ألفاظك. سأغضّ الطرف عمّا صدر منك

حتى الآن، على افتراض أنك في حالة اضطراب نفسي. لكن بعد هذا التنبيه، سأجد نفسي مضطرًا لاتخاذ إجراءات جديّة إن تكرّر الأمر".

في تلك اللحظة وقف المستشار القضائي فاين، واستأذن في أن يهمس لبضع لحظات إلى موكّله.

اقترب منه، وأمسك طرف معطفه قائلًا بصوت خافت متوسل:

- يا عزيزي الدكتور... ماذا تفعل؟ كل شيء الآن يتوقف على أن تترك انطباعًا حسنًا. بعد قليل سينتهي كل شيء. تماسك، من فضلك، افعل ذلك من أجلي! تخيّل أنك تروي ما حدث لي وحدي. ذلك الرجل المسكين هناك لا يفعل سوى واجبه حين يضع كل الاحتمالات أمام عينيه. فمن يدري؟ ربما يراك قادرًا على الدناءة كما يرى غيرك".

لكن ديروجا انفجر بصوت حاد، يحمل غضبًا مكتومًا وسخرية مُرّة:

- "لا أدري لماذا يهيج دمي كلما رأيت هذا القطيع من الخراف المكسوّة بالصوف يحاكمون ذئابًا جائعة! يا ليتني كنت قاتلًا سفّاحًا أو مشعِل حرائق! هنا أشعر بالخجل لكوني إنسانًا صالحًا".

ابتسم المستشار القضائي فاين مطمئنًا، وقال: "لكنك لست كذلك حقًا... على الأقل ليس بالمعنى الذي قصدته الآن. أليس

لديك شعور تجاه تلك الشاهدة العجوز الجديرة بالثناء على مقعدها؟ احكِ لها القصة! تخيّل كم ستفرح عندما تدرك أنّك لم تعد الشرير الذي ظنتك".

تمتم ديروجا بغضب خفيف: "يا لك من غبي وعنيدا"، لكن عينيه بدتا أكثر ودًا، وأبدى استعداده للإجابة على الأسئلة الموجهة إليه.

ثم بدأ الدكتور زيونمان مجددًا: "عندما استلمت رسالة زوجتك السابقة، هل قررت فورًا تلبية رغبتها؟".

قال ديروجا بنبرة هادئة أقرب إلى السرد:

- "حين رأيتُ خطّ يدها - ذاك الخط الذي لم أراه منذ سنين طويلة، والذي بقي على حاله حتى الآن فعرفته في اللحظة نفسها - اجتاحني فورًا ذلك الشعور بالقلق والغضب والكراهية الذي كان يصيبني كلما تذكّرتها بمحض الصدفة... وإن كان ذلك لم يحدث إلا نادرًا في السنوات الأخيرة. قلت في نفسي: ماذا تريد مني الآن؟ هل تريد أن تُخبرني بأنها نادمة لأنها دمّرت حياتي؟ أم تتوهّم أنّ رباطًا ما لا يزال قائمًا بيننا؟ أم تظنّ أنني قادر على نسيان ما قاسيته بسببها؟ كان هذا تقريبًا ما دار في خاطري. لكن ما إن فرغتُ من قراءة الرسالة حتى انمحى كل ذلك دفعة واحدة، ولم أشعر إلا بالشفقة... وبالحب. لقد اختبرتُ شيئًا لم أعرفه قطّ من قبل: حبًا نقيًا، عظيمًا، صافيًا... نحو ذلك الكائن المعذّب الذي كم قاسى بسببي. حبًا لا يبتغي شيئًا إلا مواساتها... وتقديم يد العون

لها. تذكّرتْ خوفها الدائم من الألم، وتلك المرات الكثيرة التي سألتني فيها إن كنت سأحبّها بما يكفي لأقتلها إن ابتُليت يومًا بمرض موجع، وكيف كانت تشكرني حين أعدها بذلك، وكيف كانت ثقتها وتماسكها يتلاشيان، فتلوذ بي كطفلة تبحث عن الأمان. لقد تلاشت كلّ مشاعر الغيرة والحساسية والرغبة في الانتقام التي سمّمت قلبي تجاهها يومًا... ولم يبقَ إلا شعور واحد: أنّ مناداتها لي لم تكن عبثًا، وأن من واجبي أن أخلّصها من آلامها... إن لم يكن بإمكاني أن أشفيها".

استغلّ المدّعي العامُّ لحظة الصمت التي توقّف عندها ديروجا، وأخذ يُشير بإيماءات واسعة، ثم مال إلى أحد الخَدَم يهمس في أذنه بتعليمات قاطعة. وبعد ثوانٍ عاد الخادم حاملًا كرسيًا للمتّهم - الذي كان الإرهاق قد بدأ على ملامحه - فجلس عليه ديروجا شاكرًا، ثم تابع حديثه:

- "كان ردُّ فعلي الأوّل اندفاعًا إلى السفر فورًا، لكن سرعان ما أدركتُ ما قد يجرّه ذلك عليّ من عواقب بالغة الخطورة. لذا عزمت على تفاديها ما استطعت. أمّا الطريقة التي خطّطتُ بها لقتل مينغو، فقد عزمت على استخدام مادة الكوراري؛ إذ صادف أن كان لديّ منها مقدارٌ كافٍ. لقد استبعدتُ الكلوروفورم، رغم أنه بدا من وجهٍ معيّن خيارًا أنسب، غير أنّ رائحته الفاضحة تكشفه في الحال. وكان يمكن عندئذٍ الادّعاء بأنّها أقدمت على الانتحار - ما لم يُثبت عدم وجود الكلوروفورم في المنزل - لكنني رأيتُ أن الأوثق هو استعمال

سمٌ لا يكشف نفسه سريعًا، ولا يترك أثرًا مباشرًا، حتى لا يُثار أيُّ ظنّ بأن موتها وقع نتيجة عنفٍ متعمّد. ولأن زوجتي لم تكتب لي كيف يمكنني الوصول إليها، خطرت لي في البداية فكرة أن أرسل إليها وأسألها عن الطريقة، لكنني عدلتُ عن ذلك، إذ قلت لنفسي إن الرسالة قد تقع في يد خادمة أو ممرضة، وهي بالتأكيد لا ينبغي أن تُطلَع على السر. وبعد أن وضعت خططًا كثيرة ثم تراجعت عنها، عزمتُ على أن أتنكّر في هيئة متشرّد أو بائع جوّال، وأن أذهب إليها بهذا المظهر لأتفقّد الوضع وأبحث عن الفرصة المناسبة. كنت واثقًا من أنني سأجد بهذه الطريقة منفذًا ما، ومعتمدًا على الأفكار الموفّقة التي قد تخطر للمرء في اللحظة المناسبة وتساعده على تجاوز الصعاب. وزادني جرأةً أنّني ظهرتُ قبل سنوات في إحدى حفلات التنكّر في هيئة بائع فِخاخ للفئران، ولم يعرفني أحد - بل إنّ بعضهم ظنّني سلوفاكيًّا حقيقيًا دُسّ بين المدعوّين للتسلية. لذلك أخذتُ بذلة التنكّر تلك، ولففتُها داخل ورقة كما تُلفّ البضائع، واتخذتُها متاعي الوحيد، لأرتديها إمّا في القطار أو عند وصولي إلى محطة السكك الحديدية. أثناء الطريق، خطر لي أنّ تغيير ملابسي في القطار قد يجذب الانتباه ويثير الشكوك، وربما يُعيق خطتي، ولم أجد فرصة لذلك في المحطة. وبما أنّ الوقت كان ما زال مبكرًا جدًا، حوالي الخامسة والنصف، اعتقدت أنّي سأكون بعيدًا عن أعين الناس تمامًا في مرافق المحطة. وبالفعل، كان المكان خاليًا وصامتًا، وعندما رأيت المقعد

الحجري نصف الدائري الذي وصفه لنا الدكتور بيرنبورجر، بدا لي المكان الأنسب لأغير ملابسي وأخبئ بدلتي المدنية التي سأحتاجها للعودة. بعد أن ارتديت معطف المتشردين، قمت بلف البدلة الأخرى وأخفيتها تحت المقعد، وأضفت فوقها بعض أوراق الشجر الذابلة المتناثرة في كل مكان. ثم توجّهت إلى مقهى صغير في أطراف المدينة لتناول الإفطار، ليس لتجديد نشاطي بقدر ما كان لاختبار الانطباع الذي أتركه، ولاحظت أنّ الناس أخذوني بالفعل على الصورة التي أردت أن أقدّمها عن نفسي: متشرد بسيط، عابر سبيل بلا شأن يُذكر. حتى وقت الظهيرة، كنت أتجول هنا وهناك، ثم توجهت إلى شارع الحديقة. لم أكن متوتّرًا على الإطلاق، سوى أنني كنت أشتاق لرؤية المارموت مرة أخرى. ولم أعد أفكر كثيرًا في الغرض الذي جلبني إلى هنا، بل كنت منشغلًا فقط بكل ما سنتحدث عنه. عندما فتحت أورسولا الباب، كان من الصعب عليّ ألّا أكشف عن نفسي، فقد كنت سعيدًا جدًا برؤيتها مرة أخرى؛ كنت أرغب في تحيتها وسؤالها إن كانت تعرفني. وعندما رنّت مينغو وأغلقت أورسولا الباب في طريقها للخروج، أدخلت بسرعة أحد الملاعق الخشبية التي كنت أحملها للبيع بين الباب والإطار. كانت فكرة لحظية لم أكن لألجأ إليها لو كان لدي وقت للتروّي، فقد كان هذا المخاطرة قد تفشل بسهولة. ومع ذلك، كنت واثقًا من أنّه بإمكاني التواصل مع أورسولا بطريقة ما، إذا اكتُشف أمري. وضعت طبق الحساء الذي أحضرته لي أورسولا على الدرج،

ثم دخلت بشكل عشوائي إلى الباب التالي؛ وكان يؤدي إلى غرفة الزوار الخالية. من هناك، سمعت أورسولا تعود وفتحت باب الشقة وهي تتذمر عندما وجدت الطبق المملوء في الخارج. وبعد أن اختفت في المطبخ، تقدمت بحذر ورأيت من خلال باب الغرفة المجاورة سرير مينغو. همست قائلًا: "مارموت، لقد جاء دودو!". فأجابت هي همسًا: "دودو! انتظر حتى تذهب أورسولا". وأنا جالس وحدي في غرفة الضيوف، مستمتعًا بالصمت والهدوء، شعرت بسعادة غامرة. لساعات طويلة اجتاحتني نشوة لا مثيل لها على وجه الأرض، ربما شعرت بها القديسات المعذّبات حين انتهى الألم وحلّت الملائكة حاملةً تاج الحياة الأبدية عليهن. كان قلبي ممتلئًا بالكامل بمحبة إلهية لا تريد سوى سعادة الحبيب.. لقد رأيتها الآن مجددًا، المرأة التي كان مجرد ذكر اسمها سابقًا يثير فيّ انفجارًا من الشغف والحب والكراهية والرغبة في الانتقام. ماذا تبقى منا نحن الأطفال الذين كنا قبل ثلاثين أو أربعين أو خمسين سنة؟ لقد تغيرت أجسادنا بالكامل منذ ذلك الحين، وربما لم يبق أي من أفكارنا أو مشاعرنا القديمة، ومع ذلك، أن نكون نحن أنفسنا هو الشيء الأكيد الوحيد الذي نعرفه. آه، من مارموت التي كنت أسميها يومًا ما، لم يبق شيء، ومع ذلك، في لحظة واحدة، رأيت في وجهها الذي دمرته السنوات والمرض، ذلك الوجه نفسه الذي كان يميزها وهي طفلة: مشبع بالبراءة والحب واللطف معًا. لم تكن تظهر لي إلا كهيئة روحية خالصة، ولا أدري بأيّ عينين رأيتها. كان جسدها

جسد امرأة مسنّة، مشرفة على الموت، أشبه بنبتة داهمها صقيعُ الليل، فبقيت واقفة في ضوء الشمس كأنها مومياء. لم يبقَ في مارموت المسكينة شيء قد يثير هوى رجلٍ أو اهتمامه، ولكنها كانت عندي عزيزة، ثمينة، مقدّسة، حتى إنني ما كنت لأتردد في بذل حياتي كلها لو كان بوسعي أن أبيع لها سعادتها بذلك. يا لكِ من مخلوقة مسكينة عاجزة، قلت في نفسي، لن أدعكِ تتألمين بعد اليوم! مهما كلّفني الأمر، ومهما كانت العواقب عليّ قاسية، سأمنحك السلام. ولو انتقلت إليّ كل آلامك، لتقبلتها راضيًا ولابتهجت، ما دمتِ أنتِ تجدين الراحة بدلًا مني. كنتُ قد ظننت من قبل أنه ينبغي لي أولًا أن أتبيّن طبيعة مرضها ودرجته، لكن رؤيتي لها جعلت ذلك دون جدوى، فقد كان مدى تطور حالتها واضحًا دون حاجة إلى سؤال. وما إن سمعت أورسولا تغلق الباب خلفها وتهبط على الدرج، حتى نهضتُ من مكاني، وفي اللحظة نفسها نادتني مارموت. جلستُ على حافة سريرها، وقلتُ لها كم كنتُ سأفرح لو كانت أورسولا ما تزال بقربها، وكيف لم يكن يسيرًا عليّ أن أمنع نفسي من الضحك لأنها لم تتعرّف إليّ. فقالت: "لقد كنتُ لأعرفك حالًا". ثم مضينا نتحدّث عن الماضي ونتبادل شذراتٍ من الذكريات. وروت لي، بناءً على أسئلتي، عن مرضها وعملياتها وكيف كانت تُعالَج. لم يتغيّر صوتها، بل بدا لي أرقَّ من ذي قبل؛ كان ينساب في أذني كما يسمع المرء مساءً في الجبال نداء قَرَن الألب البعيد، محمولًا بتناسُجٍ رقيقٍ من النغمات يشبه ألوان الأفق عند الغسق: وردية

وخضراء ورمادية. وأثناء حديثنا، كانت تُمسك إحدى يديّ بين يديها، ثم قبّلتها في لحظةٍ عفوية وقالت: "يا لهذه اليد الطيّبة العزيزة الجميلة... كم فكّرتْ فيها كثيرًا، وكم ظننتُ أنّها ستُنقذني يومًا!". ولم تمضِ نصف ساعة حتى رأيتُ على ملامحها ما ينذر بقدوم نوبةِ ألم. عندها قلت في نفسي إن اللحظة قد حانت. أخبرتها بأنني أحضرتُ شيئًا يخفف عنها الألم، وبأنني سأُعدّه الآن في المطبخ. لكي نتابع حديثنا دون أن يقطعنا أحد، سألتني وهي تنظر إليّ بعينين مليئتين بالقلق وترتجف زاويتا فمها: "هل سيؤلمني؟"، يا لها من مرموطةٍ صغيرة، مسكينة وخائفة! فعلى الرغم من أنّها كانت تتمنّى الموت، كانت ترتعب منه. ضحكتُ وقلت: "ما هذا الكلام؟ لن يحدث الأمر بهذه السرعة. أريد أولًا أن أراقبك قليلًا؛ فربما، لو لقيتِ عنايةً جيدة، يمكن أن تستعيدي عافيتك من جديد". ذهبتُ إلى المطبخ، أحضرت كأسًا، وخلطت السمّ بعصير الليمون والسكر بحيث يُغطّى طعمه المرّ. وعندما عدتُ، كانت آلامها قد اشتدّت، وبينما كنتُ أساعدها على الجلوس لتشرب، أخبرتني أنّها حلمت بطفلتنا مينغو الليلة الماضية. قالت: "آه، كم أشتاق لرؤيتها من جديد... ثم فيما بعد، حين تأتي أنت أيضًا، نقف نحن الاثنتين متشابكتَي الأيدي ننتظرك". أومأتُ لها، وأسندتها بذراعي، وقرّبت الكأس من شفتيها. نظرت إليّ بامتنان، وشربت بلهفة. انتظرتُ حتى لفظت أنفاسها الأخيرة، ثم أعدتُها إلى وسادتها، وقبّلت جبينها وقلت: "وداعًا يا مرموطتي العزيزة الحلوة". بعد ذلك رتبتُ كلّ شيء في

الغرفتين كما كان، ثم دخلتُ المطبخ، غسلت الكأس، ومَحوتُ كل أثر لوجودي، وغادرتُ. لم أصادف أحدًا في البيت، لكن عند الممر المرصوف المؤدي إلى بوابة الحديقة رأيتُ البواب واقفًا. إلى ذلك الحين، كنتُ هادئًا تمامًا، أو على الأقل كنت أعتقد ذلك. لكن عندما رأيت البواب، بدا لي وكأنّي لافتٌ للنظر، وأن أفعل شيئًا لأبدو طبيعيًا. بلا وعيٍ منّي، مددت يدي إلى جيبي وأخرجت سيجارة، ووقفت أمامه قائلًا: "هل لديك قداحة، يا صاحب النعمة؟". وبعد أن أخذتُ نفسًا منها، شعرت بالاشمئزاز، فألقيت السيجارة في الشجيرات، دون أن يخطر ببالي في تلك اللحظة أنّ هذا قد يلفت الانتباه. كان القطار التالي إلى براغ ينطلق في الصباح الباكر، وكانت الساعة لم تتجاوز السادسة والنصف مساءً. تجولتُ مرة أخرى في أطراف المدينة، وجلست في مقهى هناك. ومع حلول الليل، توجهت إلى مرافق المحطة. بدا لي أنّ الوقت ما زال مبكرًا لأتمكن من تغيير ملابسي، لكنني لم أرغب في المغادرة، فجلست على المقعد الحجري الذي أخفيت تحته بدلتي، منتظرًا حلول الظلام. لقد تلاشت الأحاسيس الداخلية التي كانت تملؤني عند رؤية مرموطتي، وحلت مكانها خيبةٌ مُرهقِة، كنت أرتجف من البرد، لم أتناول طوال النهار شيئًا سوى قليل من القهوة السادة، وكنت ضعيفًا ومنهكًا إلى حدّ أنني لم أعد أعلم حقًا لماذا أجلس هناك. بدا لي كلُّ ما فعلتُه سخيفًا ومثيرًا للشفقة. وعند منتصف الليل هبّت ريحٌ قوية، وشعرتُ بأن البرد قد نفذ إلى عظامي، فهزّني وأخرجني من

ذلك الجمود الكئيب الذي كنت غارقًا فيه. ولأن السكون كان يخيّم على المكان كله، نهضت، وسحبتُ الحزمة من تحت أوراق الشجر الذابلة التي كنت قد خبأتها بها، وبدّلت ملابسي. لم أرغب في أخذ معطف العمل معي، وفكّرتُ في بادئ الأمر أن أعيده تحت المقعد، ثم خطر لي فجأة أنّ التخلّص منه بإلقائه في القناة سيكون أفضل. وقفتُ على الجسر، مستعدًا لرميه، حين تذكّرت النقود التي ما زالت في جيبه. وفي طريقي إلى المحطة أخذتُ أتخيّل المصيبة التي كانت ستقع لو أنني بقيت بلا مال، ثم تذكّرتُ أخيرًا أن معي أيضًا رسالة مينغو، التي احتفظتُ بها تحسّبًا لأن أنسى عنوان شقتها. لقد شعرت بالأسف لفقدان الرسالة، لكن التعب واللامبالاة جعلا العودة لمحاولة انتشال الحزمة أمرًا مستحيلًا تقريبًا. ورغم أنني عادة لا أبالي بمثل هذه المشاعر، شعرت بالرعب أمام المكان الخالي، كأنني أرى نفسي جالسًا على المقعد الأبيض أمام المياه السوداء لو عدت إلى هناك. وفي القطار غلبني النوم على الفور، ونمت نومًا عميقًا حتى وصلت إلى المنزل، وكأن أحدًا لم يلحظ وصولي أو غيابي".

ثم سأل الرئيس، الذي ظل خلال السرد الطويل يلعب بقلمه ومستغرقًا في تأمله: "لماذا لم تعرض الحقائق منذ البداية كما هي؟ كان ذلك ليمنحك موقفًا مختلفًا منذ البداية".

أجابه ديروجا: "نعم، لو صدّقني أحد! الدليل الوحيد الذي كان بوسعي تقديمه، رسالة زوجتي، قد فقدته، ولم يخطر

ببالي إمكانية استعادتها. ومع ذلك كنت مقتنعًا أنه حتى لو تمكّنت من استرجاع المعطف، فالماء كان قد دمر الرسالة بالتأكيد".

قال الدكتور زيونِمان بعد الجلسة لبقية السادة:

- "قصة غريبة حقًا! أعترف بأن هذا الرجل كاد أن يحرّك مشاعري. مثل هذا القدر من المودة المتبادلة بين زوجين نادرًا ما نراه".

فقال المدّعي العام بدهاء:

- "لكنّهما كانا مطلّقين أيضًا".

فضحك الجميع.

وأضاف الدكتور زيونِمان:

- "على أي حال، أراه إيطاليًا عصبيًا وحساسًا بعض الشيء. لم أكن مخطئًا حين شبّهته بالحرباء".

وقد أقرّوا له بذلك. لكنهم قالوا إنّه، في النهاية، ليس جريمة أن يكون المرء حرباء؛ بل إنّ كثيرين يجدون في ذلك مسحة من السحر والجاذبية.

فقال المدّعي العام مبتهجًا:

- "لقد كان لعبةً في أيدي السيدات. ولذلك - ومن أجل السيدات - ينبغي تبرئته. آمل أن هيئة المحلفين لا تنسى أنّ النساء هنّ اللواتي يحسمن الأمور في الحياة العامة كما في

الحياة الخاصة".

فقال الدكتور زيونِمان:

- "ولا تنسَ أنت أيضًا أنّ هناك نساءً لا يبرزن لا في الحياة العامة ولا الخاصة، ومع ذلك هنّ أشجع من رجالنا الأقوياء".

وكان الجميع يلاحظ إعجابه الواضح بالآنسة جوندِل شفيرتفِجر، وأخذوا يمازحونه بذلك.

فقال الدكتور زيونِمان مدافعًا عن نفسه:

- "أنا أنظر إلى الجوهر، ولا تخدعني المظاهر والبريق، على خلاف حضرة المدّعي العام الشاب دائمًا".

فضحك المدّعي العام، وقال:

- "لقد كذبت كذب القدّيسات، ولا مانع لديّ إن منحها القضاء هالةً بدل العقوبة، فقد عانت نصيبها من الشقاء سلفًا. أمّا بعد ذلك سأُطبّق نصّ القانون بصرامةٍ أكثر من ذي قبل...".

الفصل التاسع عشر

لقد بزغ الصباح حين عادت مينغو إلى الفندق، حيث كانت أمّها جالسة قرب الموقد تقلّب صفحات كتاب.

سألتها بنبرة استنكار وهي تضع الكتاب في حجرها:

- "أين كنتِ؟ لقد أقلقتِني عليكِ".

فقالت مينغو بدهشة:

- "لكن يا أمي... لم أتوقع ذلك. حين لا نكون معًا، لا تعرفين متى سأعود، ولا تقلقين علي".

فأجابتها البارونة بنفاد صبر:

- "الأمر مختلف يا مينغو. لو شغلث بالي بكِ كلما ابتعدتِ عني، لما بقي لي غُمر أعيشه. أمّا هنا فعليكِ أن تراعي وجودي وتلتزمي بالأعراف السائدة. الفتاة المنتمية إلى عائلة محترمة لا يجوز أن تتجوّل وحدها في الشوارع بعد حلول الظلام".

خفضت مينغو نظرها للحظة، وقد أدركت أنها في هذا المكان الغريب ما زالت تجهل الكثير من القواعد غير المعلنة، فارتسمت على وجهها ابتسامة خفيفة خجولة.

وقالت بصوت خافت:

- "لم يخطر ذلك ببالي... فقد اعتدت الأمر. كنت سعيدة يا أمي، هذا كل ما في الأمر".

"سعيدة؟ ولماذا؟" سألت البارونة. "هل لأننا سنسافر إلى باريس، أم لأن بيتر هازه سيرافقنا، أم لأنك ستدرسين؟".

"أوه لا يا أمي"، أجابت مينغو، "بل لأن المحاكمة الرهيبة على وشك أن تنتهي، ولأنه سيُبرَّأ. أليس كذلك؟ سيحصل على البراءة، أليس كذلك؟".

"أعتقد ذلك بالتأكيد"، قالت البارونة.

جلست مينغو على وسادة عند قدمي والدتها، ونادت بحماس: "لكن براءته واضحة كالشمس!".

"وفق نص القانون، فهو ليس بريئًا تمامًا"، قالت البارونة.

ارتسم على وجه مينغو مزيج من الريبة والخوف، ثم تحول تدريجيًا إلى ضعف وعجز يشبه طفلًا صغيرًا يواجه موقفًا صعبًا. انفجرت دموعها وهي تعانق ركبتي والدتها بكلتا يديها. "يا أمي، لا أطيق هذا... لا أستطيع تحمله!" تنهدت وهي تنتحب بحرقة.

دفعت البارونة ابنتها برفق بعيدًا بيديها، وسألتها بدهشة امتزجت بنبرة عتاب خفيف:

- "ما بكِ؟ ماذا جرى لكِ يا صغيرتي؟".

وكانت في الوقت نفسه تحاول صدّ ألمٍ حادٍ، كأن شيئًا قبض على قلبها فجأة.

لكن مينغو تشبثت بأمها بقوة وهي تنتحب:

- "لا تُبعِديني عنكِ يا أمي... لستُ مسؤولة عما أشعر به! ساعديني، ليس لي سواكِ! لا أستطيع أن أعيش من دونه".

انحنت البارونة نحوها، ورفعتها إلى حضنها، وضمت وجه ابنتها المبلل بالدموع إلى وجهها وهي تقول بحنان:

- "يا صغيرتي مينغو... أتحبينه إلى هذا الحد؟".

ازدادت مينغو قربًا منها وهي ما تزال تنتحب، وقالت بصوت خافت يكاد يُسمع:

- "كنتُ سأموت عن طيب خاطر... لو كان في موتي ما يجعله سعيدًا".

مسحت البارونة وجه ابنتها الصغير، وضمّتها إلى صدرها برفق، ثم قالت مهدئة:

- "يا صغيرتي العزيزة، من الطبيعي أن يترك أثرًا قويًا في قلبك الطيب الحالم. نعم، له سحرٌ لا يُنكر. لكن صدّقيني، ليس هذا هو الرجل الذي يمكن أن يمنحك السعادة، هذا فضلًا عن أنّ سنّه ومكانته في الحياة يجعلان مجرد التفكير في الزواج منه أمرًا مستبعدًا منذ البداية".

فانتفضت مينغو غاضبة، وقالت:

- "مكانته في الحياة؟ يا أمّاه، ولو كان من البسطاء في الشوارع، لظل فوقي... فوقي وفوق كل الرجال الذين عرفتهم! يا أمّاه، لا أحتمل أن تفكّري أو تتحدّثي بهذه القيود المحدودة. وما شأن عمره بي؟ أأريد منه شيئًا؟ إن كان شبابي

يستطيع أن يُبهج قلبه لحظة - كما يبهجنا منظر زهرة - فسأكون سعيدة إذا أهدَيتُه تلك اللحظة".

وتوقفت فجأة حين رأت عيني أمّها الجميلتين الرماديتين المظللتين بالسواد وقد امتلأتا بالدموع، وآثارها تنحدر على وجنتيها الشاحبتين. فأخذت المنديل الصغير المطرّز بالدانتيل من يد البارونة، وجففت وجهها بلطف، ثم سألت متأملة:

- أهذه دموعي؟".

"فلمن تكون إذن؟" قالت البارونة مبتسمة.

"لكن عيناكِ تدمعان أيضًا"، تابعت مينغو. "آه يا أمي... يا لقلبي الأسود! أيّ ابنةٍ سيئة أنا لأسبب لكِ كل هذا الحزن! لكني لا أستطيع منع نفسي... الأمر أقوى مني بكثير! كل شيء - كل ما أملكه - كنتُ سأعطيه... لو أنه أحبني ولو قليلًا! لو أنه فقط قبل بوجودي قربه! لا أعرف ما الذي سيؤول إليه حالي من دونه".

قالت البارونة برقة: "يا صغيرتي الحلوة مينغو...".

فقاطعتها مينغو، ترجّيًا لا اعتراضًا: "قولي: يا صغيرتي الحلوة مينغو...".

فابتسمت البارونة، وأعادت: "يا صغيرتي الحلوة مينغو... اهدئي أولًا وجففي وجهك. فأنتِ بالتأكيد لا تريدين أن يراكِ والدكِ بهذه الحالة، وهو قد يدخل في أي لحظة. أخشى أنه

قد لا يتفهم مشاعرك كما ينبغي ثم - دعينا ننتظر الحكم بهدوء أولًا. حتى لو لم يُبرِّأ، فسيواصل حياته؛ لذلك ليس علينا أن نفقد الأمل حتى في أسوأ الاحتمالات. وما سيأتي بعد ذلك لا يتوقف علينا. لا يمكننا أن نجبره على محبتك، لكني أظن أنّ في قلبه تعاطفًا نحوك، على الأقل من أجل ابنته الراحلة".

سألت مينغو وهي تربّت على وجهها الساخن بمنشفة مبلّلة:

- "أتظنين ذلك فعلًا؟".

كان لهذا الحنان الأمومي غير المعتاد وقعٌ مهدِّئ، حتى إنها تشبثت بأمها بلا وعي، كأنها تخشى أن يتبدد هذا الشعور الجميل كما يتبدد الحلم عند اليقظة.

فقالت البارونة:

- "يبدو أنكِ عدتِ فجأة طفلة صغيرة، وتفكرين كما يفعل الأطفال: ماما ستجلب لي الشمس والقمر إذا رغبت بذلك".

رفعت مينغو إليها نظرة واسعة، مملوءة بالدهشة والتصديق، ثم أومأت برأسها.

وقالت همسًا:

- "ذلك لأنكِ طيبة جدًا معي".

لم تغفُ البارونة إلا قبيل الصباح، واستيقظت بقلبٍ مُرهَق خالٍ من البهجة.

غير أنّ ترحيب مينغو الرقيق، وحركاتها الصغيرة الرقيقة، ونظراتها الخجولة المشبعة بالحنان، أخذ يُنعش روحها رويدًا رويدًا.

وقالت لها:

- "حسنًا يا مينغو... سأصطحبكِ معي إلى جلسة المحكمة اليوم، لكن بشرط أن تكوني هادئة. فأنا أكره لفت الأنظار، خاصة أمام الناس".

وعدتها مينغو بذلك، ولم تُختبَر بوعدٍ عسير؛ فقد كانت المرافعات قصيرة، ولم يلبث المحلّفون بعد مداولات لم تدم أكثر من نصف ساعة أن رفضوا اعتبار المتهم مذنبًا.

وسط الاضطراب العام الذي ساد القاعة، بدا ديروجا وحده غير متأثر؛ غير أنه، حين لمح نظرة مينغو الممتلئة بالقلق والحب والمتجهة إليه بعد أن هنأته البارونة، استرخَت ملامحه وتلطفت.

وقال وهو يومئ إليها بودّ:

- "يا مينغو الصغيرة... هل أنتِ راضية الآن؟ أرأيت؟ الناس ليسوا بهذا السوء!".

في البداية اجتاحتها سعادة هذا اللقاء؛ لكن عندما جلست بجوار والدتها في العربة واستعادت كل ما مرّت به، بدا لها أن الرجل الذي كانت تعجبه قد عاملها ببخل نسبي.

مع من يحتفل الآن بانتصاره بكل سخاء؟ هل كان سعيدًا

بالفعل؟ لقد بدا على وجهه قدر كبير من النفور والاحتقار، رغم أنه قادر على الابتسام بحرارة. هل سيكون أسعد لو علم مدى إخلاصها الكامل له؟

قالت البارونة بعد الظهر، حين كانتا وحدهما:

- "سأزور الآن ديروجا لأعرف ما هي نواياه في المستقبل القريب، وسأطلب منه أن يعتبرني أحد أفراد عائلته. لن آخُذكِ معي، لأنك لا تملكين بعد القدرة على ضبط مشاعرك، ولن يكون من اللائق - كما سترين - أن تتصرف فتاة بشكل مبالغ فيه أمام رجل".

لم تكن مينغو موافقة على ذلك؛ فأن تُقيّد خلف قواعد اللياقة أمام هذا الرجل الوحيد بدا لها أمرًا لا يليق.

كان الطبيعي والصحيح - في الواقع - أن تقول له: "أنا لك، تقبلني كما أنا". لكن بما أنّها كانت تعرف أن والدتها لن توافق على هذا الرأي، وكانت في الوقت نفسه تخشى لقاء ديروجا بقدر ما تتوق إليه، فقد قبلت برحمة وامتنان.

سألت: "لكن يمكنني أن أرسل له تحياتي على الأقل، أليس كذلك؟".

ابتسمت البارونة وقبلتها، قالت لها:

- "اذهبي الآن في نزهة مع والدك؛ كي لا يطول عليك الوقت".

الفصل العشرون

عندما دخلت البارونة إلى غرفة ديروجا، وكان يجلس عند طاولة ويكتب، توقفت للحظة ثم قالت:

- "لا تبدو كمن خرج منتصرًا. لقد فقدتُ الشجاعة لأن أهنئك".

أجابها ديروجا: "أنتِ مخطئة. لقد اتخذتُ لتوّي قرارًا أستحق التهنئة من أجله: سأغادر هذا المكان الذي لم يَرُقْ لي".

قالت البارونة: "كنتُ أتوقع ذلك. ألا ترغب في مرافقتنا إلى باريس؟".

قال ديروجا: "لا، أريد أن أذهب بعيدًا... بعيدًا جدًا".

قالت البارونة: "حسنًا، هذا أيضًا جيد، في البعد ستنسى الآثار القاسية التي مررتَ بها هنا، وعندما تدرك أنك وسط هذا الخراب الكئيب قد عثرت على كنزٍ ثمين - قلب نقي، دافئ، سيجذبك تدريجيًا للعودة".

قال ديروجا بابتسامة يختلط فيها الرفق بشيء من المرارة الخفيفة:

- "لستُ واثقًا إلى الدرجة التي تجعلني أظن أنني كسبتُ قلبكِ، سيدتي البارونة... ثم إنّ ما وصفتِه لا ينطبق عليّ تمامًا".

فأجابته البارونة وقد مالت برأسها برقة، وفي عينيها ظلّ من أسى لطيف:

- "لا... ليس تمامًا. كنتُ أفكّر في قلبٍ آخر... قريب من قلبي، قريب جدًا".

تمتم ديروجا كمن يستدعي ذكرى بعيدة:

- "مينغو الصغيرة...".

ثم رفع رأسه فجأة، وأضاف بصوتٍ يخالطه ألم مكبوت:

- "آه يا سيدتي البارونة... أتظنين حقًا أنني أستطيع أن أعيش بجوار من يذكّرني بها في كل لحظة؟ إن خطر لكِ أن هذا ممكن... فأنتِ لا تعرفين ما تعنيه محبّة الوالد لطفلته".

فقالت البارونة، وقد ارتفع بصرها إليه بنظرة شاحبة يغمرها حزن هادئ:

- بلى... لقد عرفته".

قال ديروجا: "أنا أصدّقكِ... لكن ربما يصعب عليكِ أن تتصوّري موقفي".

فقالت البارونة: "من الطبيعي، قبل كل شيء، أن أشعر بما يخصّني ويخصّ ابنتي. أن تكره أمّ أن تزوّج ابنتها لرجل يكبرها بهذا القدر... هذا أمر لا يحتاج إلى تفسير. ومع ذلك، حين قرّرت أن أحدثك عن مشاعرها إليك، فعلتُ ذلك لأن قوّة هذه المشاعر، وثقتها البريئة، حركت قلبي، وأعطتني

الإحساس أنّه ربما - كما يقولون - قد يكون هذا هو ما أراده الله. يضاف إلى ذلك أنّني أخشى أن أراها تتألّم".

فقال ديروجا: "الألم الحقيقي هو ما سيصيبها لو تحقّق ما تتمنّاه. إنها لا تعرفني. وحتى أنتِ، سيدتي البارونة، يبدو أنكِ لا تعرفينني كما ينبغي".

فقالت البارونة، وقد احمرّ وجهها بخجل لطيف: "الطبيعة لم ترد لنا نحن النساء أن نعرف الرجال تمام المعرفة. وإن لم تكن قد أعمت أعيوننا، فعلينا أن نُعصبها. لكنني كنت أعتقد - منك أنت تحديدًا - أن الأمر يعتمد فقط على إرادتك لتكن، إن لم تكن رجلًا عظيمًا، فرجلًا صالحًا للغاية".

فقال ديروجا: "لو كان ذلك صحيحًا، لكنتُ كذلك بالفعل. غير أن إرادتي لا تعتمد عليّ وحدي، بل على دمي، وعلى أعصابي، وعلى الانطباعات التي أتلقّاها، وعلى آلاف التيارات والاختناقات التي لا سلطان لي عليها. مرّت بي لحظات شعرت فيها بالاشمئزاز من نفسي، بعد أن ارتفعت مرة واحدة فوق كل دنايات البشر، ولا أريد تكرار تلك التجربة".

فقالت البارونة بإلحاحٍ رقيق: "أوَ لا يكون أفضل وسيلة لتجنب ذلك... بأن تربط حياتك بحياة شابةٍ نقية، واثقة؟".

فقال ديروجا: "لو كنتُ قويًا... نعم. ولكن ما دمتُ ضعيفًا، فلا يبقى أمامي إلا الطريق الآخر... أن أرحل".

كان في ملامحه، أو في نبرة صوته، ما جعل البارونة تفهمه

فجأة بشكل صحيح. ارتجفت يدها الموضوعة على مسند كرسيه، وشحب وجهها. وانتابها خوفٌ مرعب من أن يقدم الآن في تلك اللحظة بالذات، أمام عينيها، على إيذاء نفسه... وفي الوقت نفسه ارتعدت أعماقها حين خطر لها أنّ ذلك ربما يكون – على نحو مخيف – الحلّ الأفضل لها هي.

فأنّت وهي تغمض عينيها وتهوي برأسها إلى الخلف: "يا لِهَول ما تقول... إنّه لأمرٌ مفزع".

فقال ديروجا: "ليس الأمر مروعًا إلى هذا الحد. ما كنتُ لأبوح به لو لم أعلم كم أنتِ عاقلة. دعيني أعترف لكِ: حين لامستني نظرتك الأولى - تلك النظرة التي امتزج فيها النفور بعاطفةٍ هبّت فجأة - انتفض في داخلي شوقٌ قوي للحياة، شوق لم أحسّ به منذ أعوام طويلة. فقد كنت أعيش... فقط لأنني موجود، من غير أن يغريني شيء بالبقاء. أمّا ذلك الدافع الذي أشعلتِه في داخلي لم يكن ساميًا ولا جميلًا؛ كان خليطًا مضطربًا من حبّ اللذة والغرور وحبّ الذات - تلك هي الأسس التي تقوم عليها عواطفنا نحن الرجال في أغلب الأحيان. لقد تضاعفت قيمة الثراء الذي وُهِب لي فجأة، وأردتُ، مستندًا إليه، أن أحيا مهما كلّفني الأمر، وأن أستمتع بالحياة بلا قيود. ومن يدري كيف كان سيؤول بي الحال لو لم يعثر الدكتور الطيب بيرنبورجر على رسالة مارموتّي المسكينة!".

همست البارونة بصوت خافت: "إذن ضَعُف الجديد أمام

القديم".

ابتسم ديروجا قائلًا: "يمكنكِ القول بذلك. فما إن لامستني أصابع الذاكرة، حتى نهض أمامي ذلك الزمن الإلهي الذي كان لي يومًا، ورأيت عندها كم كان ضحلًا وهشًا وعاديًا كلّ ما أحاط بي من بريق ومتعة، مقارنةً بالسعادة السماوية التي غمرتني حين منحتْ مارموثي المسكينة المريضة الموتَ رحمةً بها. نعم، ربما كنت سأصبح أغنى وأرفع شأنًا، وربما كانت ستتاح لي نساء أكثر أناقة ومقامًا مما مضى، لكن مع كل خطوة كنت أغوص أعمق في مستنقع الابتذال وأبتعد عن ذلك النعيم الإلهي... حتى أنسى في النهاية قدرتي على بلوغه".

قالت البارونة بحذر: "لا يستطيع المرء البقاء على القمم إلى الأبد".

فأجاب ديروجا: "أنا على الأقل لا أستطيع. ومع ذلك، فقد مُنحتْ يومًا نعمةَ التنفس في هواء علوي رقيق... ولا يجد ذوقي في زمنكم هذا ما يشبه تلك اللحظات الخالدة".

قالت البارونة مترددة:"ربما، قد تُغيّر مينغو رأيك لو جاءت إليك".

أجاب ديروجا: "ذلك سيكون نقمة علينا نحن الاثنين. دعوا للطفلة ذكرى جميلة ومقدسة، ربما تنير في يوم ما بعض الظلال القاتمة في حياتها. يسعدني أن أفكر بأنها تحفظ في

قلبها الطاهر صورة نقية عني. وعديني ألا تُدمريها، يا سيدتي البارونة!".

قالت البارونة بصوت مختنق: "إنها عزيزة عليّ كما هي عليها". وضغطت المنديل على عينيها وجلست أمامه صامتة فترة طويلة.

فجأة، وبين خضم مشاعرها وأفكارها المتشابكة، خطر ببالها أمر، وبتأثرها بذلك استدارت بسرعة وسألت: "وماذا عن الميراث المشؤوم؟ ماذا سيحدث له إذا ذهبت بعيدًا؟".

ضحك ديروجا وقال: "حقًا يا سيدتي البارونة"، تابع: "لو لم تكن جوندل شفيرتفجر موجودة، لكنت تمنيتها لكِ من قلبي. لكن، كما ترين، المال يذهب فعليًا إلى جوندل شفيرتفجر، لأن مارموتّي خصصته لها. ولأنها ستستخدمه بالطريقة التي أرادتها له مارموتّي، فهي الأجدر به في الحقيقة. ثم إنها - في رأيي - قد استحقّته، ذلك القلب الأمين الشجاع، رغم أنني غضبتُ منها مرة لأنها حكمت عليّ بقسوة. لكن غضبي في الحقيقة لم يكن موجّهًا إلا إلى نزاهتها التي لا تلين".

فقالت البارونة، وفي صوتها مسحة دلال متذمّر لطيف: "آه... أنتم يا سيد ديروجا، ومعكم الآنسة شفيرتفِجر، من أولئك الذين لا يرقّ قلبهم إلا لآلام الفقراء. صدّقني... قياسًا بظروفي، أنا أفقر - نسبيًا - من أفقر امرأة تعمل بالأجر اليومي".

فضحك ديروجا وقال: "نعم... ولكن فقركِ هذا نسبي فقط".

فقالت البارونة: "حسنًا، دعنا من هذا الآن. لديّ رجاء واحد فقط: لا تدع الدبوس... دبوس الرأس الإفريقي الذي تضعه في ربطة عنقك... يقع في يدٍ غريبة!".

فقال ديروجا: "سأعطيه لكِ كتذكار عندما أبدأ رحلتي. لكن إيّاكِ يا سيدتي البارونة أن تظني لحظة أنكِ السبب في رحيلي! لقد عزمتُ مرارًا على مغادرة هذه المحطة الموحشة... منذ زمن طويل، وقبل هذه القضية كلها. كنتُ أضجر هناك بالقدر نفسه الذي تضجرين به أنتِ في زواجك. ولعلك تتذكرين أنني ذكرتُ في بداية الجلسات أنّني رحلت مبتعدًا وسرتُ على غير هدى عبر الحقول، لألقي حتفي هناك في مكان ما، وحيدًا... كالحيوان. لم أبتدع ذلك، وإن لم يحدث بالضبط في اليوم الذي أشرتُ إليه".

وقفت البارونة، وقدّمت له يدها بتردد، وقالت: "دكتوري العزيز... كل ما قلته الآن ليس إلا تعبيرًا عن حالة نفسية يمكن فهمها بعد كل ما مررتَ به، لكنها ستهدأ وتزول. أصدقاؤك الكثيرون سيسعون إلى أن يخففوا عنك، وأنا على يقين بأنك غدًا ستشعر بطريقة أكثر واقعية... وأكثر إنسانية. ما كنتُ لأقدر على توديعك لو لم أكن أعتمد على ذلك".

فقال: "أقبّل يدكِ يا سيدتي البارونة... وسلّمي لي على مينغو".

وعلى الدرج، أخرجت البارونة منديلًا من الدانتيل من حقيبتها الصغيرة، وربطته على وجهها، بينما انهمرت الدموع على وجنتيها بلا قدرة على حبسها. لقّا مضى وقت وهي تتجوّل في شوارع هذه المنطقة النائية والمنعزلة، توقفت عن البكاء وتمكّنت من استجماع قواها. شعرت بعد بأنها لم تعد قادرة على العودة إلى المنزل، فقرّرت أن تعود إلى وسط المدينة، حيث المتاجر الأنيقة، في طرق متعرجة، لتقوم ببعض المشتريات الضرورية للسفر. لقد كان التفكير في باريس يبعث فيها شعورًا بالحرية. كانت تعتقد أنّ على المسرح الجديد ستتوالى المشاهد والتجارب الجديدة التي ستعالج جراحها؛ فهي بحاجة لذلك أكثر من مينغو. نعم، كان الوضع أفضل لمينغو، وهذا ما شعرت به بوضوح مع كل لحظة تمرّ.

لو تزوجت من ديروجا، ربما كانت فترة قصيرة من النعيم العاطفي ستشترى بثمن حياة مليئة بخيبات الأمل ومختلف أنواع المرار. فلولا الكنوز التي يحملها قلبه، لكان قد أصبح معها سريعًا الرجل المسن، متقلب المزاج، السئم، والمخمور في شيخوخته.

أما الألم الذي شعرت به الآن، فسيصبح قريبًا، كما تنبأ ديروجا، ذكرى مقدسة يحفظها الإنسان ويستمتع بالانعكاس عليها في أحلامه. وربما كانت حالتها النفسية بعد كل تلك الإثارات تجعلها مستعدة الآن لتكون متقبلة لتقدّم بيتر هازه،

الذي رافقها، أو ربما سينجح شخص آخر في جذب اهتمامها.

لقد كان لا بد لهذه التجربة أن تُلين جوهر روحها، الذي ظل حتى الآن مغلقًا أمام الحب. والآن، أصبح الأمر متوقفًا عليها وحدها لتؤمّن لنفسها حصادًا غنيًا للمستقبل. أما البارونة، على العكس، فاعتقدت أنّ خريفًا جافًا وشتاءً قاحلًا في انتظارها. انتابها قشعريرة، وشدت المعطف الفرو الذي كانت ترتديه في أيام الربيع الباردة حولها بإحكام.

هل وُجد في مكان ما على الأرض زمن إلهي، أو مناخ سماوي كما تحدث ديروجا عنه؟ آه، مع أي أفكار غريبة قد أزعجتها! لا، فقد كانت دائمًا تتجنب كل ما هو مبالغ فيه ومترف، وكانت تنوي الابتعاد عنه أكثر، لما يتعارض مع ذوقها الرفيع.

الحياة مليئة باللحظات المبهجة والساحرة؛ وفن التقاط هذه الفراشات الصغيرة والاستمتاع ببهائها دون لمسها، كان أمرًا أرادت أن تُتقنه أكثر فأكثر. هل كان بإمكانها أن تجد فرصة أفضل من باريس، وهي برفقة ابنتها وبيتر هازه، لتبلغ هذه الحالة من الاستعداد؟ أولَم يكن زوجُها - أخيرًا - رفيقًا جديرًا بالتقدير؟ وسيمًا، أنيقًا، لبقًا، مريحًا في صحبته، وذلك تحديدًا بفضل تلك الرتابة الباهتة التي يتسم بها؟

أصبح خطوها أكثر خفة، وتعابيرها أكثر إشراقًا. وحين وصلت إلى الفندق، كان في روحها من بهجة السفر ما يكفي لأن ينتقل شيءٌ منه إلى مينغو. وبعد بضعة أيام، وصلها في

باريس طرد صغير، كانت فيه دبوس ديروجا ذو رأس الرجل الأسود. اغرورقت عيناها بالدموع، لكنها أخفت الجوهرة سريعًا في صندوقٍ كانت تحفظ فيه نفائسها، عازمةً ألا تخرجها من جديد إلا حين يهدأ قلبها ويطمئن تمامًا.

---

(1) الكيمونو الصيني: رداء طويل وواسع بأكمام طويلة، يميز اللباس التقليدي الصيني غالبًا من الحرير أو القماش المزخرف.

(2) كوكب العربة: يعنى كوكبة نجمية، أي تجمّع من النجوم وليس كوكبًا واحدًا. فهي إشارة فلكية معروفة في الثقافة الأوروبية، وهي مجموعة من سبعة نجوم لامعة تُرى بوضوح في السماء الشمالية وتشبه شكل عربة يجرّها مقبض طويل ولذلك سُمّيت بهذا الاسم.

(3) الطبقة المخملية: أصحاب الثروة؛ يعيشون حياة مترفة ويحظون بمكانة اجتماعية عالية.

(4) طبقة الديمي موند: أشخاص على هامش المجتمع، يعيشون حياة براقة ومثير للجدل، يتمتعون بمظاهر الثراء لكن سمعتهم ليست محترمة بالضرورة.

(5) دافيد البرونزي: إشارة إلى تمثال داود البرونزي لدوناتيلّو، رمز الشباب والقوة والجمال الكلاسيكي.

(6) آلة آماتي: كمان أو فيولا أو تشيلو فاخر من صنع عائلة آماتي الإيطالية، مشهور بصوت نقي ورقيق.